شرح
العقيدة الواسطية

من تقريرات

سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ

رحمه الله ت ١٣٨٩هـ

مفتي الديار السعودية ورئيس القضاة والشؤون الإسلامية

كتبها ورتبها

محمد بن عبد الرحمن بن قاسم

رحمه الله ت ١٤٢١هـ

أخرجها وأعدَّها للطبع

ابنه

د. عبد المحسن بن محمد بن قاسم

إمامُ وخطيبُ المسجدِ النبويّ


شرح
العقيدة الواسطية

ⓒ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل الشيخ، محمد بن إبراهيم

شرح العقيدة الواسطية/ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ط ٢
الرياض، ١٤٢٨هـ

٢٨٠ ص: ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٠ - ٨١٠ - ٥٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ - العقيدة الإسلامية ٢ - التوحيد ٣ - التوسل أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٨/٧٥٧٥

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٧٥٧٥
ردمك: ٠ - ٨١٠ - ٥٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٢٨ هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

فإن العقيدة الصحيحة هي الأصل الذي يبنى عليه الدين، وهي أشرف العلوم وأجلّها قدراً، وكان السلف رحمهم الله يولونها جُلَّ اهتمامهم تعليماً ونشراً، وإيضاحاً وبياناً، سار على هذا النهج القويم علماء أفذاذ في مختلف العصور والقرون، من هؤلاء سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ مفتي الديار السعودية في زمانه، ورئيس القضاة والشؤون الإسلامية المتوفى عام ١٣٨٩هـ، فقد كان أمة في علمه وفضله، وفي دروسه وفتاواه، عكف على تدريس العقيدة أكثر من أربعين عاماً، يشرحها كل يوم كما يشرح غيرها من علوم الحديث والفقه والنحو وغيرها، لم يعتره في ذلك كلل، ولم يصبه ملل.

وهبه الله حسن التعليم، وجزالة اللفظ، وقوة المعاني، مع سعة العلم ورجاحة العقل، فتخرّج على يديه علماء أجلّاء، من أعلامهم: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، والجد الشيخ عبد الرحمن بن قاسم جامع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية مع ابنه محمد (الوالد) رحمهم الله جميعاً.

وقد كان الوالد محمد ـ رحمه الله ـ، ملازماً للشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ ملازمة تامة، امتدت اثنتين وثلاثين سنة، من عام ١٣٥٧هـ، إلى وفاة سماحته عام ١٣٨٩هـ، وكان الوالد ـ رحمه الله ـ يقيّد ما يسمعه من سماحته، من فتاوى وشروحات وتقريرات، ثم جمع فتاواه ورسائله في أربعة عشر مجلداً مع الفهارس، واعتذر من الاستمرار في التدريس في الجامعة، لإخراج شروحات الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ للمتون، فأخرج شرح متن (كشف الشبهات)، وشرح متن (آداب المشي إلى الصلاة).

وبين أيدينا شرح متن (العقيدة الواسطية) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قرأها الوالد على سماحته ثمان مرات، يقيد شرحه كاملاً في كل مرة من عام ١٣٦٧هـ، فتكررت كتابته لهذا الشرح ثمان مرات، يكتبه في حينه بلفظه وحروفه من فيه، لما وهبه الله من سرعة الكتابة، فكان يقيد تلك الشروحات ويسجلها في دفاتره، محافظة على أمانة النقل، وحرصاً على تقييد الفوائد، ثم كمّل بعضها ببعض ورتبها، واختار أوضحها وأشملها، وقد يَسُوق غير عبارة من شرح الشيخ ـ رحمه الله ـ تتميماً للفائدة، ويصدّرها بقوله: «عبارة أخرى» فتحصل منها شرحٌ وافٍ، سهل العبارة، جزل الألفاظ، غزير العلم، في بيان معتقد أهل السنَّة والجماعة في الأسماء والصفات وغيرها، ولا يعلم شرح للواسطية منذ زمن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ سبق هذا الشرح.

وللوالد ـ رحمه الله ـ تعليقات وضعها في الحاشية صدّرها بقوله «قلت» أَثبتُّها في مواضعها، ثم أدركته المنية عام ١٤٢١هـ قبل إخراج الكتاب، ولأهمية متن (العقيدة الواسطية) ولحاجة المسلمين

إلى شرحها، واصلت العمل لإخراج هذا الشرح الفريد بعد وفاة الوالد ـ رحمه الله ـ، سائراً على نهجه، ووضعت له عناوين في جانب الشرح، ليسهل فهمه، وعزوت الأحاديث الواردة في الشرح إلى من أخرجها، ووضحت ما قد يشكل فهمه أو ما يحتاج إلى توضيح، ووضعت ترجمة موجزة للشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ، وفهرساً مفصلاً للكتاب.

أسأل الله أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بمتنه، وأن يجزي علماء المسلمين أجزل المثوبة، وأن يتغمدهم بمغفرته ورحمته، وأن يجمعنا بهم في روضات الجنات.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عبد المحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم
إمام وخطيب المسجد النبوي
والقاضي بالمحكمة العامة
بالمدينة النبوية

ترجمة موجزة
للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله[1]

هو العلاّمة الجليل الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من بني تميم.

وُلد في مدينة الرياض عام ١٣١١هـ، وتلقى القرآن وهو ما بين الثامنة والعاشرة من عمره، وفي السادسة عشر من عمره أصيبت عيناه بالرمد فكف بصره.

*** شيوخه:**

جدّ في طلب العلم وقرأ على عدد من المشايخ منهم:

والده الشيخ إبراهيم، قرأ عليه الفرائض.

والشيخ عبد الله بن راشد، قرأ عليه الفرائض أيضاً.

وعمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، تلقى عليه علم العقائد والحديث.

والشيخ حمد بن فارس، أخذ عنه الفقه والنحو.

---

(١) هذه الترجمة مقتبسة من ترجمة الوالد له، وهي بتمامها في مقدمة فتاوى ورسائل سماحته.

والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، أخذ عنه الفقه والحديث والمصطلح.

والشيخ محمد بن حمود، قرأ عليه الفقه.

*** ذكاؤه:**

كان رحمه الله حاد الذكاء، سريع الحفظ، قوي الذاكرة، يحفظ المتن من قراءته عليه من المرة الثالثة، وربما الثانية، وكان يدل القارئين على مواضع الأبحاث في كتبها، ذاكراً رقم الصفحة أحياناً، وكان يحفظ متوناً عديدة في مختلف العلوم، ويدرك تقدير الوقت بالساعة لا يكاد يخطيء الحقيقة في بضع دقائق، مع أنه لم يستعمل الساعة في حياته.

*** اشتغاله بالتدريس:**

حين توفي عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف أخذ سماحته مجلسه، فبدأ بالتدريس في المسجد في مختلف العلوم، ولما توفي الشيخ حمد بن فارس والشيخ سعد بن عتيق، توسّع في مجالس التدريس، وعمر أكثر نهاره به، فكان يجلس ثلاث جلسات منتظمة للتدريس، الأولى: بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس، والثانية: بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين ساعتين إلى أربع ساعات، والثالثة: بعد صلاة العصر، وهناك جلسة رابعة ولكنها ليست مستمرة وهي بعد صلاة الظهر، وكان رحمه الله ينقطع بعد المغرب لمطالعة دروس الغد في الكتب التي كانت تدرس بعد الفجر.

وقد استمر يدرِّس على هذه الحال إحدى وأربعين سنة.

*** عبادته:**

كان رحمه الله شديد الخشية من الله، كثير الذكر له سبحانه والاستغفار، وتذرف عيناه دمعاً حين يكون في مناجاة الله، أو يسمع ما يحرك القلوب، يقوم من الليل ما يقرب من الساعة والنصف، لا يترك ذلك لا سفراً ولا حضراً، وكان رحمه الله حافظاً للسانه من الغيبة، وعُرف بذلك منذ حداثة سِنِّه حتى فارق الحياة، ولم يكن يسمح لأحد أن يتحدث في مجالسه بمثالب الآخرين أو تنقصهم، وكان يكره أن يمدحه أحد أو يثني عليه.

مخلصاً في عمله، لم يكن يوماً طالباً شهرة، ولا باحثاً عن سمعة، لم يُعرف عنه أنه تحدث عن أعماله على جلالتها وكثرتها.

*** زهده:**

لم يُعرف عنه رحمه الله أنه اشتغل بالبيع أو الشراء، لا بالاستقلال ولا بالمشاركة، بل كان مقتصراً على ما يتقاضاه من عمله، وكان يشغل عدة أعمال ولا يتقاضى إلا ما كان يأخذه قبل إحداث هذه الأعمال، ولم يكن يأخذ انتداباً، ولم يُعرف عنه أنه طلب من المسؤولين شيئاً يخصه.

*** صفاته:**

كان رحمه الله يتحلى بأخلاق فذة جمّة، أنيساً عند المخالطة، ألوفاً لمعاشريه، لا يتصف بشيء من الغلظة أو الفضاضة، مهيباً في قلوب الناس، شجاعاً قوي الشكيمة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يتردد في إعلان الحق أياً كان المخاطب به، بعيد النظر قوي الاستنباط، كريماً سخياً معروفاً

بالبذل والعطاء، سليم الصدر، لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، ولا ينتقم من أحد ناله منه أذى، بل كان ديدنه الصفح والتجاوز، بل المحافظة عليهم والدفاع عنهم أن ينالهم أحد بما يعرف أنه باطل.

*** الأعمال التي قام بها:**

١ ـ التدريس. واستمر عليه إحدى وأربعين عاماً بلا انقطاع.

٢ ـ الفتوى. وقد كان يفتي أكثر من خمسين عاماً.

٣ ـ رئيس القضاة.

٤ ـ رئيس مجلس القضاء.

٥ ـ رئاسة المعاهد العلمية والكليات.

٦ ـ الإشراف على مدارس البنات.

٧ ـ رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة.

٨ ـ رئاسة رابطة العالم الإسلامي.

٩ ـ إمامة جامع حي دخنة بالرياض.

١٠ ـ خطيب جامع الرياض الكبير.

وبعبارة عامة: فقد كان له رحمه الله، الإشراف التام على جميع الشؤون الإسلامية، داخل المملكة وخارجها، مما يتصل بالمملكة وتعنى بتوجيهه.

*** وفاته:**

نزل به مرض عام ١٣٨٩هـ، ثم اشتد به حتى دخل في غيبوبة تامة انتهت به إلى الوفاة في الرياض في ١٣٨٩/٩/٢٤هـ، وكان

طيلة مرضه يكثر من ذكر الله والاستغفار حتى أخذته الغيبوبة، وقد صُلي عليه في الرياض، وأمّ المصلين الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وحضر الصلاة عليه جمع كثير من المسلمين.

تغمده الله برحمته ونفع بعلومه وأسكنه جنات النعيم.

*** آثاره العلمية المطبوعة:**

١ ـ فتاواه ورسائله. وقد جمعها الوالد رحمه الله فبلغت أربعة عشر مجلداً مع الفهارس.

٢ ـ شرح متن كشف الشبهات.

٣ ـ شرح متن آداب المشي إلى الصلاة.

٤ ـ شرح متن العقيدة الواسطية.

وهذه الشروحات للمتون كان الوالد رحمه الله يكتبها في الدرس أثناء شرح سماحته لها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبب افتتاح المصنف كتابه بالبسملة)

ابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة، اقتداء بالكتاب العزيز، وتأسياً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، وعملاً بحديث «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمٰن الرحيم فهو أقطع»[1]، وفي رواية «أجذم»[2]، وفي رواية «أبتر»[3] والمعنى: ناقص البركة.

(الحمد لله) الحمد، قال المصنف: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله.

وقال معناه أيضاً ابن القيم[4].

(الذي أرسل رسوله) محمداً ﷺ **(بالهدى)** هو العلم النافع،

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى ٦/ ١٢٧ رقم ١٠٣٢٨، وابن ماجه ١/ ٦١٠ رقم ١٨٩٤، وابن حبان ١/ ١٧٣ رقم ١، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٠٨ رقم ٥٥٥٩، بلفظ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع».

(٢) رواه أبو داود ٤/ ٢٦١ رقم ٤٨٤٠، ولفظه: «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع».

(٣) رواه الإمام أحمد ٢/ ٣٥٩ رقم ٨٦٩٧، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ١٢٨ رقم ١٠٣٣١، بلفظ: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله فهو أبتر، أو قال: أقطع».

(٤) قلت: في بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٥ قال: «الحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه».

ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إِلَّا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمَّداً عبده

(ودين الحق) هو العمل الصالح، **(ليظهره على الدين كله)** ليعليه وينصره على سائر الأديان، من اليهودية والنصرانية والوثنية، وغير ذلك.

ولما بعث الله نبيه ﷺ وأرسله بالهدى ودين الحق، وكان له أعداء أظهره عليهم وأتمه، فإن هذه النعمة ـ وهي نعمة الدين ـ لا تتم إلا بما يحميها ويحوطها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

(وكفى بالله شهيداً) على أنك نبي، وسينصرك ويظهر دينك.

(وأشهد أن لا إله إلا الله) أنه لا معبود حق إلا الله.

(وحده) تأكيد للإثبات **(لا شريك له)** تأكيد للنفي، فهو تأكيد بعد التوكيد، اهتماماً بمقام التوحيد.

(إقراراً به وتوحيداً) يعني: أُخبر عن اعتقاد وعلم[1] أن لا إله إلا الله، أي: أنه لا معبود حق إلا الله.

(وأشهد أن محمداً عبده) هذه العبودية في حق المصطفى ﷺ هي عبودية التشريف والتكريم، وهذا أخص وصفه ﷺ، فإنه ﷺ

---

(١) قلت: وأعمل، وإلا فالإقرار وحده لا يكفي. ينظر مجموع الفتاوى ٧/ ٢٩٦.

خُيِّر بين أن يكون مَلِكاً نبياً، وبين أن يكون عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً[1]. وله ﷺ من هذه العبودية أكملها وأعلاها، فإن العبودية عبوديتان: خاصة وعامة:

(أنواع العبودية)

عبودية تابعة للربوبية: وهي التي دخل فيها جميع الخلق كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

وعبودية تابعة للألوهية والعبادة: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية.

وذُكِر ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته كما في آية الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، وقال في مقام الإنزال عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

(فائدة الجمع للنبي ﷺ بين العبودية والرسالة)

(ورسوله) الجمع له ﷺ بين العبودية والرسالة فيه:

الرد على أهل الإفراط الذين غلو فيه حتى جوَّزوا الاستغاثة به

(١) كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٣١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا مَلَك ينزل، فقال جبريل: إن هذا المَلَك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملِكاً نبياً يجعلك، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبداً رسولاً».

في كل ما يستغاث بالله فيه، فهؤلاء في الحقيقة ما جعلوه عبداً؛ بل اتخذوه معبوداً، ورفعوه فوق منزلته.

وعلى أهل التفريط بترك متابعته، والرضا عن سنته بالأوضاع والقوانين الباطلة، فهم ما شهدوا في الحقيقة أنه رسول الله، بل شهادتهم ناقصة على حسب ما كان معهم من تلك الأمور.

(معنى الصلاة على النبي ﷺ)

(صلى الله عليه) معنى الصلاة عليه: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، وجَمَع بين الصلاة والسلام عليه، كما جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

(من هم آل النبي ﷺ؟)

(وعلى آله) آله قيل: إنهم أتباعه على دينه. وقيل: إنهم أزواجه وذريته، وهذا أرجح الأقوال، كما أن الذي يليه[1] هم من تَحْرم عليهم الزكاة.

(وأصحابه وسلم تسليماً مزيداً) أصحاب: جمع صاحب. والصحابي: من اجتمع بالنبي ﷺ ولو لحظة وآمن به.

(العلة في الجمع بين الآل والصحب)

وجَمَع بين الآل والصحب، كما جمع بين الصلاة على النبي ﷺ والسلام عليه، ففيه الرد على الروافض من قوله: «وأصحابه»، وعلى النواصب من قوله: «وآله» إذا عُني بهم أهل بيته[2].

---

(١) أي: في الرجحان.

(٢) قلت: ويأتي ذكر معتقد الروافض، والنواصب الخوارج، والرد عليهم في ص ٢١٧.

أما بعد، فهذا اعتقاد الفرقة الناجية

(أما بعد) هذه الكلمة يؤتى بها عند الانتقال من أسلوب إلى أسلوب. والمعنى: أمَّا بَعْدَ ما تقدم، من حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ.

وأقرب الأقوال فيمن قال هذه الكلمة أوَّلاً: داود عليه السلام. وقيل: إنها فصل الخطاب الذي أعطيه، والصحيح خلافه، وأن فصل الخطاب الذي أعطيه عليه السلام هو الفصل بين الحق والباطل.

(فهذا) الإشارة إلى ما في هذه العقيدة الجليلة.

(معنى الاعتقاد)

(اعتقاد) الاعتقاد: مصدر اعتقد، والاعتقاد من العقد، مأخوذ من عقد الأصابع على ما تشد عليه، وهو يطلق على التصديق مطلقاً، وعلى ما يعتقد من الأمور الدينية مما يشد عليه ويعتقد، وتعيه وتمسكه القلوب، وسمّي الاعتقاد اعتقاداً؛ لأن القلوب تعقد عليه وتدين به وتلزمه، واعتقاد الشيء قبل عَمَلِه، والغالب أن من اعتقد بقلبه عَمِلَه.

(الفرقة الناجية) عند هلاك الفرق والأمم، كما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة[١]، وفي رواية «هم من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[٢].

---

(١) رواه أحمد ٤/ ١٠٢ رقم ١٦٩٧٩، وأبو داود ٤/ ١٩٨ رقم ٤٩٩٧.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٥/ ٢٦، رقم ٢٦٤١ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والطبراني في الأوسط ٨/ ٢٢، رقم ٧٨٣٩ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

المنصورة إِلى قيام الساعة ـ أهلِ السنَّة والجماعة ـ.

وبعض أهل العلم ذكر الثلاث والسبعين الفرقة باجتهاده، لكن هذا من الإخبار بالغيب، وإن كان الكل مبتدعة لا شك، لكن التعيين ما فيه نص، وإن كانت أصول هذه البدع ترجع إلى الخمس التي وجدت في زمن السلف: الجهمية، والمرجئة، والخوارج، والرافضة، والقدرية.

(أصول البدع)

وهذ الحديث لا يدل على أن هذه الأمة أشر من غيرها من الأمم، كالنصارى واليهود، بل فيه بيان أن ما يوجد من الافتراق في تلك الأمم، يوجد في هذه الأمة مثله في الافتراق وأكثر.

فهذا المذكور في هذا الكتاب، هو اعتقاد الفرقة الواحدة الناجية من بين الفرق كلها **(المنصورة إلى قيام الساعة)** كما جاء في الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة»[١].

(من ألقاب أهل الحق)

(أهل السنّة والجماعة) هذا من ألقاب أهل الحق ـ وهذا اللقب ليس من ألقاب أهل الطرق ـ لمَّا كانوا يُؤثِرون السنّة على غيرها من الطرق[٢].

(١) رواه البخاري ٣/ ١٣٣١، رقم ٣٤٤٢، ومسلم ٣/ ١٥٢٣، رقم ١٩٢٠.

(٢) قلت: يأتي سبب استحقاقهم لهذا اللقب في آخر العقيدة في ص ٢٣٢ عند قوله: «ويُؤثِرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سموا أهل الكتاب والسنّة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة».

وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه.

(اعتقاد أهل السنَّة على سبيل الإجمال ما أجاب به النبي ﷺ جبريل لما سأله عن الإيمان)

(وهو الإيمان بالله) يعني: وبما وصف به نفسه في كتابه.

(وملائكته) الكرام، بوجودهم وعددهم، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي.

معنى إجمالاً: أنك تؤمن بهم جميعاً ـ جميع ما جاء عن الله فيهم ـ.

والتفصيل: إذا بلغك تفصيلاً تسميتُه. وكذلك الرسل الذين جاء تسميتهم نؤمن بهم تفصيلاً.

(وكتبه) وكذلك الإيمان بكتبه.

(ورسله) وكذلك الإيمان برسله إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي.

(سبب اختيار المصنف لفظة «والبعث بعد الموت» بدل «واليوم الآخر»)

(والبعث بعد الموت) والجهلة يستبعدون إعادة أجزاء هذا البدن بعد بلائها، فلذلك ذكر المصنف هذا اللفظ بدل «واليوم الآخر»، فإن المنكرين لليوم الآخر لا ينكرون قدرة الله على خلق الأجسام وإنزال المطر وغير ذلك.

وحقيقة الإيمان بالبعث: أن يؤمن الإنسان ويُقِرَّ أن هذه الأجسام تعاد كما كانت، وترد إليها أرواحها، وتنعم أو تعذب.

وقرر تعالى هذا الأصل بكمال علمه وكمال قدرته، ولهذا كان المعاد معلوماً بالعقل والشرع.

(والإيمان بالقدر خيره وشره) كما في حديث جبريل، وهذا هو

....

السادس من أركان الإيمان، فهذا الكتاب المؤلف معظمه في شرح هذه الأصول الستة، وإن كان قد ذكر أشياء غير ذلك. وقيل: إنها ترجع إلى ذلك.

(مراتب الدين)

والدين ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، فكل خصلة من خصال الإسلام داخلة في مسمى الإيمان، وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في مسمى الإسلام، ولكن إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة؛ لأنها أغلب عليه، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة.

فالإسلام أغلب على الأعمال الظاهرة، والإيمان أغلب على الأعمال الباطنة، فهو أصدق في القلوب، وذلك أنه مشتق من الأمن والائتمان على الأمور الباطنة الخفية، فإن المُصدِّق أَمِن المُخْبِر. وأصله التصديق. وفي الشرع: تصديق خاص كما يأتي[(١)].

فهذه أصول الإيمان الستة التي عليها مبنى الإيمان، ويأتي تفصيلها فيما بعد، فإن المبتدعة صاروا شجاً في حلوق أهل السنّة وأهل الحق، وصنفوا وبدّعوا وحبسوا، فلذلك صنف أهل السنّة في العقائد المصنفات، وبينوا خطأ وضلال أهل البدع.

والمصنف ـ رحمه الله ـ أطال فيما كثر فيه جدال أهل البدع، والذين لم ينازعوا فيه ذكر فيه كالإشارة.

---

(١) قلت: في فصل خاص في ص ١٨٤ عند قوله: «فصل ومن أصول أهل السنّة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل..».

ومن الإِيمان بالله؛ الإِيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمدٌ ﷺ، من غير تحريف

(لماذا لم يقل المصنف: والإيمان بالله؟)

(ومن الإيمان بالله) هذا هو الأصل الأول من أصول الإيمان الستة وهو أعظمها. ولم يقل المصنف «والإيمان بالله»؛ لكون الإيمان بالله أقسام، الأول: الإيمان بوجوده وربوبيته. والثاني: الإيمان بوحدانيته في الألوهية[1]. والثالث: الإيمان بأسمائه وصفاته، بل قال: «ومن الإيمان بالله».

(قاعدة أهل السنّة والجماعة في الأسماء والصفات)

(الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمدٌ ﷺ) في السنّة يقتصر عليه، ولا يزاد فيه ولا ينقص، لا يرد شيء من لفظه ولا معناه، وهذا سماعٌ محضٌ لا مجال فيه للرأي، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «لا يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه في كتابه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ في السنّة، لا يتجاوز القرآن والحديث»[2].

وهذا الذي قاله الإمام أحمد هو الذي عليه جميع الأئمة من أهل السنّة، فيُقتصر على ما وصف به نفسه، ويُثبَت ويُؤْمَن به، ويُعتقدُ على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(معنى التحريف وأنواعه)

(من غير تحريف) التحريف: التصريف، يعني: من غير تصريف عن المراد به، إنما ذلك لأهل البدع.

---

(١) إفراده بالوحدانية (عبارة أخرى).

(٢) قلت: وقد رد هذه العبارة ثلاث طوائف: أهل التخييل، وأهل التأويل، وأهل التجهيل. مجموع الفتاوى ٥/ ٣١.

ولا تعطيل،

وتحريف النصوص تارة يكون للفظ والمعنى جميعاً، وتارة للمعنى وحده، فإن من المحرفين من يحرف اللفظ ويلزم منه تحريف المعنى، ومنهم من يحرف المعنى من غير تحريف اللفظ، ومنهم من يحرفهما جميعاً.

فمن تحريفهما جميعاً قول اليهود: «حنطة» بدل ﴿حِطَّةٌ﴾، وقول جهم: «استولى» فإنه قال: لو استطعت أن أحك من المصحف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ لحككتها.

والثاني: تحريف المعنى، ـ وهي حرفة اليهود ـ وسائر تحريف نصوص الصفات الذي يسميه المبتدعة تأويلاً.

ومثال تحريف اللفظ فقط كقولهم: وكلَّم اللَّهَ موسى تكليماً بنصب الاسم الشريف.

(ولا تعطيل) التعطيل في الأصل: الإخلاء، من قولهم: جِيدٌ[1] عاطل، أي: خالٍ من الحُليّ. من غير تعطيل للفظ وللمعنى، فالتعطيل هو: إخلاؤه تعالى من صفاته التي وصف بها نفسه.

(الجهمية هم أهل التعطيل)

وأهل التعطيل هم الجهمية، عطلوا النصوص، وهم أعظم كفراً وضلالاً من أهل التشبيه، كما قال بعض السلف: «المعطِّل يعبد عدماً، والمشبِّه يعبد صنماً، والموحِّد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً».

(كفر المعطلة أعظم من كفر الممثلة لوجوه)

وأهل التعطيل أعظم كفراً من أهل التشبيه لأمور:

الأمر الأول: أن عابد العدم أعظم كفراً من عابد الصنم.

---

(١) الجِيْد: العنق.

الأمر الثاني: أن هذا التعطيل محفوف بتمثيلين، مثلوا أولاً حيث لم يفهموا من النصوص الواردة في الصفات إلَّا التشبيه، الثاني أنهم لما نفوا الصفات لزمهم التمثيل بالمعدومات.

الأمر الثالث: أن كونه أشر تمثيلاً من الممثلة، أنهم يشبهونه بالمعدومات، بل بالممتنعات، فإنهم قالوا: ليس بكذا ولا كذا ولا كذا، حتى عطلوه من جميع الصفات، فشبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، وشبهوا ثالثاً، وأولئك مثلوه بالحيوانات ـ تعالى الله وتقدس ـ.

(المعتزلة والأشاعرة والماتريدية إخوان الجهمية في التعطيل)

وبهذه الأوجه، عرفنا أن كفر المعطلة، أعظم من كفر الممثلة. ومن هؤلاء: المعتزلة، فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات، ويرون أن الأسماء لا معنى لها، لا تدل إلا على الذات فقط.

ومن فروع هؤلاء: الأشاعرة الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري، وهو منهم بريء، ومثلهم الماتريدية.

وقال بعض السلف أيضاً: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى عنه ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ تشبيه». وهذه العبارة عند السلف شهيرة متلقاة بالقبول عند الأئمة.

فأهل التشبيه، أثبتوا وغلوا وزادوا في الإثبات حتى وقعوا في كفر التشبيه.

وأهل التعطيل، غلوا وزادوا في التنزيه حتى وقعوا في كفر التعطيل، فصاروا ضالين من جهتين:

الأولى: فهمهم التشبيه من الآيات الواردة في إثبات الصفات.

الثاني: تشبيهه بالجمادات والمعدومات.

(ومن غير تكييف) التكييف: تعيين كيفية من الكيفيات للصفة، فيقول: كيفيتها كذا وكذا، كقولهم ـ والعياذ بالله ـ: هو كذا وكذا. فممنوع كيف؟ ولِمَ؟

(معنى التكييف والتمثيل)

(ولا تمثيل) وهو أن يقول: هذا مثل هذا، كأن يقول: يد كيدي ونحو ذلك.

ولم يقل المصنف: «ولا تشبيه». وقد أجاب عن هذه اللفظة حين امتحانه، فقال: إنها لم ترد في القرآن، إنما ورد نفي التمثيل كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فاقتصرتُ عليها.

(أقسام الناس في باب الصفات)

والناس في باب الصفات طرفان ووسط:

الطرف الأول: حرفوا ونفوا وجحدوا الصفات. وهم الجهمية أتباع جهم بن صفوان، أخذ هذا المذهب عن شيخه الجعد بن درهم ـ ولم يكن يظهرها ـ والجعد أخذها عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وطالوت أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي ـ الساحر الذي سحر النبي ﷺ ـ، وأظهرها الجهم فنسبت إليه، وقيل: إن الجهم أخذها عن كفار الهند[1].

فالجهم سلك هذا المسلك ـ نفي الصفات ـ من جهله، زعم

(١) قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «مبدأ التجهم في هذه الأمة، كان أصله من المشركين ومبدلة الصابئين من الهند واليونان، وكان من مبدلة أهل الكتاب من اليهود، وأن الجعد بن درهم ثم الجهم بن صفوان ومن اتبعهما أخذوا ذلك عنهم» بيان تلبيس الجهمية ١/ ٣٧٤.

أنه إذا أثبتها وقع في التشبيه، فنفاها مخافة التشبيه، وزعم أن نفيها تحقيق لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لم يفهم من صفات الله تعالى إلا ما يفهمه من صفات المخلوقين.

الطرف الثاني: أفرطوا في الإثبات وشبهوا ومثلوه بصفات المخلوقين، فضربوا النصوص بعضها ببعض، وزعموا أن هذا مدلولها وردوا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وهاتان الفرقتان في طرفي نقيض.

وإطلاق التفويض في الصفات شر من التحريف. وقول مالك ظاهر[1]. وابن عباس وغيره من الصحابة فسروا الصفات. وتفويض الكُنْهِ والكيفيةِ صواب.

والقسم الثالث: الأمة الوسط بين هذين الطرفين ـ أهلُ السنّة والجماعة ـ، سلكوا في هذا الباب العظيم المسلك القويم الذي جاءت به الكتب السماوية، ونطقت به الرسل، ودرج عليه الصدر الأول ومن تبعهم.

وهذا المسلك الذي هداهم الله له، هو الوسط بين الطرفين، والهدى بين الضلالتين، فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ في السنّة، إثباتاً بريئاً من تمثيل الممثلين، ونفوا عنه ما لا يليق بجلاله وعظمته نفياً بريئاً من تعطيل المعطلين، على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأن باب الأسماء والصفات توقيفي، لا مجال للعقول والقياس والذوق فيه. والتحريف حرفة اليهود والجهمية، والتعطيل حرفة الجهمية، والتمثيل طريقة المشبهة.

(١) «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(**بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾**) يعني أهل السنّة والجماعة: يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، (﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾) ويثبتون ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، كالسميع والبصير.

(آية فيها رد على أهل التمثيل وأهل التعطيل)

وفي هذه الآية الرد على الطائفتين: أهل التعطيل وأهل التشبيه، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على أهل التعطيل.

(طريقة الكتاب والسنّة في الأسماء والصفات)

وفي هذه الآية بيان طريقة الكتاب والسنّة في الأسماء والصفات، وأن طريقتهما في النفي الإجمال، وفي الإثبات التفصيل، فإن الكتاب والسنّة جاءا بنفي مجمل وإثبات مفصل، وهي طريقة أهل السنّة والجماعة.

والكلام في باب الأسماء والصفات دائر بين النفي والإثبات، بخلاف طريقة الجهمية وأضرابهم، فإنهم أثبتوا إثباتاً مجملاً ونفوا نفياً مفصلاً، فخالفوا الكتابَ والسنّةَ وأهلَ السنّة والجماعة في التأصيل والتفصيل، زعماً منهم أنه تنزيه لله.

والكاف في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ فيها كلام كثير، وليست زائدة، بل جاءت إحداهما مؤكدة للأخرى، لمزيد تأكيد عدم المماثلة.

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرِّفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيِّفون ولا يمثِّلون صفاته بصفات خلقه؛

(محاذير يتجنبها أهل السنّة والجماعة في الأسماء والصفات)

(فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) حاشا وكلا، بل هذه طريقة الجهمية والأشاعرة.

(ولا يحرفون الكلم عن مواضعه)، بل يقرون الكلم على معانيه وما أريد به.

(ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) والإلحاد في اللغة: هو الميل، ومنه تسمية موضع الميت في القبر لحداً، لميله عن وسطه.

وفي الشرع: هو الميل والخروج عن الحق فيها إلى الجور.

وقد ذم الله تعالى من ألحد في أسمائه وآياته، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾ فمن عطل فقد ألحد، ومن مثل فقد ألحد، ولا يسلم من الإلحاد إلا من آمن بها كما جاءت من غير تمثيل، وكذلك الآيات من حمَّلها ما لا تطيق فقد ألحد، ومن نقصها فقد ألحد.

وأهل التعطيل والتشبيه كلهم من أهل الإلحاد.

(ولا يكيِّفون) صفاته فلا يقولون: كيفيته كذا وكذا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

(ولا يمثِّلون صفاتِه بصفات خلقه) فما يضاف إلى الخالق فهو

لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كُفء له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه ـ سبحانه وتعالى ـ،

يليق به ويختص به، كما أن ما يضاف إلى المخلوق ويليق به يختص به، وإن اجتمعا في الاسم أو الصفة، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فإن القول في الذات كالقول في الصفات، يحتذى حذوه ويقاس عليه، فتُثْبت إثبات وجود، لا ثبوت تمثيلٍ فيه، فكما أن ذات الباري سبحانه لا تدانيها ولا تقاربها ولا تشابهها ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته سبحانه.

(القول في الذات كالقول في الصفات)

(لأنه سبحانه لا سمي له) المعنى لا يساميه أحد، أو لا يستحق مثل اسمه، وكلا المعنيين راجع إلى الآخر، لكون اسمه تعالى دال على الكمال. والخلق وإن كان لهم نوع كمال فإن الله هو الذي أكسبهم إياه.

(لماذا يتجنب أهل السنَّة والجماعة تلك المحاذير في الأسماء والصفات؟)

(ولا كُفء له) الكُفْء: المساوي.

(ولا ند له): ولا مثل له.

(ولا يقاس بخلقه ـ سبحانه وتعالى ـ) فيُضْرَب له مثلاً، فيقاس بالمخلوق في مَثَلٍ يستوي هو والمخلوق فيه، ـ تعالى وتقدس ـ، فجميع القياس في حقه ممتنع شرعاً وعقلاً. نعم قياس الأولى، فيقال: ما كان في حق المخلوق كمال، فإن الله أحق بالكمال، فيثبت لله تعالى على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل.

(القياس الممنوع والقياس الجائز)

فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه.

(فإنه سبحانه أعلم بنفسه) من خلقه، وبما يجوز في حقه وما يمتنع عليه، فعلينا أن نذعن ونصدق ونؤمن بما يصل إلينا، ونعتقده حقيقةً على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(باب الأسماء والصفات توقيفي)

وهذا الباب توقيفي، فيُنْطَق حيث نطق الكتاب والسنّة، وقد نطق الكتاب والسنّة بالصفات، وهو الحق والتوحيد، فلا محذور في النطق بما وصف به نفسه، والخلق ما لهم علم بالأمور الاعتقادية إلا ما أخذوه من مشكاة النبوة.

(وبغيره) وأعلم من خلقه بأنفسهم. والعلم أقسام، فأعلاها العلم بالتوحيد. والتوحيد ثلاثة أقسام ومنها توحيد الأسماء والصفات، وهو التوحيد العلمي الاعتقادي.

(وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه) وقد وصف نفسه.

ثم رسله صادقون مُصدَّقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون.

(ثم رسله) هذا عطف على قوله: «فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه» مع ما تقدم من قوله: «ومن الإيمان بالله. .» الخ.

(صادقون) وقد وصفوا الله بصفات، وهم معصومون في كل ما بلغوه عن الله، لا ينطقون عن الهوى.

(مُصدَّقون) فيما أخبروا به عن ربهم، أي: مؤتمنون فيما أوحي إليهم، فيجب تصديقهم فيما بلغوه عن ربهم، والالتفات إلى ما قالوا والتمسك به. وفي بعض النسخ «مَصْدُوقون».

(أهل التعطيل وأهل التمثيل قائلون على الله بغير علم)

(بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) هذا راجع إلى أهل التعطيل والجحد، وإلى أهل التمثيل، كلهم قائلون عليه بغير علم، فإنهم لا صادقون ولا مصدقون، ولا التفات إلى ما قالوا؛ بل كاذبون ومُكذَّبون، ومعتمدون على نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان، فإن منهم من عطل وجحد، فهو قائل بلا علم مع مخالفتهم لما عرفوا من العلم، وكذلك الذين يقولون إنها لا تدل على كذا، ولا على كذا، فكلهم مخالفون للرسل. وكل من وصف الله بغير ما وصف به نفسه، فهو قائل على الله بلا علم.

فكلٌّ من الجهمية وأضرابهم والممثلة تائه، الكل قائل على الله بغير علم، وواقع فيما هو أعظم من الشرك، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

ولـهـذا قـال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين، لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.**

وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكل من حرف أو ألحد أو عطل، فهو قائل على الله بلا علم، بل هو مخالف للعلم الواضح.

(ولهذا) هذا تعليل من المصنف، فالله سبحانه الذي هذا شأنه، **(قال:** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **فسبح نفسه)** وقدسها، والتسبيح: التنزيه والتقديس، **(عما وصفه به المخالفون للرسل)**، مما قالوه في أسمائه وصفاته، وشرعه وقدره، لأن ما قاله أعداء الرسل نقص وعيب لا يليق بجلال الله.

(حمد نفسه تعالى لما له من الأسماء والصفات)

(وسلَّم على المرسلين) ذكر في الآية السلام عليهم **(لسلامة ما قالوه)** في الله وفي أسمائه وصفاته، وشرعه ودينه **(من النقص والعيب)**، لأن ما ذكروه هو الصدق والكمال، وضده الكذب والعيب، فاستحقوا السلام من الله، وحمد نفسه لما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات.

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات.

فلا عدول لأهل السنّة والجماعة عما جاء به المرسلون،

(طريقة أهل السنّة في الأسماء والصفات: النفي المجمل، والإثبات المفصل)

(وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه) يعني: في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ **(بين)** نوعين: **(النفي والإثبات)**:

نفى ما لا يليق بجلال الله وعظمته نفياً عاماً مجملاً كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وأما الإثبات فأثبت إثباتاً مفصلاً ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ونظائر ذلك من الإثبات، فَعَكَس ذلك أهل التجهم والاعتزال، زعماً منهم أنه تنزيه لله، ووقعوا في ضلالتين: في معاكسة الكتاب، وفي وصفه تعالى بغير ما وصف به نفسه.

(لا يستقيم المقصد إلا بعدم العدول عما جاء به الرسل)

(فلا عدول لأهل السنّة والجماعة عما جاء به المرسلون) يعني: أنه إذا كان كذلك، تبين أنه لا عدول لأهل السُّنة والجماعة عما جاء به المرسلون، يعني: متعين عليهم التمسك بمسلك المرسلين، والأخذ بما جاء عنهم الذي من تمسك به نجا، ومن تركه هلك، فإنه ضروري تمسكهم بالحق وعدم العدول عما جاء به المرسلون، ولازمٌ هذا ولا غَرْو، ولا استَقَام مقصدُهم إلا بعدم العدول عما جاء به المرسلون.

وما جاء به المرسلون هو إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل، وفي النفي: نفي ما لا يليق بالله على وجه الإجمال كما تقدم.

فإنه الصراط المستقيم، صراطُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

(فإنه الصراط المستقيم) الذي جعله الربّ موصلاً للعباد إلى ربهم، ولا طرق سواه، إنما هو هذا الطريق الأوحد الذي يَصل الخلقُ إلى ربهم منه، فلا طريق لهم موصل إلى ربهم ودار كرامته إلا من هذا الطريق.

(أنواع النعم)

(صراطُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين)، النعمة الكاملة نعمة الدين، فإن لله نعمتين:

نعمة كاملة مطلقة: وهي نعمة الدين.

ونعمة ناقصة مقيدة: وهي التي يشترك فيها البر والفاجر، من المأكل والمشرب ونحو ذلك.

فالأولى: نعمة الأرواح، والثانية: نعمة الأجسام، وشتان بين مُشرِّق ومُغرِّب، فإن الإنسان مخلوق من مادتين، روحانية نورانية، وأرضية جسمانية.

فالنعمة التامة، لأهل الإيمان، وهي المعنية بقوله في الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، والـمُـنْـعَـمُ عليهم الذين يُسأل اللَّهُ الهدايةَ إلى طريقهم هم في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

فنعمة هؤلاء هي النعمة المطلقة، وهؤلاء الطبقات الأربع أئمة هذه النعمة، ولهم أتباع على حسب اتِّباعِهم.

....

والنعمة المقيدة، يَستحق الربُّ عليها الشكر، ولكنها بالنسبة إلى المطلقة كَلاَ نعمة، فتلك هي التي تستمر في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، أما الثانية فهي أيضاً نعمة ابتلاء وامتحان.

النعمة معرفة الدين والعملُ به، والمُنعَمُ عليهم على طبقات، وترتيبهم على ما في الآية، فهذا طريق المُنعَم عليهم النعمة الكاملة، هو إثبات ما أثبته الله لنفسه، على ما يليق بجلاله وعظمته من الصفات من غير تمثيل، ونفي ما نفاه الله عن نفسه نفياً بريئاً من التعطيل.

(أحسن الرفقاء)

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ يعني: من صار معهم فهو مرافق لهم، والذي يُحَصِّل هذا حَصَّل رفيقاً ما مثلُه رفيقاً، يعني: وحسن هذا الرفيق رفيقاً، يعني: هؤلاء هم أحسن الرفقاء.

وقد دخل في هذه الجملة، ما وصف به نفسه في سورة الإخلاصِ التي تعدل ثلث القرآن،

(وقد دخل في هذه الجملة) السابقة، أي: جملة «ما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات»، وهي كونه تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات.

(ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص) يعني: التوحيد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ السورة. وكذلك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تسمى سورة الإخلاص فإنها دلت على التوحيد. فـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دلت على التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دلت على التوحيد القصدي الإرادي الطلبي.

(التي تعدل ثلث القرآن) جاء ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأت: قل هو الله أحد مرة، فكأنما قرأت ثلث القرآن، وإذا قرأت: قل هو الله أحد مرتين، فكأنما قرأت ثلثي القرآن، وإذا قرأت: قل هو الله أحد ثلاث مرات، فكأنما قرأت القرآن كله»(١).

(وجه كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن)

ووجه كونها تعدل ثلث القرآن، من حيث إن القرآن قسمان: قسم: إنشاء، وهو طلبٌ، ـ أمر ونهي ـ.

وقسم: خبر، والأخبار التي في القرآن منقسمة إلى قسمين:

قسمٌ: خبر عن الخالق، وقسمٌ خبر عن المخلوق.

ـ قسمٌ: خبر عن الباري ـ جل جلاله ـ وإثبات صفاته، وقسمٌ: خبر عن المخلوق وحاله ونشأته وما أعد له ـ.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ٦/١٢٨، رقم ٥٩٩٦.

حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وهذه السورة مُمَحِّضة للخبر عن الخالق تعالى. سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها. صَدْرها إثبات وآخرها نفي، بخلاف غيرها من السور.

(ما تضمنته سورة الإخلاص من الأسماء والصفات)

(حيث يقول: (﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾) هذا فيه إثبات الأحدية للرب تعالى وتفرده بها، المنافية للشريك والمثيل والنديد من كل وجه.

(﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾) فيه إثبات الصمدية لله سبحانه ووصفه بها.

ومعنى الصمد: الذي يصمد إليه الخلائق كلهم يوم القيامة، وكل تفسير للصمد فهو يرجع إلى إثبات الكمال.

(﴿لَمْ يَلِدْ﴾) أحداً. فيه نفي الولد عنه سبحانه وتعالى، وتنزه عما يقول الجاهلون علواً كبيراً، لمنافاته لكماله سبحانه وتعالى.

(﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾) ولم يلده أحد، ففيه نفي الوالدة عنه سبحانه وتعالى، لمنافاته لكماله.

(﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾) فيه نفي الكفو وهو المساوي له سبحانه، لمنافاته لكماله.

ففي هذه السورة نفي النقائص والعيوب عنه تعالى، وإثبات الكمال له تعالى.

وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول:
﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾

(اشتمال آية الكرسي على عشر جمل، منها ما هو نفي، ومنها ما هو إثبات)

(وما وصف به نفسه) وكذلك دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه **(في أعظم آية في كتابه)** وهي آية الكرسي، جمع تعالى فيها بين النفي والإثبات، فإنها اشتملت على عشر جمل، وفي ضمن تلك الجمل ما هو نفي وما هو إثبات **(حيث يقول:)**

(﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾) فيها نفي الألوهية عن كل ما سوى الله، وأنها لا تصلح لغير الله؛ بل لا تصلح إلا لله، وأما غيره فلا يصلح لها، وكل مألوه غير الله فإلٰهيته بالباطل والضلال.

(﴿إِلَّا هُوَ﴾) فيه إثباتها لله سبحانه دون كل ما سواه.

(﴿ٱلۡحَيُّ﴾) فيه إثبات صفة الحياة الكاملة المطلقة لله سبحانه.

(﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾) فيه إثبات صفة القيومية. والحياة والقيومية يستلزمان سائر الصفات، من القدرة والسمع والبصر وغير ذلك.

(﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾) وهي الذهول والغفلة، وهي دون النوم.

(﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾) فيه نفي النوم.

والنفي قسمان: نفي محض، وهذا مراد لذاته ولا يقع في الصفات، ونفي مراد به الإثبات كنفي السِّنَة والنوم عنه سبحانه، وذلك لكمال حياته وقيوميته تعالى.

(﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾) هذا فيه إثبات ملك السموات والأرض، وتفرد الله بملك ذلك.

مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ - أي: لا يُكْرِثُه ولا يثقله -

---

(﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾) فيه نفي الشفيع وهذا نفي ظاهر. وهذا النفي دخل فيه جميع الشفعاء، حتى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا في القيامة لا يشفع حتى يسجد، ويقال له: «ارفع رأسك، واشفع تُشَفَّع، وسل تعطه»[1].

ففيه نفي الشفاعة التي من غير إذنه، وإثباتها بإذنه تعالى.

(﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾) فيه إثبات تفرده بالعلم سبحانه.

(﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾) أن يطلعهم عليه، ففيه إثبات سعة علمه.

(إثبات الكرسي لله)

(﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾) فيه إثبات الكرسي، يعني: أنه أوسع منها بكثير، وجاء في الأحاديث أنه من جملة المخلوقات، وجاء في السنّة أنه موضع القدمين، وليس كرسيه علمه كما يقوله المبتدعة، فإن في هذه الآية الرد عليهم، فهم ينفون الكرسي والعرش، يريدون بذلك نفي العلو؛ ولهذا أهل العلم يترجمون بباب في العرش بابٌ في الكرسي، وهذا كله رد على الجهمية والمبتدعة.

(﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ **- أي: لا يُكْرِثُه ولا يثقله -**) لا يثقل

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٢١٥، رقم ٣١٦٢، ومسلم ١/ ١٨٥، رقم ١٩٤.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح.

عليه ولا يشق عليه، لكمال قدرته وقهره.

(﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾) الذي لا أعلى منه تعالى. له العلو الكامل من جميع الوجوه: علو القدر والشرف، وعلو القهر والسلطان لكل شيء، وعلو الذات والفوقية على جميع المخلوقات، فإنه أعلى من كل شيء، قدراً وقهراً وفضلاً، وأعلى من كل شيء علواً وذاتاً وسلطاناً.

(﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾) الذي لا أعظم منه سبحانه، ولا أكبر ولا أجل.

(فضل قراءة آية الكرسي قبل النوم)

(ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح) أشار بهذا إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه أتاه شيطان ليسرق من تمر الصدقة، ثم يحلف أنه لا يعود..» الحديث فذكر له آية يَسْلَم بها من السراق، فقال ﷺ: «صدقك وهو كذوب»[1]، من عادته الكذب، فيفيد عظم شأن هذه الآية.

---

(١) رواه البخاري ٢/٨١٢، رقم ٢١٨٧.

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾،

(إثبات اسم الأول والآخر، والظاهر والباطن لله واتصافه بها ومعانيها)

(**وقوله سبحانه:** ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾) هذا أيضاً مما دخل في الجملة السابق ذكرها. جملة: «ما وصف وسمى به نفسه، بين النفي والإثبات».

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ هذه الآية فيها إثبات هذه الأسماء الحسنى الأربعة، واشتملت على اتصافه تعالى بها، وتفسير هذه الأسماء الأربعة جاء في الحديث «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[(١)].

وحديث «كان الله ولم يكن شيءٌ قبله»[(٢)] يعني: أنه سبحانه وتعالى بوجوده وأوليته. «ولم يكن شيء قبله» ليس معناه كان قبل أن لم يكن حدث، لا.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ واشتملت هذه الآية على اتصافه بالعلم بكل شيء، فشمل علمه الموجودات كلها، والمعدومات التي تكون، والتي لا تكون، كيف تكون لو كانت، بخلاف الممتنعات فإنها ليست شيئاً حتى تُشمل بالعلم.

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٠٨٤ رقم ٢٧١٣.

(٢) رواه البخاري ٦/ ٢٦٩٩، رقم ٦٩٨٢.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾،

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

(إثبات الحياة لله وما تستلزمه من الصفات)

(**وقوله سبحانه:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾) هذه الآية فيها إثبات هذا الاسم، وإثبات مدلول هذا الاسم وهي صفة الحياة لله سبحانه، وهي تستلزم السمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك. ونفي الموت لمنافاته للحياة.

(إثبات اسمي الحكيم والخبير وإثبات مدلولهما)

(**وقوله:** ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾) فيه إثبات هذين الاسمين، أحدهما: الحكيم وهو الذي يضع الأشياء مواضعها. والثاني: الخبير، وإثبات مدلول هذين الاسمين وهما الحكمة والخبرة. والحكمة هي المنافية للسفه والعبث، فهو تعالى الحكيم في أقضيته وشرعه ودينه، وهي أبعد شيء عن السفه وعن خلاف المصلحة. والخبرة أخص من العلم، هي كمال العلم.

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾،

(إثبات صفة العلم)

(﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾) فيه إثبات علمه الشامل، فما من داخل في الأرض أو خارج منها، ولا نازل من السماء ولا صاعد إليها، إلا وهو مشمول بالعلم.

(﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾) وهي الخمس المذكورة في الحديث: «خمس لا يعلمهن إلا الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾»[1] فهذه الخمس لم يَطّلع عليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

(﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾) فيه إثبات صفة العلم وشموله لجميع الأشياء، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم، وهو أشمل من القدرة، وفيه إثبات الكتابة وهي إحدى المرتبتين في القدر كما يأتي[2].

---

(١) رواه مسلم ١/٣٩، رقم ٩.

(٢) في ص ١٦٩.

وقـولـه: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾، **وقـولـه:** ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾.

(**وقـولـه:** ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾) هـذه الآيـة فيها إثبات صفة العلم.

(**وقـولـه:** ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة، وهي مدلول اسمه القدير، وإثبات صفة العلم، وشمول القدرة وشمول العلم، فما من شيء إلا دخل في القدرة إلا ذاته ـ جل جلاله ـ فإنها لا تقبل التصريف، فإن القادر لا يكون مقدوراً. فشملت قدرته ما كان وما يمكن أن يكون، فإن الله قادر على الموجودات والمعدومات والممكنات، ولا خرج عن ذلك إلا الممتنع، فإنه ليس بشيء حتى يُشمل.

(صفة القدرة وشمولها)

وفي إثبات القدرة على كل شيء، الرد على المُرْشِدة الذين يقولون: إن الله لا يقدر إلا على ما يشاء، وأما ما لا يشاء فلا، وهم طائفة من المبتدعة معلومٌ بطلانُ قولهم من نحو ثمانين موضعاً من القرآن ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وقوله: (﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾) فيه كمال العلم، فإن الإحاطة بالشيء عِلْماً هي الإحاطة به من كل الجهات، فالعلم فيه شمولٌ مثلُ القدرة، بل الشمول الذي في العلم أعم من الشمول الذي في القدرة، فإنه تعالى أعلم بذاته وبأسمائه وصفاته وبشرعه ودينه وبجميع مخلوقاته.

وقد جاء في قصة الخضر وموسى، حين أتى عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر لموسى عليه السلام: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر»[1]، وكما في الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

(١) رواه البخاري ١/٥٦ رقم ١٢٢، ومسلم ٤/٨ رقم ٢٣٨٠.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

(إثبات اسم الرزاق والقوي والمتين لله)

(**وقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾) هذا فيه إثبات هذه الأسماء الثلاثة لله حقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل.

(قواعد في الأسماء والصفات أخذها أهل السنّة من آية)

(**وقوله**: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾) هذا فيه نفي مماثلة الخلق لله سبحانه وتعالى، فتقرر بذلك أصل عظيم وهو عدم مشابهته لخلقه.

(﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾) هذا فيه إثبات هذين الاسمين. وفي هذه الآية بيان أن النفي إجمال، والإثبات تفصيل. نفي مجمل وإثبات مفصل.

وفيه الرد على الطائفتين: أهل الجحد والتحريف والتعطيل، وأهل التشبيه والتمثيل، فإن طائفتي المبتدعة تقاسموا هذه الآية نصفين، وأهل السنّة أثبتوا الصفات على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(إثبات السمع والبصر لله)

(**وقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾) هذه الآية فيها إثبات الاسمين، وإثبات صفتين، وهما مدلول هذين الاسمين على ما يليق بجلال الله وعظمته، ولما نزلت هذه الآية جعل ﷺ إصبعيه في أذنيه، بياناً منه أنه سَمْعٌ حقيقةً، وبَصَرٌ حقيقة[1].

---

(١) قال أبو هريرة رضي الله عنه: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فوضع أصبعه =

وقـولـه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، وقـولـه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقـولـه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، وقـولـه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

(إثبات المشيئة والإرادة لله)

(وقـولـه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾) فيها إثبات صفة المشيئة لله سبحانه وتعالى التي تكون بها الأشياء، كما أنها لا تكون إلا بالقدرة والعلم.

(وقـولـه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾) هذه الآية فيها إثبات المشيئة والإرادة.

(وقـولـه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾) فيه إثبات صفة الإرادة.

(وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾) فيه إثبات صفة الإرادة لله سبحانه وتعالى، وكذلك بقية الآيات التي فيها إثبات صفة الإرادة.

= الدعاء ـ أي السبابة ـ على عينيه، وإبهاميه على أذنيه» رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٥، رقم ٦٣، وابن حبان في صحيحه ١/ ٤٩٨، رقم ٢٦٥.

(الإرادة نوعان والفرق بينها وبين المشيئة)

ورد في النصوص إرادة ومشيئة، وصرح من صرح بترادفهما[1]، ولم يفطن للتفصيل، ولكن أولى ما يكون أن الإرادة إرادتان: كونية قدرية، وشرعية دينية.

وأما المشيئة فلم ترد في النصوص إلا كونية قدرية فلا تنقسم.

والشرعية الدينية تستلزم محبته ورضاه سبحانه وتعالى بخلاف الكونية القدرية.

فالإرادة في النصوص على قسمين: كونية قدرية وهذه موافقة للمشيئة، وإرادة شرعية دينية، فأراد الله من العباد شرعاً عبادته، والعباد انقسموا إلى قسمين: قسم أطاعوا، فاجتمع فيهم الإرادتان. فالكونية شرطُ وجود الفعل.

وقسم عصوا، فانفردت الكونية فيهم، ولا حظ لهم في الشرعية. وليست الكونية حجة لأحد.

إذا عرفنا ذلك فالإرادتان بينهما عموم وخصوص، يجتمعان في المطيع، ويفترقان في العاصي، فالمطيع أطاع الله فيما أراده الله منه شرعاً وديناً وتبع الإرادة الكونية القدرية. وانفردت الكونية القدرية في حق العاصي. فالكفار أبوا عما أراد الله منهم شرعاً، فلا تنالهم الإرادة الشرعية، ولا لهم فيها نصيب لحكمة الله وعدم صلاحيتهم لشيء من ذلك، هم خارجون عن إرادة الله الشرعية الدينية؛ وهي ما أراده على ألسن رسله من عبادته وحده.

---

(١) من الخائضين في القدر من المجبرة، كالجهم بن صفوان وأمثاله، فقالوا: ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة. مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٧.

وقوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، **وقوله**: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، **وقوله**: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، **وقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾،

(إثبات صفة المحبة)

(**وقوله**: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة المحبة، وأن الله يحب أهل طاعته محبة تليق بجلاله وعظمته.

(﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾) هذه مثل التي قبلها.

(﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾) كذلك.

(﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة المحبة.

(**وقوله**: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾) هذه الآية فيها زيادة أنه يُحَبُّ، ففيها إثبات المحبة من الجانبين.

(**وقوله**: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾) وهذه كالتي قبلها في أنه يُحِبُّ ويُحَبُّ.

(**وقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾) فيها إثبات صفة المحبة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾.

(وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾) قال البخاري[1]: «يعني الحبيب»، وفيها إثبات صفة المغفرة وهي مدلول اسمه الغفور، والمغفرة هي: التغطية مع الوقاية، يعني الذي يستر عباده ويقيهم عقوبة الذنوب.

قَصْدُ المصنفِ منها كلِّها إثبات صفة المحبة، وأن الله ـ جل جلاله ـ يحب حقيقة محبة تليق بجلاله وعظمته، لا كمحبة المخلوقين، يحب رسله وعباده الموصفين بهذه الصفات، وفيها زيادةٌ أنهم يحبونه محبة تديُّنٍ وتذلل وتعبد، ومحبته لهم محبة إحسان وتفضل.

وفيها الرد على الجهمية فإنهم ينفون أن يُحِب أو يُحَب، فأهل التجهم ينفون المحبة من الجانبين، كما أنكروا الخُلَّة، وهذا من ضلالهم وجهلهم، قالوا: إن المحبة لا تكون إلا بين اثنين بينهما نوع من المناسبة، كمناسبة محبة المخلوقين بعضهم لبعض، ففروا منها إلى النفي. نعم محبة الله لا مناسبة بينها وبين محبة المخلوقين، محبة تليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل، لا يعلم كنهها ولا كيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى، فإنه أعلم بنفسه، وقد أعلمنا أنه يُحِب ويُحَب، فنحن نؤمن بالله وبما جاء عن الله على مراد الله.

(قاعدة عظيمة)

كل ما جاء في القرآن أو الحديث الثابت، فخذ معك أصلاً أنه على ما يليق بجلال الله.

---

(١) ٤/ ١٨٨٥ رقم ٤٢٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

وقــولــه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾، ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾،

(إثبات صفة الرحمة)

(**وقوله:** ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾) في آية البسملة، هي آية من القرآن بين كل سورتين إلا في براءة، وهي أيضاً آية في النمل. هذه الآية فيها هذان الاسمان لله «الرحمن والرحيم» دلّا على اتصافه تعالى بالرحمة، فالرحمن من الفعل المتعدي، والرحيم من اللازم، فالرحمة أحد صفات الباري ـ جل جلاله ـ.

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الرحمن الرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر» المقصود السعة، يعني: أسماء مبالغة أن كلاً منهما صفة مبالغة، هذا معنى «رقيقان أحدهما أرق وأوسع من الآخر»، وأوسعهما الرحمن، ولهذا جاء في التفسير رحمن الدنيا والآخرة، فلولا رحمته العامة ما بقي أحد على وجه الأرض، أما الرحيم فهي خاصة بالمؤمنين.

(﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾) فيه إثبات صفة الرحمة، وإثبات سعتها، وإثبات صفة العلم، وإثبات سعته، ففيه شمول رحمته، كما فيه شمول علمه، فما استقام أمر العالم إلا بالرحمة.

(﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾) فيها إثبات صفة الرحمة.

(﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾) فيه إثبات صفة الرحمة أيضاً.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

(﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾).

هذه الآيات فيها إثبات صفة الرحمة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فهي رحمة حقيقية، بل هي أحق الحقيقة، كما أن للمخلوق رحمة حقيقية تختص به.

(الرد على من حرّف معنى اسمي «الرحمن الرحيم» عن مدلولهما)

وكثير من شراح الكتب[1] صرفوا معنى هذين الاسمين عن مدلولهما، فمنهم من يقول: إنه المنعم الحقيقي، ومنهم من يقول: الرحمة إرادة الإنعام، ونحو ذلك، وكل هذا من الكلام الباطل، ما حملهم عليه إلا سوء الفهم، ولو فهموا فهماً صحيحاً ما صرفوه عن مدلوله، فإن الذي عليه أهل السنّة والجماعة قاطبة، أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

ثم يلزمهم في قولهم: الرحمة إرادة الإنعام، إما أن يقولوا: إنها كإرادة المخلوقين، فنقول لهم: شبهتم.

وإما أن يقولوا: إنها إرادة حقيقة تليق بجلال الله وعظمته، فنقول لهم: فما يمنعكم أن تقولوا في الرحمة: إنها حقيقية تليق بجلال الله وعظمته.

(١) ممن لم يأخذ بمعتقد أهل السنَّة والجماعة.

....

وأيضاً فما يقال في الصفات فرع عما يقال في الذات، فيجب أن نصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، ونؤمن بما جاء عن الله على مراد الله على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونقول: لله صفات ثابتة حقيقة لا تشبه صفات المخلوقين، كما أن لله ذاتاً حقيقية ثابتة لا تشبه ذوات المخلوقين، ونعتقد أن الصفات حقائق ولا نقف عندها، بل نستمر كما استمر الكتاب العزيز ونقف حيث وقف.

وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾،

(إثبات صفة الرضا والغضب واللعن بالقول والسخط لله)

(**وقوله**: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾) فيه إثبات صفة الرضا رضاً يليق به، الله أعلم بكنهه وكيفيته.

(**وقوله**: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾) فيه إثبات صفة الغضب، وإثبات صفة اللعن بالقول، قال المصنف: «لا مانع من أن يقع اللعن من الله قولاً بالكلام» وهو ظاهر النصوص أنه يلعن من يستحق اللعن بالقول، كما أنه تعالى يرضى عمن يستحق الرضا، ويغضب على من يستحق الغضب.

(**وقوله**: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾).

السخط: هو عدم الرضا، والسخط إلى الكراهة أقرب منه إلى الغضب، فإن الغضب يعدى بعلى، والسخط يعدى بها تارة، وبنفسه أخرى.

وبين السخط والغضب فرق واضح: كثيراً ما يقابل السخط بالرضا، والغضب لا يقابل به.

وفيه إثبات الرضا؛ فإن الله يرضى حقيقة كما أنه يسخط حقيقة.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

(**وقوله:** ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾) آسفونا: أغضبونا.

والأسف جاء في القرآن على معنيين: على معنى الغضب كما في هذه الآية، وجاء بمعنى الحزن، وليس هو المراد هنا، وإنما هو من صفات المخلوقين كما في قصة موسى: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

والأسيف الحزين، مثل قوله: «إن أبا بكر رجل أسيف إذا قرأ القرآن»، والله سبحانه منزه عن الحزن.

وفيه إثبات صفة الانتقام.

(إثبات الكراهة والمقت على ما يليق بجلال الله)

(**وقوله:** ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾) فيه إثبات صفة الكراهة، أن الله يكره من يستحق الكراهة على ما يليق بجلاله وعظمته.

(**وقوله:** ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾) فيه إثبات صفة المقت على ما يليق بجلال الله وعظمته، أن الله يمقت من يستحق المقت من الأقوال والأفعال.

وهذه الآيات، فيها إثبات هذه الصفات لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل.

وقـولـه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾، وقـولـه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾، ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

(إثبات صفة الإتيان والمجيء لله يوم القيامة)

(وقـولـه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾) فيه إثبات صفة الإتيان يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، إتياناً يليق بجلاله وعظمته، لا نكيف ولا نشبه.

(وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾) كالتي قبلها في صفة إتيان الربّ يوم القيامة حقيقة.

وفيه ما يَردُّ على المحرفين الذين يقولون: يأتي أمره، وأمره معطوف على إتيانه، وأمره لم يزل يأتي في الدنيا والآخرة. فدعواهم فيه مجازَ الحذف، باطلةٌ مخالفةٌ للنصوص وما عليه الجمهور؛ بل يأتي تعالى بذاته على ما يليق بجلاله وكبريائه.

(﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾) فيه إثبات مجيء الله سبحانه على ما يليق بجلاله من غير تمثيل. وتأويل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ بجاء أمر ربك، فاسد من جهة أنه باطل، وهو من كلام المبتدعة، وأيضاً فاسد من أمر آخر، وهو أن أمر الله لا يزال يجيء ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾.

(﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾) هـذه الآيـة فيـهـا

....

إثبات صفة، وهي إتيان الربّ يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، فإنه كما جاء في تفسيرها أن الأرض بعدما تُمدّ يوم القيامة مدّ الأديم العُكاظيّ، فيحشر من كان في الأرض، ثم بعد ذلك تنشق السماء الدنيا، فينزل من فيها من الملائكة، فتحيط بمن في الأرض كلهم، ثم الثانية، ثم الثالثة.. الخ، ثم ينزل الربّ تعالى للفصل بين عباده ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

فصار فيه إثبات صفة الإتيان، لا نعلم كنهها ولا كيفيتها، مجيءٌ حقيقةً على ما يليق بجلال الله وعظمته.

ولنعرف أن ما جاء في الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أن المراد هو جبريل. وأما ما في الحديث في البخاري[1]، فالمراد الباري جل جلاله، وهو معروف عند أهل التحقيق.

(١) ٦/ ٢٧٣٠، رقم ٧٠٧٩ «حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾.

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾،

(إثبات صفة الوجه لله)

(وقوله) سبحانه: (﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال الله وعظمته.

وفيها وصف وجه الباري بالجلال والإكرام.

(﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾) فيه إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال الله وكبريائه وعظمته وتقدست أسماؤه.

وهذه الصفة مما ادعت فيه الجهمية المجاز، واختلفوا في جهة مجازه، وهو باطل.

(إثبات صفة اليدين لله)

(وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾) هذا قوله لإبليس تبكيتاً له، ففيه إثبات صفة اليدين لله سبحانه حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته.

وفيه إبطال قول من قال: إن اليد النعمة، فإن الله تعالى ذكر الخَلْق وذكر ما يَخْلُقُ به. وأيضاً القدرة ما جاءت قدرتين أو نعمتين وَقُرِن بالفعل.

فتعين أن تكون اليدين، وأنها على الحقيقة. ومثل «خلق الله آدم بيده»[١] المراد اليد التي بها الفعل.

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ٩/ ١١٤.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾.

(﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾) فيه إثبات صفة اليدين، الأُولى بالإفراد، والثانية بالتثنيةِ حقيقةً على ما يليق بجلال الله وعظمته.

وفيه إثبات هذا البسط. والبسط في كلام العرب هو السعة وكثرة العطاء، كما في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ الآية.

وفيه بيان لكمال جوده سبحانه، كما أتى في قصة الخضر وموسى حين أتى عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر لموسى عليه السلام: «ما علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر»[1]، وكما في الآيــة: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا﴾، وجاء في الحديث «إحداهما يمين، والأخرى شمال، وكلتا يدي ربي يمين»[2].

---

(١) رواه البخاري ٥٦/١ رقم ١٢٢، ومسلم ٨/٤ رقم ٢٣٨٠.

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة ٢٩٨/٣، رقم ٢٢٧.

وقـولـه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾، ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾.

(إثبات صفة العينين لله)

(**وقوله**: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة العينين لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته.

(﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾) فيه إثبات العينين، وأتت بصيغة الجمع لتناسب ضمير العظمة، والمراد به المثنى. وهذا الجمع في قوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ إنما هو للتعظيم، إذا صار «نا» للتعظيم، فما قبله يجري مجراه، وجاء في الحديث أنه ﷺ وضع أصبعيه على عينيه، كما تقدم[1].

(﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾) «عَـيْـنِـي» مـفـردٌ مضافٌ جارٍ على ما تقول العرب في كلامهم: «رعيتك بعَيْنِي»، ونحو ذلك، والمراد المثنى.

وكذلك الثلاث فيها تشوُّه، وكذلك الواحدة، فإن في الحديث «إن ربكم ليس بأعور»[2]، نؤمن به ونَكِلُ كيفيته.

---

(١) في ص ٤٧.

(٢) رواه البخاري ٦/٢٦٠٨، رقم ٦٧١٢، ومسلم ٤/٢٢٤٨، رقم ٢٩٣٣.

وقـولـه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾،

(إثبات السمع لله)

(**وقوله**: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة السمع من ثلاثة أوجه: الأول: بصيغة الماضي، والثاني: بصيغة المضارع، والثالث: بصيغة اسم الفاعل.

وفيها إثبات صفة البصر من غير تمثيل.

وهذه الآية نزلت في المرأة المجادِلة، التي ظاهر منها زوجها، وكان لها منه عيال، وكانت فقيرة فجاءت تشتكي إلى النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إنْ كانت لفي البيت تُكلِّم الرسول ويخفى عليّ بعض حديثها، وهي تقول: يا رسول الله أَكلَ مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما بَرِحَت حتى نزل جبريل بهذه الآية».

(﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾) فيها إثبات صفة السمع أيضاً.

وأهل السنّة يثبتون السمع والبصر، والحياة والقدرة، والعلم والكلام، وغيرها من الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والعينين، والغضب والرضا. والصفات الفعلية كالضحك، والنزول، والاستواء على العرش، وهي صفات كمال، وأضدادها صفات نقص يُنزه عنه

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، **وقوله**: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

الرب، ويعتقدون لها معاني حقيقية، ويفسرونها ويبينونها، خلافاً للجهمية وغيرهم.

(﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾).

أنكر تعالى على من ظن أن الله لا يسمع. يعني: بلى نسمع سرهم ونجواهم، ورسلنا لديهم يكتبون.

(**وقوله**: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة السمع، كما أنه يسمع جميع المسموعات فكذلك يرى جميع المرئيات.

(إثبات أن الله يرى)

(﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾) فيه إثبات أن الله يرى جميع المرئيات والمُبصَرات.

(﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾) هذه الآية كالتي قبلها.

(﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾) فيه إثبات رؤية الله لأعمال العباد.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، **وقوله:** ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، **وقوله** ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، **وقوله:** ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

(**وقوله:** ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾) أي: المماحلة، وهي العقوبة والأخذ لمن عصاه.

(إثبات المكر والكيد لله على ما يليق بجلاله)

(**وقوله:** ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾) هذه فيها إثبات هذه الصفة أنه يمكر مكراً حقيقياً على وجه لا نقص فيه، على ما يليق بجلاله من غير تمثيل، بخلاف مكر المخلوق فإن فيه ما هو على وجهه، وفيه ما هو مذموم.

(**وقوله:** ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾) فيه إثبات صفة المكر لله بمن مكر به، على ما يليق بجلال الله وعظمته، حقيقةً على وجهٍ جميلٍ حسنٍ يليق به سبحانه، من غير تمثيلٍ بمكر المخلوقين وصفاتهم. فما فيه الذم والعيب فهو منزه عنه تعالى وتقدس.

(**وقوله:** ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة الكيد.

ولنعرف أن ما جاء في النصوص من ذلك، أن ما كان منه على وجه مذموم لا يضاف إلى الله، لا يضاف منه إلا الوجه المحمود الممدوح الكمال.

....

ولنعرف ما ورد بلفظ الفعل:

(قاعدة: الإخبار بالفعل أوسع من الاسم)

فنقول: لا يطلق على الله إلا ما جاء في النص، فلا يلزم من الإخبار عنه بالفعل أن يُشتق منه اسم مطلق، كالمُضلِّ والماكر.

وهنا قاعدة ذكرها ابن القيم في «المدارج» وكأنه أخذها من الاستقراء: أن الإخبار بالفعل أوسع من التسمية[1].

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ٣/ ٤١٥: «الفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسم منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء وأحدث، ولم يُسمّ بالمريد والشائي والمحدث، كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء، وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتق له من كل فعل اسماً، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر والمخادع والفاتن والكائد، ونحو ذلك».

وقـولـه: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾،

(وصف الله بالعفو والقدرة)

(وقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾) فيه إثبات صفة العفو والقدرة.

والعفوّ: أصله بواوين، لكن أدغمت الواو في الواو، فصار «عَفُوّاً» والعَفْو: هو الترك، ترك صاحب الجريمة عن مجازاته عليها.

والعفوّ ـ مشدداً ـ: الكثيرُ والعظيمُ العفوِ والتجاوزِ عن عباده.

اسمه عَفُوٌّ، وصفته عَفْوٌ ـ بالتخفيف ـ. عفوٌّ يحب العفْوَ، ويحب من عباده أن يعفوَ بعضهم عن بعض عن حقه.

والعَفْوُ أكمل ما يكون وأجمله إذا كان عن قدرة، وإلا فربما يوجد عَفْوٌ ممن يصدر منه العفو مع عدم قدرة، أو ضعف، أو يخاف أن لا يأخذ حقه. أما من عفا لا عن ضعف فهذا هو أكمل، ولذلك جاء مقروناً به القدرة، فإنه أكمل.

(وصف الله بالمغفرة والرحمة والعزة)

(﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾) ففيها إثبات صفة المغفرة والرحمة، ففيها إثبات هذين الاسمين لله تعالى «الغفور والرحيم» فأفادا اتصافه بمدلولهما من الرحمة والمغفرة.

وأفاد أيضاً بصفة الفعل، فكان في الآية دليلان: الأول يغفر، والثاني: غفور.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والمغفرة: اشتقاقها من الغَفْر وهو الستر، ومنه المِغْفَر على الرأس، فمغفرة الذنوب وِقايةُ شرِّها وسَتْرُها.

والمصنف ـ رحمه الله ـ قرر في هذه المسألة، أنه لا بد من الوقاية والستر، فإن المِغْفر يستر الرأس ويقيه السلاح.

والقرآن لا يُسَلَّم أن يكون فيه عطف على متساويين، ـ مثل اسم على اسم، أو فعل على فعل ـ، معناهما واحد، وهو نزل بأفصح اللغات، وإلا بعض أناس يظن أن فيها عطفاً مرادِفاً محضاً على مرادِفه بمعانيه الكلية الكاملة، وهذا ذكره شيخ الإسلام في «الإيمان الكبير» في العطف[1].

(**وقوله**: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾) هذه فيها إثبات صفة العزة، وهي مدلول اسمه تعالى العزيز. العزة: تطلق ويراد بها القوة والغلبة.

(**وقوله عن إبليس**: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾) فيها إثبات صفة العزة، وهي مدلول اسمه العزيز.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٢.

وقـولــه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، **وقـولــه**: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾،

(إثبات الأسماء لله ونفي المثيل عنه)

(**وقوله**: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾) تبارك أي: بلغ في البركة النهاية والغاية، والنفع والسعة، والبركة: هي كثرة النفع.

وفي هذه الآية إثبات الأسماء لله سبحانه، والمراد بالاسم: جنس جميع الأسماء، فإنه مفرد مضاف إلى معرفة، فشمل وعمَّ جميع الأسماء، فدل على أن لله سبحانه أسماء، وأنها بلغت في كثرة النفع والخير الغاية.

وفيها إثبات صفة الجلال والإكرام لله سبحانه وتعالى.

(**وقـولـه**: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾) هـذه الآيـة فيها أنه لا سمي له، استفهام بمعنى النفي العام، أي: لا أحد يستحق لاسمه، ولا مساوي له، ولا مسامي. هذا من النفي العام.

(﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾) الكفو: المساوي، لم يكن له مساوياً أحد، لكماله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته. وهذا من النفي العام مراد منه الكمال، فهو مقصود لغيره، بخلاف الإثبات المفصل فإنه مقصود لذاته وتقدم[1]، وهذه طريقة الكتاب العزيز في النفي ـ النفي المجمل ـ، نفي ما لا يليق بالله نفياً مجملاً.

---

(١) في ص ٢٨.

وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾.

(**وقوله**: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾) الند: المِثْل والشبيه، هذا من النفي المجمل، يعني: لا مِثْل له ولا نظير.

(﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾) أنداداً: أشباهاً ونظراء، إنكار على الناس الذين يتخذون الأنداد مع الله، فهذه الآية من النفي المجمل، وكذلك نظائرها كقوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾،

(إثبات الكمال المطلق لله، وتنزيهه عن جميع النقائص والعيوب)

(﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾) هذه الآية يقال لها: آية العز. وجاء في بعض الأخبار أو الآثار، أن البيت الذي تقرأ فيه هذه الآية، يأمن أهله من السراق[1].

هذه الآية فيها إثبات جميع الحمد لله سبحانه، لذاته ولأسمائه وصفاته، وعلى قضائه وقدره. واستحقاقه للحمد سبحانه، يفيد أنه متنزه عن جميع النقائص، إذ يستحيل ثبوت الحمد لمن ليس كذلك.

(﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾) إلى آخر الآية، كل جملة من جملها من النفي المجمل، ففيه نفي الولد لمنافاة ذلك لكمال صمديته وغناه سبحانه، فإنه الغني بذاته عن كل ما سواه.

(﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾) فيه نفي الشريك في المُلْك، لمنافاته لوحدانيته سبحانه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ليس له من خلقه أولياء يتعزز بهم من ذلة، ولا يَتكثَّرُ بهم من قلة، كما يكون للمخلوق ولي يعزه وينصره، فهو الغني عن ذلك كله الوليُّ الناصر، يعني: لا يحتاج لأنصار ينصرونه من الذل ـ سبحانه ـ، وإنما اتخذ أولياء من أهل

---

(١) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره ٣/ ٧١: «وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيتٍ ليلةً فيصيبه سراق أو آفة، والله أعلم».

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

طاعته، لكن لا من الذل، وهو والاهم، بأن هداهم إحساناً منه تعالى، وهم والوه بالذل والخضوع.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ كبِّره: عظِّمه، تكبيراً: تعظيماً. وهذا يفيد أنه الكبير الذي لا أكبر منه تعالى، وفيه وصفه بالكبرياء والعظمة، فهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء. وفيه آكدية تعظيمه وإجلاله.

(﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾) التسبيح: التقديس والتنزيه. جميع من في السموات والأرض يسبح، منها ما هو تسبيحه بلسان الحال، ومنها ما هو بلسان المقال كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ فجميع الكائنات ناطقة بتسبيحه وتمجيده.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

متصف بصفات الكمال، متنزه عن جميع النقائص والعيوب.

(﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾) هذا فيه إثبات الملك المطلق لله سبحانه من جميع الوجوه، وفيه إثبات صفات الكمال، إذ يستحيل ثبوت الملك لمن ليس كذلك.

(﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾) هذا فيه إثبات الحمد لله.

(﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾) هذا فيه إثبات القدرة لله سبحانه

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

على جميع المخلوقات ـ الموجودات والمعدومات والممكنات أن توجد ـ فهي مشمولة بقدرته. وقول بعض العلماء كما يذكره ابن كثير: «إنه على ما يشاء قدير» ذهول منه.

وبعض المبتدعة ينكر قدرته إلا على ما يشاء، وأما ما لا يشاء فلا، وقد رد المصنف وبيَّن بطلان ما ادعوه بالبراهين الواضحة القاطعة كهذه الآية ونظائرها، من أنه سبحانه على كل شيء قدير، مما يريده ومما لا يريده.

والقدرة والعلم من أشمل صفاته سبحانه وتعالى، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم، وهو أشمل من القدرة، فالعلم يشمل العلم بالذات وبالأسماء والصفات وبالمخلوقات، فهو أعلم بنفسه وبغيره، والقدرة تشمل جميع المخلوقات، ولا تشمل الذات والأسماء والصفات ، لأنها لا تقبل تصريفاً ولا تبديلاً، وهذا مستثنى بالعقل.

(**وقوله**: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾).

تبارك: تعاظم، بلغ في البركة نهايتها وغايتها. والبركة: كثرة النفع وكثرة الخير، يعني: بلغ فيها النهاية.

وهذه الصيغة تفاعل جاءت في القرآن مطَّرِدة في حق الله تعالى

....

خاصة، فلا يجوز إطلاقها على المخلوق، فلا يقال: تباركت علينا ونحو ذلك، فإن الله هو المتبارِك والعبد هو المبارَك.

(﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾) هذا أحد أسماء القرآن، وسمي فرقاناً لفرقه بين الحق والباطل.

(﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾) يعني: محمداً ﷺ، هذه هي العبودية الخاصة، وذلك أن أشرف حالات العبد، ما يكون فيه طاعة خالقه وموجده، فإن شرف المخلوق بطاعة خالقه.

(﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾) للخلق، وهم الثقلان.

(﴿نَذِيرًا﴾) للذين فيهم أهلية للنذارة وأهلية للتكليف.

(﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) هذا فيه تفرده بملك السموات والأرض، فيفيد اتصافه بصفات الكمال، وتنزهه عن جميع النقائص والعيوب.

(﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾) نفي الولد لمنافاته صمديته تعالى.

(﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾) نفي الشريك لمنافاته لوحدانية الباري ـ جل جلاله ـ.

(﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾) فيه تفرده بخلق كل شيء.

(﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾) هيئه تهيئة، كل شيء على ما يناسبه ويشاكله، فأول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ربّ وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فأفادت هذه الآية الإيمان بالقدر.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾،

(﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾) هذا فيه نفي الولد عن الله، ونفي الإله مع الله. نفي الولد عن الله لمنافاة الولد لصمديته. و«ولد» نكرة في سياق النفي، وقد دخلت عليها «مِنْ» فصار من أبلغ النفي.

(﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾) لجميع المخلوقات (﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾) لو قُدِّر ـ تعالى الله وتقدس ـ أن مع الله إلهاً ثانياً لهذا الوجود ويستحق أن يعبد، للزم أن يذهب كل إله بما خلق، لا تَتَّحِدُ ولا تتفق إرادتهما، ولو اتفقت وقتاً مَّا، ما اتفقت إلى الأبد، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾.

(﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾) وللزم من ذلك أن يعلو بعضهم على بعض، فلما كان الوجود خالياً من هذا، تبين أن الله هو المستحق أن يفرد بالعبادة.

وهذه الآية سيقت لتقرير توحيد الألوهية والعبادة، وأن الله هو المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه، كما قرره الشيخ تقي الدين وتلميذه ابن القيم.

وزعم طائفة من المتكلمين، أنها سيقت لنفي التمانع.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والصحيح: أن دليل التمانع عقلي، وأن الآية لم يقصد بها ذلك، وإنما كان المقصود بها إفراد الله بالعبادة، وإن كان يلزم من ذلك ويقتضي صحة التمانع من ضمنها، (﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾).

(﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾) هذا فيه منع ضرب الأمثال لله سبحانه وتعالى، فيفيد أنه تعالى لا مِثل له، إذ لو كان له مِثْل ـ تعالى الله وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ـ لما نهى عن ضرب الأمثال له، فلما نهى عن ضرب الأمثال له، عُلم أنه سبحانه لا مثل له، وهذا من أعظم ضروريات العقل، أنه لا يماثله شيء من خلقه تعالى.

وقوله: (﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾) هذه الآية الكريمة جمعت أصول المحرمات متنقلاً فيها من الأدنى إلى الأعلى. فأدنى المحرمات ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، ثم ﴿**الإِثْمَ**﴾ وهو أعظم من الفواحش، ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو أعظم من الإثم، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وهو أعظم من البغي بغير الحق، ﴿**وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ هذا أعظم من الشرك، وإنما كان أعظم؛ لأنه يستلزم الشرك وزيادة.

(أعظم المحرمات وأقسامه)

فأعظم المحرمات: القول على الله بلا علم، وإذا عرفت أنه

....

أعظم هذه المحرمات، فالقول على الله بلا علم أقسام:

القول على الله بلا علم في أوامره ونواهيه، وشرعه ودينه، وتحليله وتحريمه.

والقول عليه بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فالقول على الله بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، أعظم من القول عليه بلا علم في أوامره ونواهيه، وشرعه ودينه، وتحليله وتحريمه، وأعلى مرتبة في التحريم، وإن كان في الثاني ما يرجع إلى تنقصه في أسمائه وصفاته، ومعلوم أن من أثبت لله صفة، أو اسماً ما أثبته لنفسه، أو نفى عنه ما اتصف به، فهو قائل عليه بلا علم، وهو مخالف للكتاب والسنّة والشرع والقدر، كاذب ضال عن الصراط المستقيم، فإن قُوى العباد لا تقدر أن تصل إلى شيء من ذلك بعقولها ولا بأفهامها، ولا طريق إلى ذلك إلا بالكتاب والسنّة، والسالم الناجي يوم القيامة، هو الناطق بما نطق به الكتاب والسنّة والواقف حيث وقفا. فنؤمن بما جاء عن الله وبما جاء عن رسول الله، نؤمن باللفظ والمعنى جميعاً، ونعتقده حقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(أهل السنَّة والجماعة يؤمنون باللفظ والمعنى جميعاً)

وبهذا تعرف أن طائفتي الضلال والانحراف من نفاة الصفات، هم أعظم القائلين على الله بلا علم، سواء بجحد أو تعطيل، أو تكييف أو تمثيل.

وإنما سلم من القول على الله بلا علم، من اتبع النبي الكريم، وأصحابه والتابعين، المقتفين لهديه الكريم.

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ في سبعة مواضع،

(إثبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله لا كاستواء المخلوقين)

(وقوله) تعالى: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ **في سبعة مواضع)** كل واحد فيه التصريح باستواء الله على العرش، وهو من أدلة علو الربّ وفوقيته، وفسر السلف ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ بأربعة أشياء: بعلا، وبارتفع، وباستقر، وصعد، ولم يجيء في الكتاب والسنّة أنه استوى على مخلوق آخر، أو على المخلوقات جميعها، بل ما جاء إلا خاصاً بالعرش فدل على إثبات الاستواء على العرش لا كاستواء المخلوقين. وكُنْه ذلك وكيفيته إلى الله، قال مالك ـ رحمه الله ـ لما أتاه رجل فسأله، فقال: استوى! كيف استوى؟ فسكت مالك ـ رحمه الله ـ حتى علته الرُّحَضَاء ـ العرق ـ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم أمر بإخراجه عنه، وقال: أراك رجل سوء ـ يعني: مبتدع ـ أخرجوه عني» وهذا مثله لشيخه ربيعة، وروي عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً عليها، وروي مرفوعاً إلى النبي ﷺ والموقوف أصح. وهذا له بالحرف والمعنى، وهو لجميع أئمة أهل السنّة السلف والخلف بالمعنى، كالإمام أحمد، والليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه.

(معنى الاستواء معلوم والكيف مجهول)

وقوله: «معلومٌ» أي: لفظه ومعناه من كلام العرب الذي نزل القرآن بلغتهم، وليس المراد بمعرفة لفظه ومعناه، أن هذه الأحرف مجتمعةً، معلومةُ الاجتماع وأن تركيبها كذا.

«والكيف مجهول» علمه وحقيقته موكولة إلى الله لا يعلمه الخلق، ولا يصلون إليه لا شرعاً ولا قدراً، بل لا يليق أن تصل قوى البشر أن يحيط المخلوق بكنه الخالق؛ بل هو سبحانه يُعلم ولا

....

يُحاط به علماً، نعلمه بما أعلمنا، وأما إدراكه على ما هو عليه فلا، بل ممنوع التفكر في ذلك وعبث، فَمَنْعُ «كيف» في صفات الله كمنع «لِمَ» في أفعال الله، مُنع «كيف» بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ومُنع «لِمَ» بقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

(قاعدة في جميع الصفات)

ونعرف هذا في الذات ونعرفه في الصفات. ونقول: معنى الرضا والغضب والمحبة ونحو ذلك معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

فإذا عرفت أنه جاء استواؤه تعالى على العرش مطرداً في النصوص في القرآن والسنّة، ولم يجيء استواؤه على غير العرش ولا في موضع واحد، وتفطَّنت لذلك وتنبّهت له، عرفت صحة قول أهل السنّة والجماعة في ذلك. هذا دليل واضح لأهل السنّة والجماعة، في أنه استوى على العرش حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته.

(الرد على من حرف الاستواء بالاستيلاء)

وقد حرفت الجهمية وألحدت وقالوا: استولى على العرش، وزعموا أن هذه النصوص لا تدل إلا على الاستيلاء، فزادوا «لاماً» كما زادت اليهود نوناً[1].

ويقال لهؤلاء المبتدعة: الاستيلاء مشترك بين المخلوق والخالق، ثم أيضاً الاستيلاء لا يكون إلا لمن كان مغلوباً ثم غَلب، وهذا لا يجوز في حق الله تعالى، فإنه ليس مغلوباً ـ تعالى على

(١) لما قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ جعلوا يزحفون على استاهم وهم يقولون: حنطة في شعيرة.

....

عرشه ـ حتى يقهر من غلبه ويستولي عليه، وإنما يقال هذا في حق المخلوق المغلوب على الشيء.

ثم يقال لهؤلاء المبتدعة: أتثبتون استيلاءاً من جنس استيلاء المخلوقين؟

فإن قالوا: نعم، قيل لهم: شبهتم، وهم لا يقولون ذلك.

وإن قالوا: لا كاستيلاء المخلوقين، فيقال لهم: لم لا تقولون استواء يليق بجلال الله وعظمته، وتلجئون إلى ما أتى به الكتاب والسنّة وتَسْلمون من التشبيه؟!

(حجة دامغة على منكري الصفات)

وهذا خذْهُ معك في جميع الصفات، كالإرادة، فإنه ما من محذور يظنه المبتدع، إلا ويقع في مثله ونظيره، أو شر مما فر منه وأشد، ولو قصد التنزيه.

وهذه الآيات السبع على قسمين:

(فائدة بديعة)

منها: ما فاعلُ الاستواء فيها ضمير مستتر «هو» يعود على الله سبحانه، يعني: ربكم.

ومنها: ما هو اسمٌ مُظْهَر مرفوع، وهو في آية الفرقان ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ: أن العرش أوسع المخلوقات، ورحمته وسعت كل شيء، فاستوى بأوسع صفاته على أوسع مخلوقاته.

في سورة الأعراف قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقال في سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقال في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقال في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾،

(الفرق بين الاستواء والعلو: الاستواء أمر زائد على مطلق العلو، وهو أخص منه ودل عليه السمع فقط)

(**في سورة الأعراف قوله**: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾) وتعرف أن الإتيان بـ «ثُمَّ» على بابها، وقد حاول بعض المبتدعة أن لا يجعلها على بابها، فالاستواء أمر زائد على مطلق العلو، ومطلق العلو دل عليه السمع والعقل. والاستواء دل عليه السمع فقط، وهو صفة فعل زائد على مطلق العلو؛ فإن العلو أقسام ثلاثة: علو الذات على جميع المخلوقات وهو صفة فعل كما تقدم. والثاني: علو القدر والشرف. والثالث: علو السلطان والقهر والغلبة. وله سبحانه العلو بجميع الوجوه.

(**وقال في سورة يونس** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾).

(**وقال في سورة الرعد**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾).

(**وقال في سورة طه**: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾).

وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، **وقال في سورة آلم السجدة:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، **وقال في سورة الحديد:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

(**وقال في سورة الفرقان:** ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾) ثم السر في اختصاص العرش بالاستواء، وذكر فاعل الاستواء باسم الرحمن، لأمرين: سعة الرحمة، وسعة العرش.

(**وقال في سورة آلم السجدة:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾).

(**وقال في سورة الحديد:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾).

والاستواء على العرش، نوع من أنواع العلو وهو أخص منه.

(طرق إثبات العلو)

وطرق إثبات العلو واحد وعشرون طريقاً، ذكرها ابن القيم في النونية.

أحدها: العقل الصريح.

والثاني: نصوص الاستواء على العرش، ويشير المؤلف إلى بعضها قريباً.

وكل دليل من أدلة العلو تحته أفرادُ أدلةٍ، منها ما يبلغ مائة من الكتاب والسنّة، وأقلها يبلغ إلى خمسة أدلة أو ستة، فجميعها يبلغ

....

ألف دليل، وكلها نصوص تدل على أنه فوق مخلوقاته على عرشه، من غير تكييف ولا تمثيل، كما قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ لما سئل بماذا نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه».

وكل دليل يصلح للاستواء، فهو دال على العلو، ولا عكس.

وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾.

(إثبات علو الله وفوقيته على مخلوقاته)

(**وقوله**: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾) هذا من جملة نصوص العلو، إثبات علو الربّ وفوقيته، الرفع لا يكون إلا من أسفل إلى فوق، ـ من الأدنى إلى الأعلى ـ. و﴿إِلَيَّ﴾ للانتهاء.

(﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾) كذلك هذه الآية مثلها.

(﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾) هذه دالة على علو الربّ وفوقيته من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ﴾، والصعود لا يكون إلا من الأسفل إلى الفوق.

والثاني: قوله: ﴿يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ فمن قال كلاماً طيباً، وشفعه العمل الصالح، فإنه يرفعه العمل الصالح إلى الله، فدل على أن الله في العلو.

فهذه ثلاث نصوص من أحد وعشرين.

وقوله: (﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾).

﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وزيره ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ الصرح: هو البناء المرتفع، ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ﴾ وأصل ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾: الطرق ﴿أَسۡبَٰبَ﴾: طرق

وقـــولـــه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ﴾ فأشرف وأنظر ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، هذا من حماقة فرعون وجهالته، ينكر ما جاء به موسى جُمْلةً، وينكر ربه، وينكر علوه، وهذا كذب منه وتلبيس به على رعاياه من غير إتيان ببرهان، فهو إمام الجهمية والمعتزلة وفروعهم، كما أن إمام أهل السنّة سيد المرسلين.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ كذّب موسى وهو الكاذب الجبّار الجاحد الكافر، وموسى عليه السلام هو البارّ الصادق، وإنما قال ذلك؛ لأن موسى أخبره أن معبوده فوق السموات، فقال ذلك مكذِّباً لما قاله موسى، فإن فرعون معطل جاحد، ولهذا قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وهذا يفيد أن موسى عليه السلام بيَّن أن معبوده فوق السموات.

فعرفت أن إثبات العلو هو مسلك المرسلين وأَتباعهم الصالحين، وجحده مذهب فرعون اللعين وأتباعه الجهميين الضالين، لأنه يرجع إلى لا شيء.

(**وقوله**: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾).

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع لمن أَمن ذلك، أن يعاقب على كفره، ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

....

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

هاتان الآيتان فيهما إثبات علو الربّ وفوقيته، فإن ﴿فِي﴾ في الآيتين إما أن تكون بمعنى «على» كما في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل، وكقوله: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عليها، فالمعنى أأمنتم من على السماء.

وإن كانت على بابها وهي الظرفية، فيكون المراد بالسماء العلو، فالله في العلو المطلق، وقد سئل ابن المبارك بماذا نعرف ربنا؟ فقال: «بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه».

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا

(إثبات معية الله لخلقه)

قد تقدمت نصوص الاستواء، وكذلك نصوص العلم، ومقصوده بسياق هذه الآيات إثبات صفة المعية، وأن الله مع خلقه معية حقيقية تليق بجلال الله وعظمته.

والمعية: عامة، ومقتضاها: العلم والقدرة، والإحاطة والاطلاع.

وخاصة، ومقتضاها: مقتضى المعية العامة والحفظ والتأييد، والكلاءة والنصر. فهي تقتضي ما تقتضيه العامة وزيادة.

(وقوله: (﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة المعية العامة، أن الله مع خلقه حيث ما كانوا على المعنى الذي يليق بجلاله.

(﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا

عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾،

عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾) هذه كالتي قبلها في إثبات صفة المعية العامة، وفيها إثبات صفة العلم، وابتدأ به واختتمت به، وسيقت لمقتضاها وهو العلم.

والدليل على أن هذا مقتضاها: كونها مبدوءة بالعلم ومختتمة به، كما أن من مقتضاها القدرة والاطلاع ونحو ذلك.

وتطلق في حقه تعالى ولا تقتضي امتزاجاً ولا اختلاطاً أبداً، وليس معيته تعالى مع خلقه كمعية الخلق بعضهم مع بعض، واختلاط بعضهم ببعض، ـ تعالى الله وتقدس عن أن يشابهه شيء من خلقه ـ، فكما نقول: إن لله صفاتاً تليق بجلاله وعظمته مختصة به، لا يَشْرَكُه فيها أحد، ولا يشاكله فيها أحد، فكذلك نقول في المعية.

(لماذا فسر بعض السلف المعية ببعض مقتضياتها؟)

والذي حمل بعض السلف على تفسيرها ببعض مقتضاها:

أولاً: أنهم ابتلوا بمن ينفي العلو ويقول: إنه ممتزج بالخلق، ففسروها بالعلم، رداً على الحلولية من الجهمية الذين زعموا أنه في كل مكان، وأنكروا علوه على خلقه واستواءه على عرشه. فهذا الذي من أجله قالوا بعلمه، وإلا فمعنى المعية عندهم واضح كالشمس.

ثانياً: أن التفسير بالمقتضى سائغ، ووجه من أوجه التفسير.

وأهل وحدة الوجود الذين يقولون: إن الوجود واحد ليس فيه خالق متميز عن مخلوق، هم وأهل الاتحاد شيء واحد، وهم أعظم من أهل الحلول. أهل الحلول يقولون: هنا إله، لكنه حل في

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

المخلوقات ـ والعياذ بالله ـ. ويأتي فصل في بيان الجمع بين العلو والمعية[1].

(المعية الخاصة)

(**وقوله:** ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾) هذه الآية فيها إثبات المعية الخاصة، ومقتضاها الحفظ والكلاءة، يعني: ولا يترك الأعداء يتولونا، بل يتولانا ويكلؤنا، فمقتضاها مقتضى العامة وتزيد على ذلك بما سيقت له وخص بها، وهي النصر والكلاءة، والحفظ والتأييد، ونحو ذلك كما تقدم.

وقوله: (﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾) يعني: موسى وهارون، وهذا من المعية الخاصة أيضاً.

(﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾) هذه مثل ما تقدم، فيها إثبات المعية الخاصة أيضاً.

(﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾) هذا فيه إثبات المعية الخاصة أيضاً.

(﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾) هذا مثل ما تقدم، فيه إثبات المعية الخاصة أيضاً،

---

(١) في ص ١٣١.

....

معية تليق بجلال الله وعظمته؛ كونه مع أهل القيام بما أمر به من الصبر والطاعة، وغير ذلك بحسب مواطنها، فإنها في الآيات كما بَيَّنَ لك. وتقدم بيان مقتضاها.

فالمعية في النصوص معيتان:

عامة: كما في آية الحديد والمجادلة.

وخاصة: كما في هذه الآيات ونظائرها.

(المعيتان لا تقتضي امتزاجاً ولا اختلاطاً والفرق بينها وبين القرب)

وكلا المعيتين لا تقتضي الامتزاج والاختلاط، فهو تعالى على العرش حقيقة، ومع خلقه حقيقة.

أما القرب فلم يرد إلا خاصاً، وهو قربه من عابديه وسائليه فقط، كما ورد في النصوص.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾،

(إثبات صفة الكلام لله)

(**وقوله**: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾) فيه إثبات صفة الكلام، وأن الله متكلم حقيقة، وفيه تسميته بالحديث وهو مثل القول.

(﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾) فيه إثبات صفة الكلام، وتسميته «قِيلاً»، وأن لله «قِيلاً».

(﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾) فيه إثبات أن الله قال، فأسند القول إلى فاعله، وهو من صدر منه القول، فإنه قال ويقول.

(﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾) فيه إثبات صفة الكلام. الكلمة في لغة العرب لا تطلق إلا على الجملة المفيدة.

(﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾) فيه إثبات صفة الكلام، ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد لعامله ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ وهو يرجع إلى التأكيد اللفظي، لرفع توهم غير إرادة الحقيقي.

والأصل في الكلام هو الحقيقة ولا يصار إلى المجاز إلا لموجب، وأن الله تعالى كلَّم موسى كلاماً حصل من الله تعالى وسَمِعه موسى، فدلَّ على أن الله كلم موسى حقيقة، وأنه سمع كلام الله حقيقة.

وقد حاول بعض الجهلة المبطلين المنكرين لكلام الله، أن تكون القراءة بالنصب، يريد أن يكون موسى هو الذي كلم الله، وأن

﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾،

يكون الله غير مكلِّم، وقاله لأَحَدِ أهل السنّة فقال له: ما تصنع بقوله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ لأن قواعد العربية تأبى ذلك، فبهت الجاهل، فهو ظاهر في أن الله هو المتكلِّم وأن موسى هو المكلَّم، فهذه الآية لا يتمكن الجهمي من تحريفها.

(﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾) فيه إثبات صفة الكلام أيضاً.

(﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾) فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته.

(﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة الكلام من وجهين:

الأول: قوله ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، والنداء نوع من أنواع الكلام وهو مِنْ بُعْدٍ.

والثاني: قوله: ﴿نَجِيّٗا﴾ وهو نوع من الكلام، وهو يكون مِنْ قُرْبٍ، وكلٌّ جاء في القرآن، جاء الكلام مطلقاً وجاء النداء والنجاء.

(﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾) فيه إثبات صفة الكلام.

(﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾) فيه إثبات صفة الكلام.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾)، وكذلك قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل.

(مذهب أهل السنّة في كلام الله)

ومذهب أهل السنّة والجماعة أن الله موصوف بالكلام، وأنه متعلق بمشيئته وقدرته، لم يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، فكما أنه تعالى لا يشبهه شيء من مخلوقاته في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، فكذلك في كلامه.

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ﴾، ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾،

(القرآن كلام الله)

(﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾) المراد به القرآن، فيه إثبات صفة الكلام. وفيه إضافة الكلام إلى الله، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قال وبلَّغ مؤدياً. الإضافة إنما تكون لمن صدر منه الكلام، وجاء ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ وإضافته إلى الرسول إضافة تبليغ.

(﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾) فيه إثبات صفة الكلام كالتي قبلها، فدل على أنه كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه، بدليل ما في هذه الآية أنهم يحرفون اللفظ والمعنى.

(﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ﴾) فيه إثبات صفة الكلام، وفيه إضافته إلى الله، فدل على أن القرآن العزيز كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف.

هذه آيات ثلاث فيها إضافته إلى الله، والقرآن نزل بلغة العرب، إذا أضيف الكلام إلى أحد فإنه يدل على أنه أول من قاله.

(﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾)

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

فيه إثبات صفة الكلام، وفيه أن القرآن متلو، وأنه كلمات.

(﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾) فيه إثبات صفة الكلام.

(مراتب القرآن)

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن الموجود أنه كلام الله حروفه ومعانيه، إذ الإشارة إلى الجميع، والقرآن هو ما بين الدفتين، المنزل على رسول الله ﷺ، المحفوظ في صدور المسلمين، الذي يتلوه من حفظه من المسلمين، المسموع بالآذان، فالإشارة إلى مراتبه كلها موجود محفوظ متلو مسموع، فالقرآن له أربع نسب: متلو، ومسموع، ومكتوب، ومحفوظ، وكل واحدة من هذه النسب لا تخرجه عن أن يكون كلام الله حروفه ومعانيه.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

(القرآن منزل غير مخلوق)

(﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾) كذلك، هذه إشارة إلى القرآن حروفه ومعانيه، وفيه أن القرآن منزل غير مخلوق. وفيه الدلالة على علو الله وفوقيته.

(﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾) الإشارة إليه بجميع مراتبه كلها، وإلى حروفه ومعانيه.

(﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾) الآيات. دال على أنه منزل. وجاء في القرآن تسميته سوراً كما في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ الآية. وجاء في هذه الآية وغيرها أنه آيات وكلمات وحروف، كما في قوله ﷺ: «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات» الحديث(١)، فدل على أن القرآن كلام الله: السور والآيات والكلمات، والحروف والمعاني.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ٧/ ٣٠٧ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أعربوا القرآن، فإنه من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف عشر حسنات، وكفارة عشر سيئات، ورفع عشر درجات».

وقــولــه: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾، ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾،

(إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة)

(**وقوله** ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾).

﴿نَّاضِرَةٌ﴾ ـ بالضاد ـ من النضارة وهي الحسن، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ من النظر وهو المعاينة، يراه المؤمنون في الجنة ولا يحيطون به رؤيةً لعظمته وجلاله، كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً، وقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ معناه لا تحيط به، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، ففيه إثبات صفة النظر إلى الله تعالى عياناً بالأبصار، وهو أعظم لذة في الجنة.

(﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾) الأرائك: جمع أريكة، يعني: في مجالسهم ينظرون إلى ربهم، ـ من النظر وهو المعاينة ـ، فلا نعيم ينظر إليه، ولا سماع ألذّ من سماع كلامه ونظره تعالى، كما جاء في الحديث «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك»[1]، كما أنهم كانت أعظم لذتهم في الدنيا سماع كلامه، وكما رأته عين بصائرهم في الدنيا حتى كأنهم يرونه على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل، والكفار ما رأته عين بصائرهم في الدنيا، فكذلك في الآخرة لا تراه أعين أبصارهم، فأهل الشقاء في جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة، وأهل الإيمان في جنة في الدنيا وفي الآخرة.

(﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾) الزيادة: هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى ١/ ٣٨٧، رقم ١٢٢٨، وابن حبان ٥/ ٣٠٥، رقم ١٩٧١.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾.

(﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾) والمزيد: هو النظر إلى وجه الله تعالى، ومن قال إن الزيادة على حسب الأعمال فلا منافاة بينهما؛ لأن أعلى المزيد هو النظر إلى وجه الله تعالى.

ففي هذه النصوص الأربعة إثبات الرؤية. فدل على أن المؤمنين يرونه في الجنة، ويرونه في عرصات القيامة كما يشاء الله.

وهذا الباب في كتاب الله كثير، من تدبر القرآن طالباً للهدى منه، تبين له طريق الحق.

(الآيات المشتملة على الصفات في القرآن كثيرة)

(وهذا الباب) باب الآيات المشتملة على الصفات **(في كتاب الله)** القرآن **(كثير، من تدبر القرآن طالباً للهدى منه، تبين له طريق الحق)**، ولا أراد أن هذا الذي سيق وأُثبت لإثبات الصفات هو الذي في القرآن كله، بل في القرآن آيات كثيرة غير محصورة هنا، ساق المصنف منها طرفاً صالحاً، وهو كثير بالنسبة إلى هذه العقيدة المختصرة.

(لماذا أكثر المصنف من إيراد آيات الصفات؟)

ومع أن هذه وجيزة مختصرة، فقد أتى بنوع كثير منها، وله غرض في الإكثار من الآيات:

أولاً: أنه يصير من محفوظاته[1] غير حفظه للقرآن.

ثانياً: أهل البدع أثقل شيء عليهم سماع نصوص الصفات[2].

---

(١) أي: طالب العلم.

(٢) (عبارة أخرى) بل المصنف كرر وأكثر في هذه العقيدة بالنسبة إليها، وإلا فالنص الواحد كافٍ، لكن لأجل كونه صواعق على الجهمية حتى تعرف الحق، ثم هذه النصوص ساقها المصنف من القرآن على إثبات الصفات وبالآيات الكثيرة، لتكون صواعق عليهم.

فصلٌ في سنَّة رسول الله ﷺ

فالسنَّة تفسر القرآن وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه، وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح

(فصـلٌ)

(في سنّة رسول الله ﷺ) يعني: فيما ورد من نصوص الصفات من الأحاديث النبوية، فإن النبي ﷺ أوتي الكتاب والحكمة، والمراد بها السنّة كما جاء في الحديث: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[1] يعني: السنّة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

(نصوص الصفات من السنّة)

لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ القسم الكبير، والمقدار الكثير من نصوص الكتاب العزيز المثبتة لصفات الله تعالى، ذكر من السنّة المطهرة مقداراً كثيراً وقسماً كبيراً، ليكون قد جمع في صفات الله سبحانه وتعالى بين ما أثبته الكتاب والسنّة، وإن كان أحدهما يكفي لكن بهما أبلغ.

(فالسنّة تفسر القرآن) ولا تخالفه أبداً، **(وتبينه)**: إيضاح له، **(وتدل عليه)**: دلالة عليه **(وتعبر عنه)**.

(وما وصف الرسول به ربه ـ عزّ وجلّ ـ من الأحاديث الصحاح

---

(١) رواه أحمد ٤/ ١٣٠.

التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول، وجب الإيمان بها كذلك.

التي تلقاها أهل المعرفة) والإيمان **(بالقبول، وجب الإيمان بها كذلك)**، كما وجب الإيمان بالقرآن وهما الوحيان، وغلّظ ﷺ فيمن اكتفى بالقرآن والدلالة به ويترك السنّة، فقال ﷺ: «وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله»[1].

---

(١) رواه الترمذي ٥/٣٨، رقم ٢٦٦٤.

مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إِلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» متفق عليه.

(إثبات نزول الرب إلى السماء الدنيا كل ليلة على ما يليق بجلاله)

(مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» متفق عليه) هذا حديث صحيح شهير، قال ابن عبد البر ما معناه: «إنه حديث شهير تلقته الأمة بالقبول»[1].

هذا الحديث فيه وجوب الإيمان بجمل من الصفات:

ففيه إثبات صفة نزول ربنا كل ثلث الليل الآخر على ما يليق بجلال الله وعظمته، نزول حقيقي لا يعلم كنه ولا كيفية نزوله إلا هو، وكذلك سائر صفاته.

فإذا قال لنا المبطل الجاحد النافي: كيف ينزل ربنا؟

قلنا: كيف هو؟ فإن القول في الصفات كالقول في الذات، يُحتذى حذوه ويقاس عليه، فكما أن إثباتَ الذات إثباتُ وجودٍ وحقيقةٍ لا يعلم كنهها وكيفيتها إلا هو تعالى، فإثبات النزول إثباتُ وجودٍ وحقيقةٍ لا يعلم كنهه إلا هو تعالى.

---

(١) التمهيد ١٢٨/٧ ونصه: «وهذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو حديث منقول من طرق متواترة ووجوه كثيرة، من أخبار العدول عن النبي ﷺ».

....

(هل يخلو منه العرش أو لا؟ السكوت عنه أولى)

ثم كونه يخلو منه العرش أو لا؟ في الحقيقة السكوت عنه أولى.

وفيه إثبات صفة الكلام، وصفة السمع من جهتين:

الأولى: قوله: «من يدعوني»؛ لأن دعاء من لا يسمع عبث.

والثانية: قوله: «فأستجيب له»، ومن لا يسمع كيف يجيب السائل له؟!

وصفة المغفرة. وفيه إثبات كمال جوده وفضله.

وفيه إثبات قربه تعالى لسائليه كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية.

وفيه الحث والتحريض على التعرض لنفحات مغفرة الربّ آخر الليل، فلا يفوت هذا الخير الكثير والفضل العظيم.

وهذه الثلاثة بعضها أخص من بعض فقوله: «من يدعوني» شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

«من يسألني» هذا أخص من الذي قبله، وهذا السؤال يعني: أي سؤال ديني أو دنيوي.

والثالث قوله: «من يستغفرني فأغفر له». وهذا أخص من الذي قبله.

وقوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته» الحديث متفق عليه.

وقوله ﷺ: «يضحك الله إِلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة» متفق عليه.

(إثبات صفة الفرح لله)

(**وقوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته» الحديث متفق عليه**)[1] فيه إثبات صفة الفرح، بل إثبات شدة فرح الله بتوبة العبد ورجوعه إلى ربه، والباعث عليه ليس إلا مجرد إحسان ومحبته للطاعة. فصار فيه الحث على الرجوع عن معاصي الله وتوبة العبد إلى ربه. فالربّ تعالى هو الذي وفقه للتوبة، وحرك قلبه لها، ويسّر له أسبابها وهداه إليها، ثم مع هذا كان شديد الفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من المعاصي، مِنْ أحدكم إذا ضلت راحلته ثم وجدها، فَفَرحُ هذا بدابته من المعلوم أنه أعظم من فَرَح كل فَرِحٍ، وفرح رب العالمين أعظم من فرح هذا براحلته، فرح يليق به لا كفَرح العباد.

(إثبات صفة الضحك لله)

(**وقوله ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة» متفق عليه**). هذا الحديث فيه إثبات صفة

---

(١) رواه البخاري ٥/ ٢٣٢٥، رقم ٥٩٥٠، ومسلم ٤/ ٢١٠٤، رقم ٢٧٤٧ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح».

....

الضحك، أن الله يضحك حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، كما أنه يفرح حقيقة تليق بجلاله وتختص به، ومثله حديث: «ضحك الله الليلة من فعالكما»[1].

وتقدم قول أهل السنّة في الصفات، أنهم يثبتونها لله تعالى من غير تمثيل، كما أنهم ينفون عن الله ما لا يليق بجلاله وعظمته من غير تعطيل.

وأما معناه: فإن الكافر يقتل المؤمن، ثم يمنّ الله على الكافر فيسلم، فيكون هو وقتيله يدخلان الجنة.

(١) رواه البخاري ٣/ ١٣٨٢ رقم ٣٥٨٧ في قصة إكرام الأنصاري لضيفه.

وقوله: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه، ينظر إليكم أَزْلِيْن قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» حديث حسن.

(إثبات صفة العَجَب لله)

(وقوله: «**عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه، ينظر إليكم أَزِلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**» **حديث حسن**).

«**قنوط عباده**» القنوط: شدة اليأس، وهو استبعادهم ويأسهم من حصول المطر.

«**وقرب غِيَرِه**» أي: قرب تغييره للحال التي أنتم عليها إلى الحال التي أحسن منها، تغيير حال السوء إلى حال الخصب والفرح.

هذا الحديث فيه إثبات عدة صفات من صفات الله تعالى:

إحداها: العَجَب، وأن الله يَعْجَب عجباً يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل.

«**ينظر إليكم**» فيه إثبات صفة النظر.

«**أَزْلِيْن**» الأَزْلُ: شدة الضعف. والحال ـ والله أعلم ـ يعني: شديدي الحال.

«**قنطين**» يعني: آيسين من الغيث.

«**فيظل يضحك**» فيه إثبات صفة الضحك.

«**يعلم أن فرجكم قريب**» فيه إثبات صفة العلم.

وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله ـ وفي رواية ـ «عليها قدمه» فينزوي بعضها إِلى بعض، فتقول: قط قط» متفق عليه.

(إثبات صفة الرجل والقدم لله)

(وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله ـ وفي رواية ـ «عليها قدمه» فينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط» متفق عليه).

«**لا تزال جهنم يلقى فيها**» يعني: دوام اتصافها بذلك.

«**وهي تقول: هل من مزيد؟**» تطلب وتسأل الزيادة، باقية ما امتلئت تطلب.

«**حتى يضع رب العزة فيها رجله ـ وفي رواية ـ عليها قدمه**» هذا الحديث فيه إثبات صفة الرِّجل، وصفة القدم لله تبارك وتعالى، من غير تكييف ولا تمثيل ولا توهم. يجب علينا أن نعلمه ونعتقده ونجزم به، كما أتى عن رسوله ﷺ.

(قاعدة في الصفات)

ولا يمكننا أن نحيط بخالقنا تبارك وتعالى علماً، بل الخلق يعلمون خالقهم بما أوحاه إليهم على ألسن رسله، ولا يعلمون ما هو عليه. ومعرفة ما هو عليه من أمنع الممتنعات، بل هم ممنوعون أن يخوضوا في صفات الله تعالى، مأمورون بالتفكر في آياته، ممنوعون عن التفكر في كيفية صفاته، فإن الله لم يجعل لهم إليه سبيلاً، وأيضاً السبيل ليس حجاباً إذا كشف علموا ما هو عليه، بل لا يحيطون به علماً كما في الآية الكريمة.

....

ونعرف أن القول في الصفات كالقول في الذات كما تقدم، بل ما يثبت له سبحانه يختص به ويليق به وإن اتفق في اللفظ، وكذلك ما يضاف إلى المخلوق يختص به ويليق به، فإثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف.

قوله: «**فينزوي بعضها إلى بعض**» وتتضايق «**فتقول: قط قط**» أي: كافيني، وهو اسم فعل.

وقوله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إِلى النار» متفق عليه، وقوله: «ما منكم من أحد إِلَّا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان».

(إثبات صفة الكلام لله)

(**وقوله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم**) فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، كلام حقيقة مسموع بالآذان، فإن آدم سمعه بأذنيه فيجيب آدم (**فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوتٍ: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» متفق عليه**) فيه إثبات صفة الكلام؛ لأن النداء نوع منه، وهو الذي سبحانه ينادي.

وفيه أنه بحرف وصوت، وفي رواية «فيناديه» ففيه إثبات صفة الكلام، ومن أدلة ذلك: «أما إني لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1].

جرت محاورة بين بدعي وسنّي، فقال البدعي: إذا قال الله لك: ما دليلك على أن الله يتكلم بحرف وصوت؟ فأجاب السنّي بقوله: أقول ها أنا ربي، أسمع كلامك بحرف وصوت.

(**وقوله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان»**) متفق عليه، كما تكلم في الدنيا يتكلم في الآخرة على ما يليق بجلاله وعظمته. وهذا التكليم في الآخرة من غير ترجمان ولا واسطة، بل كفاحاً. فهو تكلم ويتكلم وسيتكلم، ومذهب أهل السنّة أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وهذه عبارتهم.

---

(١) رواه الترمذي ٥/ ١٧٥ رقم ٢٩١٠.

وقوله ﷺ في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض»

(إثبات علو الرب وفوقيته)

(وقوله ﷺ في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء») فيه إثبات علو الربّ وفوقيته، وجاء في علوه وفوقيته أكثر من ألف دليل.

«في السماء» إما أن يراد به مطلق العلو وتكون على بابها، وإما أن تكون بمعنى على، أي: عليها وفوقها.

(تقدس اسمك) هذا فيه إثبات أن لله أسماء تسمى بها كما قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقال ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً» فدل على أن لله أسماء، وأنها دلت على الكمال إلى الغاية، ولا يجوز أن يتسمى بها أحد.

ومذهب أهل السنّة: إثبات الأسماء الواردة في الكتاب والسنّة، وتقدم لكم وجوب الإيمان بها لفظها ومعناها، ويُقَرُّ ويعتقد معناها ولفظها.

«تقدس اسمك» معنى التقديس: التطهير، وهو مفرد مضاف، يشمل جميع الأسماء المثبتة في النصوص، وأنها كلها مقدسة ليس المراد تقدس واحد من أسمائك فقط والآخر لا؛ بل جميع الأسماء كلها، ففيه إثبات الصفات وأنها مقدسة، المعنى تقدست أسماؤك عن نقص وعيب.

وفيه إثبات كمال أسماء الله تعالى، فإن المراد جنس الأسماء، ولهذا في الآيات: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

(أمرك في السماء والأرض) فيه إثبات صفة الكلام؛ لأن أمره

كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع، فيبرأ» حديث حسن رواه أبو داود وغيره، وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» حديث صحيح.

بكلامه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

(**كما رحمتك في السماء**) فيه إثبات صفة الرحمة.

(**اجعل رحمتك في الأرض**) فيه إثبات صفة الرحمة.

(**اغفر لنا حوبنا وخطايانا**) الحوب: هي الذنوب والخطايا، وعطف الخطايا على الحوب، إما أنه نوعان، نوع ونوع... الخ، والله أعلم.

وفيه إثبات صفة السمع.

(**أنت رب الطيبين**) فيه إثبات صفة الطيب، فهو الذي خلق الطيبين والطيب، فهو أولى بالطيب على وجه الكمال وعدم مماثلته للخلق بوجه.

(**أنزل رحمة من رحمتك**) فيه إثبات صفة الرحمة.

(**وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ» حديث حسن رواه أبو داود وغيره**) الشفاء: هو البرء.

(**وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» حديث صحيح**) في هذا إثبات علو الربّ وفوقيته.

وقوله: «والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

وقوله للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم.

«**في**» هنا بمعنى على، وهي تجيء في العربية بمعنى الاستعلاء كما في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

و«**السماء**» المراد بها السموات، يعني: فوق السموات.

«من في السماء» يعني: من على السماء. وقد تكون على بابها وهو الظرفية، يعني: في العلو.

(وقوله: «والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه» حديث حسن رواه أبو داود وغيره) وهذا أيضاً فيه إثبات علو الربّ وفوقيته من غير تمثيل.

(وقوله للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: مَنْ أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم) هذا فيه جواز السؤال عن الله بلفظ «أين»، وأهل التجهم والاعتزال يشهدون لمن يقول: أين الله بالكفران، والنبي ﷺ أقرها على ذلك وشهد لها بالإيمان، فدلك على أن مثبتي الصفات أتباع ولد عدنان، ومنكريها أتباع جهم بن صفوان.

ففي هذا النص إثبات لعلو الربّ وفوقيته.

وقوله: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» حديث حسن.

(إثبات معية الله لخلقه)

(**وقوله: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك»**) مع كل عبد (**حيثما كنت» حديث حسن**) هذا فيه إثبات صفة المعية العامة. وهي معية تليق بجلال الله وعظمته، وهو مستوٍ على العرش، معية ـ من غير امتزاج ولا اختلاط ولا مماسة ـ في جميع أحوالك، ما يكون من حالة إلا والله معك، ومقتضى المعية العامة: العلم والإحاطة على خفاياتك وجلياتك.

وفيه من الفوائد: أن الإيمان يزيد وينقص، ثم هذه الزيادة تارة تكون عن فعل، وتارة تكون عن ترك، والنقص تارة يكون من غير اختيار كالحائض وغيرها، وأن كماله بشيئين:

الأول: في الكمية، وهي القيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات.

والثاني: بالكيفية، وهو التفاضل بتفاضل ما في القلوب كما في خبر أبي بكر.

وفيه من الفوائد: دخول أعمال القلب في الإيمان، ولهذا أحد تعاريف الإيمان أنه قول وعمل.. الخ. فهذا من قول القلب؛ علمه وإقراره أن الله معك حيثما كنت؛ ثم ما دل عليه من كونه أفضل الإيمان لكونه يكسب مقام الإحسان، فإن الدين مراتب ثلاث أعلاه الإحسان، كما في حديث جبريل، والإحسان كما وضحه النبي ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[1].

---

(١) رواه البخاري ١/ ٢٧، رقم ٥٠، ومسلم ١/ ٣٦، رقم ٨.

....

وفائدة أخرى: أن التقسيم الذي في حديث جبريل يفيد أن الإحسان ليس خارجاً من الإيمان بل منه، كما أنه من الإسلام، فإذا أفرد دخل فيه الآخر، وإذا اقترنا فكلٌّ له مرتبة.

وقوله: «إذا قام أحدكم إِلى الصلاة، فلا يبصق قبل وجهه، ولا عن يمينه، فإن الله قبل وجهه، ولكن عن يساره، أَو تحت قدمه» متفق عليه.

وقوله ﷺ: «اللهم ربَّ السمواتِ السبعِ والأرضِ، وربَّ العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فَالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة

(إثبات صفة القرب لله لا ينافي علوه وفوقيته)

(وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق قبل وجهه، ولا عن يمينه، فإن الله قبل وجهه، ولكن عن يساره، أو تحت قدمه» متفق عليه) فيه إثبات صفة القرب وأن الله تعالى قِبَل وجه المصلي في صلاته، على ما يليق بجلاله وعظمته، لا نعلم كنهه وكيفيته، فلا تظن أن هذا ينافي ما ورد في النصوص من علو الربّ تعالى وفوقيته، فإن السموات والأرضين كلها في يده كالخردلة، فلا يمتنع عليه تعالى شيء من مثل هذه الأمور، فكل هذا وهذا حق، وإنما يمتنع ذلك على المخلوق، فنثبته حقيقة كما أثبته المصطفى ﷺ ودلنا عليه، فهو تعالى مع كمال علوه قِبَل وجه المصلي وهو فوق سمواته من غير تمثيل.

وفيه نهي المصلي أن يبصق قبل وجهه الخ.

(وقوله ﷺ: «اللهم ربَّ السمواتِ السبعِ والأرضِ، وربَّ العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحبِ والنوى، مُنزِّل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة

أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر» رواه مسلم.

أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر» رواه مسلم).

هذا الحديث فيه هذا الدعاء النبوي، وفيه إثبات عدة أسماء للربّ سبحانه وصفات، منها: صفة العلو في قوله: «مُنزِّل» فإن النزول لا يكون إلا من أعلى.

وفيه أن القرآن والتوراة والإنجيل منزلة غير مخلوقة.

وفيه إثبات صفة السمع، وأن الله تعالى يسمع حقيقة فلا يُدْعى إلا الذي يَسْمع دعاءَ الداعي.

وفيه إثبات هذه الأسماء الأربعة الحسنى لله سبحانه، وهي المذكورة في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

وفيه بيان تفسير كل من الأسماء الأربعة، وأن تفسير اسمه «الأول»: الذي ليس قبله شيء.

ومعنى «الآخر»: الذي ليس بعده شيء.

ومعنى «الظاهر»: الذي ليس فوقه شيء.

ومعنى «الباطن»: الذي ليس دونه شيء.

وقوله ﷺ ـ لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر ـ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً،

فلا يسوغ تفسير هذه الأسماء إلا بهذا التفسير النبوي، ومعنى الظهور: العلو، فإن كل مكان أعلى فهو أظهر.

وقول النبي ﷺ: «الباطن» مثل «أن تعلم أن الله معك»، ومثل «قِبَل وجهه»، فإن بطونه على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل.

وذكر ابن القيم أن الأول مقابل الآخر، والظاهر مقابل الباطن، وأن المراد بالباطن بذاته، كما أنه الظاهر بذاته، وكما أنه الأول بذاته فهو الآخر بذاته.

ولا يظن أن هذا يدل على الحلول كما ذكره بعض المبتدعة، فإن المخلوقات في يده سبحانه وتعالى كالذرة، فإن المخلوقات لا تحول دونه جل وعلا، فإنه الذي لا أكبر ولا أعظم منه.

(وقوله ﷺ ـ لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر) في بعض الأسفار ـ: **(أيها الناس اربعوا على أنفسكم)** اقصروا على أنفسكم، والرَّبْع: القَصْر، وارفقوا بها، يعني: لا ترفعوا هذا الرفع.

(فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً) فيحوجكم ذلك إلى رفع الأصوات، وإنما يحتاج رفع الصوت للأصم الذي لا يسمع والغائب، أما القريب فليس في رفع الصوت له فائدة.

إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إِلى أحدكم من عنق راحلته» متفق عليه.

(القرب لا ينقسم كما تنقسم المعية وإنما هو خاص)

(إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إِلى أحدكم من عنق راحلته» متفق عليه) في هذا إثبات صفة السمع، وإثبات قُرْب الربّ تعالى من داعيه، وهذا هو القرب، فإنه أتى في القرآن خاصٌّ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ الآية، وكما في هذا الحديث، وكما في حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1]. والقرب لا ينقسم كما تنقسم المعية.

---

(١) رواه مسلم ١/ ٣٥٠، رقم ٤٨٢.

وقوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته،

(إثبات رؤية الرب في القيامة وفي الجنة عياناً بالأبصار)

(وقوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا**» **متفق عليه**) هذا فيه إثبات رؤية الربّ سبحانه في القيامة عياناً بالأبصار، ويُرى في الجنة عياناً بالأبصار.

(**كما ترون القمر ليلة البدر**) وهذا أظهر وأجلى ما يكون في رؤية القمر ليلة أربعة عشر، لكبره ولارتفاعه وظهوره، أي: كما أن رؤيتكم عياناً بالأبصار مقابلة.

(**لا تُضَامُوْن**) بضم التاء وتخفيف الميم، أي: لا يلحق أحد منكم ضيم أو ضيق أو مشقة عند رؤيته، فكل يراه من غير ضيم يلحقه، وذلك أنه جلي ظاهر، كل يراه في مكانه بخلاف الشيء الخفي.

ويروى «لا تَضَامُّون في رؤيته» أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض، أي لا يحوج هذا كنظر الشيء الخفي؛ لأنه شيء أجلى.

وفي رواية أخرى: «لا تضارون» أي: لا يلحقكم ضرر عند رؤيته.

وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية، لا تشبيه للمرئي بالمرئي، لأنه لم يرد في النصوص تشبيه الباري بخلقه، ورؤية الناس للقمر معلوم أنها من غير إحاطة، فلا يدركون كنهه ولا كيفيته وهو مخلوق، فالباري

فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا» متفق عليه.

يُرى ولا يحاط به رؤية، فإن الله تعالى أجل وأعظم من أن تحيط به أبصار المخلوقين لضعفها كما في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ فنفى الأخص وهو الإحاطة، ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم وهو الرؤية.

(فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس) وهي صلاة الفجر.

(وصلاة قبل غروبها) وهي صلاة العصر، يعني: أن لا تؤخروها عن وقتها التي شرعت فيها.

(فافعلوا) فإن كل الصلوات الخمس فريضة، وكلٌّ من الواجبات وواجبٌ المحافظة عليها؛ لكن بعضها أفضل من بعض، كما أن المحرمات بعضها أشد تحريماً من بعض، ففيه أفضلية هاتين الصلاتين، وأفضيلة المحافظة عليهما في أوقاتهما.

وكل منهما قيل: إنها الوسطى، وقد ذكر ابن كثير الأقوال وبسط تعدادها في قوله: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، وثبت عن النبي ﷺ أنها العصر.

وجاء في الحديث الآخر ما يدل على أفضليتهما: «من صلى البردين دخل الجنة»[(١)]، وهما العصر والفجر، وكان أول ما فرض هاتان الصلاتان في أول النهار وفي آخره.

---

(١) رواه البخاري ١/ ٢١٠، رقم ٥٤٨، ومسلم ١/ ٤٤٠، رقم ٦٣٥.

....

ومناسبة ذكر هذا: أن أهل الجنة يرون الله بكرة وعشياً، وهذا وجه قرن هذه الجملة بما قبلها.

وفيه ما يشعر أن أكمل المؤمنين رؤية، أشدهم محافظة على هاتين الصلاتين، وجاء في الحديث: «أن الله يتجلى لهم يوم الجمعة»[1]، وهذا لا ينافي هذه الرؤية، لأن رؤيتهم لربهم يوم الجمعة نظرٌ إليه أسبوعي، وهذه رؤية يومية، وأيضاً ذاك أخص من هذا. وأما النساء فجاء حديث أنهن يرينه من العيد إلى العيد[2].

ورؤيته تعالى أعظم نعيم أهل الجنة؛ بل ما طاب لهم نعيم إلا برؤيته تعالى، كما أن أهل الجحيم أعظم عذابهم أن حجبوا عن رؤيته. ويُرى سبحانه في عرصات القيامة.

---

(١) كما في الترمذي ٤/ ٥٩١ رقم ٢٥٤٩، وابن ماجه ٢/ ١٤٥٠ رقم ٤٣٣٦، وابن أبي عاصم في السنَّة ١/ ٢٥٨ رقم ٥٨٥ عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يُؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم، فيبرز لهم عرشه ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم وما فيهم من دنيّ، على كثبان المسك والكافور، وما يرون أن أصحاب الكراسي أفضل منهم مجلساً، قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، هل نرى ربنا؟ قال: نعم، قال: هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ قال: لا، قال: كذلك لا تمارون في رؤية ربكم».

(٢) رواه الدارقطني في كتاب الرؤية ص٨٢ رقم ٥٢ عن أنس بن مالك ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة رأى المؤمنون ربهم عزّ وجلّ فأحدثهم عهداً بالنظر إليه في كل جمعة، وتراه المؤمنات يوم الفطر ويوم النحر».

إِلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به، فإن الفرقة الناجية أهل السنّة والجماعة

(أهل السنّة والجماعة يؤمنون بجميع ما ثبت عن النبي ﷺ في الصفات)

(إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به).

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ أمثلة من أحاديث الصفات تدلنا على ما وراءها، ثم قال: «إلى أمثال هذه الأحاديث. .» الخ، يريد: أنها ليست هذه الأحاديث وحدها، بل هي قليل من كثير، ونقطة من بحر، وحصر الأحاديث التي يصف بها رسول الله ﷺ ربه عزّ وجلّ على الحقيقة لا على المجاز بما يناسبه ويليق به، يستدعي أسفاراً.

والمصنف ذكر القسم الكبير من الكتاب العزيز بالنسبة إلى هذه المختصرة، ثم ذكر القسم الكبير من السنّة بالنسبة إلى هذه المختصرة، لتكون معك أصول تستدل بها على ما وراءها، ولتأخذها براهين لما يذكر من المسائل.

(فإن الفرقة الناجية) هي **(أهل السنّة والجماعة)**، والثنتان والسبعون كلها في النار، ليس الناجي غير أهل السنّة والجماعة، الذين درجوا على ما درج عليه النبي ﷺ، ولهذا لما سئل النبي ﷺ من هم؟ قال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[1]، وحديث «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذي يلونهم»[2]، وحديث «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين

(١) رواه الطبراني في الأوسط ٨/ ٢٢، رقم ٧٨٤٠.

(٢) رواه البخاري ٣/ ٩٣٨، رقم ٢٥٠٧، ومسلم ٤/ ١٩٦٤، رقم ٢٥٣٥.

يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

يلونهم»[1]، وما عداهم فهم على جَوْر وانحراف.

(يؤمنون بذلك) كله، يعني: بجميع ما ثبت عن النبي ﷺ في الصفات.

(كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه) يعني: القرآن، فالكتاب والسنّة أخوان شقيقان يجب الإيمان بهما جميعاً؛ فإن النبي ﷺ أوتي الكتاب والحكمة وهي السنّة.

(من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل)[2] فيؤمنون بها، ويعتقدون مدلولها على ما يليق بجلال الله وعظمته.

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٣٣٥، رقم ٣٤٥٠.

(٢) قلت: تقدم معنى التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل في ص ٢٣ ـ ٢٦.

بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى: بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة.

(مكانة أهل السنّة والجماعة بين فرق الأمة)

(بل هم الوسط في فرق الأمة) يعني: العدل الخيار في فرق هذه الأمة المحمدية التي افترقت على ثلاث وسبعين فرقة، أما بقية الفرق الثنتين والسبعين فهم أهل انحراف عن الصراط المستقيم. منهم من خرج به عن الدين، ومنهم من خرج به عن بعضه، ومنهم من مال به.

(كما أن الأمة هي الوسط) العدل الخيار **(في الأمم)**، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، فشهادتهم مقبولة على البقية، والبقية لا تقبل شهادتهم عليهم، وكما قال ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»[1].

(الناس في باب الصفات ثلاث فرق أهل السنّة هم الوسط بينهم)

(فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى) عدل خيار: **(بين أهل التعطيل الجهمية)** النفاة، **(وأهل التمثيل المشبهة)**.

هذا الباب باب الصفات باب عظيم كبير، والناس في هذا الباب ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: أهل التحريف والتعطيل، نفوا وجحدوا، وهم الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وإن كانوا يتفاوتون.

---

(١) رواه أحمد ٤/٤٤٧، والترمذي ٥/٢٢٦، رقم ٣٠٠١، وابن ماجه ٢/١٤٣٣، رقم ٤٢٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٥.

....

وقابلتهم الفرقة الثانية: وهم أهل التشبيه والتمثيل من الرافضة وغيرهم.

والثالثة: أهل الوسط، وهم أهل السنّة والجماعة، توسطوا فأثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله، إثباتاً لا يقتضي التمثيل، ونفوا عن الله ما لا يليق بجلاله وعظمته، نفياً لا يقتضي التعطيل، فصاروا أهل الوسط في هذه الفرق.

فالأولون نفوا حتى غلوا في النفي، فعطلوا صفات الله سبحانه، زعماً منهم أن إثباتها يقتضي التشبيه، أو خوفاً من التشبيه، فوقعوا في تشبيه شرٍّ منه كما يأتي.

وأهل التمثيل أثبتوا وغلوا في الإثبات فوقعوا في التشبيه والتمثيل، قالوا: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، ونحوه.

وكل من الطائفتين يضرب النصوص بعضها ببعض، ووفق الله أهل السنّة للطريق المستقيم، أهل الدين القويم، أتباع سيد المرسلين، الذين اقتدوا واتبعوا الصحابة والتابعين، وما جاء به سيد المرسلين عن رب العالمين.

(الفرق بين مذهب الأشاعرة والجهمية)

س: ما الفرق بين مذهب الأشاعرة والجهمية.

جـ: مذهب الأشاعرة في الصفات إثبات الأسماء جميعها، وإثبات سبع صفات، والجهمية ينكرونهما جميعاً، فوافقوهم في النفي ما عدا السبع والأسماء.

....

وليس عند أهل السنّة بحث ولا تفتيش، بل آمنوا بالجميع على ما يليق بجلال الله وعظمته، فالصدر الأول الصحابة ومن بعدهم، قبلوا ما جاء به الكتاب والسنّة، وآمنوا به من غير تمثيل، ثم لمّا ظهرت المعطلة والمشبهة احتاج أهل السنّة للكلام في الصفات والبحث فيها، فبينوا أن طريقتهم هي إثباتها مع العلم بمعانيها، وأنها حق، وضللوا وبدعوا وكفروا أهل التعطيل وأهل التمثيل، ومن كلام بعضهم: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى عنه ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله تشبيه»، ومن كلام بعضهم: «المعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً»، وعابد العدم شر من عابد الصنم كما تقدم.

فعرفت كفر كلٍّ من الطائفتين، وعرفت أن كفر المعطلة أعظم؛ لأنه محفوف بتشبيهين، شبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، ولزمهم في تعطيلهم التمثيل بالجمادات والمعدومات، بل والممتنعات.

وهم وسط في باب أفعال الله: بين الجبرية، والقدرية وغيرهم.

(أهل السنّة وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية)

(وهم) أهل السنّة **(وسط في باب أفعال الله)** في شمول مشيئته وخلقه لأفعال العباد[1]: **(بين الجبرية)** الذين يجعلون أفعال العبد فعل الله وليس للعبد فعل أصلاً، وإنما هو كالميت أدرج في الأكفان، **(والقدرية وغيرهم)** الذين يقولون: الأفعال فعلها العبد، فما شاء فعل وما لم يشأ لم يفعل ولم يخلقها الله.

فأفعال الله تعالى قد غلا في إثباتها قوم، وهم القدرية المجبرة من الجهمية والأشاعرة ومن وافقهم، حتى جعلوا العبد مجبوراً على أفعاله، وأنه كالآلة، وكالمستدير في يد مديره، لا فعل له، ولا إرادة له، ولا قدرة، ولازم قولهم: أن أفعالهم هي أفعال الله، وغلاتهم يقولون: أفعالهم عين فعل الله.

وقابلهم قوم، وهم القدرية النافية للقدر، فأخرجوها عن أفعال الله وأنها ليست بتكوينه، وقالوا: إن الذي يفعل العبد، من غير قضاء الله وقدره، فلازم قولهم: أن العبد يخلق مع الله.

فهدى الله أهل السنّة، فأثبتوا أفعال الله ولم يغلوا فيها. فآمنوا أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن العبد له فعل ومشيئة وقدرة، لكنها تابعة لمشيئة الله وقدرته ومشمولة بالخلق[2].

---

(١) (عبارة أخرى) في عموم مشيئته وتخليقه وتكوينه.

(٢) قلت: ويأتي مبحث خاص بالقدر والإيمان به، مبسوط فيه ما يتعلق بأفعال الله هناك في ص ١٦٨.

وفي باب وعيد الله: بين المرجئة، والوعيدية من القدرية وغيرهم.

(أهل السنّة وسط في باب نصوص الوعيد بين المرجئة والوعيدية)

(و) أهل السنّة وسط **(في باب)** نصوص **(وعيد الله)** بالعذاب أو بالنار لعصاة الموحدين **(بين)** طرفين: **(المرجئة، والوعيدية)**.

فالمرجئة: يعطلون نصوص الوعيد، ولا يعتقدون حقيقة الوعيد وأن عصاة المؤمنين على خطر إن لم يتجاوز الربّ عنهم، بل يُغلِّبون جانب الرجاء ويتأخر منهم العمل.

والوعيدية **(من القدرية وغيرهم)** يثبتون نصوص الوعيد ويغلون في إثباتها ويزيدون فيها، ويرون أن من توعد فيها من عصاة الموحدين فهو من المخلدين في النار، حكمه حكم الكفار والمشركين.

وأهل السنة يثبتون نصوص الوعيد، ويمرونها كما جاءت ولا يعطلونها، مع مراعاة شيء آخر وهو أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت المشيئة، ولا يُغلِّبون جانب الرجاء فيتأخر منهم العمل، ولا يرون أن عصاة الموحدين مثل الكفار ولكن يخشون عليهم.

ويأتي في آخر الكتاب إيضاح هذا الباب في باب مستقل(١).

---

(١) في ص ١٨٤.

وفي باب أسماء الإيمان والدين: بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية.

(أهل السنّة وسط في مسألة الأسماء والأحكام بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية)

(وفي باب أسماء الإيمان والدين) كنصوص التكفير، وهذه يقال لها: «مسألة الأسماء والأحكام» مثل الإسلام والإيمان والكفر والفسق. والمرجئة ما بالوا بها ولا أشفقوا، وأهل السنّة أعطوها حقها وخافوا ارتكابها.

فأهل السنّة وسط بين طرفين: **(بين الحرورية)** نسبة إلى حروراء وهم الخوارج، **(والمعتزلة، وبين المرجئة)** قيل: من الإرجاء وهو التأخير **(والجهمية)**.

فالخوارج والمعتزلة طرف، والمرجئة والجهمية طرف.

المعتزلة والخوارج قالوا: إن الإيمان قول وعمل لكن لا يتبعض ولا يتجزأ، قالوا: إن ترك المعصية وفعل الطاعة إيمان، فإذا فعل الموحد المعصية، أو ترك الطاعة زال عنه الإيمان كله.

ثم الخوارج تكفره، والمعتزلة تجعل له منزلة بين المنزلتين. وافقوا أهل السنّة في أصل الإيمان أنه قول وعمل، لكن خالفوهم فقالوا: لا يتبعض ولا يتجزأ.

والمرجئة والجهمية قالوا: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، أو القول فقط، وأنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض ولا يتجزأ.

فيلزم على القول بأنه العلم بالحق والمعرفة، أن إيمان جبريل وإبليس واحد.

....

ويلزم على القول بأنه القول فقط، أن إيمان جبريل وإيمان المنافقين واحد.

وأهل السنّة وسط بين هذين الطرفين، فقالوا: إن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، وهو يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، ويتبعض ويتجزأ، وأن التصديق بالقلب وحده ليس بإيمان، وأن الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه ليس بمؤمن، وأن الفاسق الملّي لا يكفر بمطلق المعاصي والكبائر وغير ذلك مما تقتضيه أصولهم[(١)].

---

(١) قلت: ويأتي فصل خاص بمسألة الإيمان والأحكام، وبسط الأقوال في حد الإيمان، وحكم الفاسق من أهل الملّة عند الفرق الثلاث في ص ١٨٤.

(أهل السنّة وسط في الصحابة بين الرافضة والخوارج)

(وفي أصحاب رسول الله ﷺ: بين الرافضة والخوارج).

الرافضة غلوا في علي وأهل البيت، حتى قال بعضهم بإلٰهيتهم أو نبوتهم، أو عصمتهم، فالرافضة يغلون في أهل البيت بتعظيمهم، ويجفون بقية الصحابة إلا نفراً قليلاً، ومسلكهم فيهم التكفير.

ومسلك الخوارج في أصحاب رسول الله ﷺ معلوم معروف، يكفرونهم أو يفسقونهم ـ أهل البيت وغيرهم ـ لما وقع منهم من التحكيم وغيره، خصوصاً عليّاً ومعاوية وأهل الشام.

وأهل السنّة والجماعة وسط، وعلى هدى مستقيم بين ضلالتين، يترضون عن جميع أصحاب رسول الله ﷺ، ويعرفون حقهم وينزلونهم منازلهم، ولا يرون فيهم ما يراه الخوارج والروافض من تكفيرهم.

وكذلك أهل السنّة والجماعة توسطوا في أهل بيت رسول الله ﷺ، ورأوا أن لهم مزية لقربهم من النبي ﷺ كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[(١)]، ولا يرون ما يراه الروافض من الغلو في أهل البيت، ولا ما يراه الخوارج والنواصب من العداء لأهل البيت.

(١) رواه الإمام أحمد ١/٢٠٧ رقم ١٧٧٧، وابن أبي شيبة ٦/٣٨٢ رقم ٣٢٢١٣ بلفظ: «والله لا يدخل قلب امريء إيمان، حتى يحبكم لله ولقرابتي».

فصل

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه، عليٌّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون،

(فصـل)

(من أعظم الإيمان بالله: الإيمان بعلم الله ومعيته مع خلقه، وأنها لا تنافي علوه وفوقيته)

(وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه، عليٌّ على خلقه) يعني: منفصل من خلقه بائن منهم، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته.

(وهو سبحانه معهم أينما كانوا) معية تقتضي العلم والإحاطة والاطلاع.

(يعلم ما هم عاملون) هذا تفسير لقوله: «وهو سبحانه معهم»، وألجأهم إلى أن يفسروها باللازم، لرد محذور أكبر، من أجل أنهم يتكلمون مع الجهمية القائلين بالحلول وإنكار العلو، فبينوا أنه ليس بالخلق مختلطاً، هذا مقتضى المعية، وكذلك الإحاطة والقدرة وملكه وقبضه.

والإيمان بذلك من أعظم الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهو مع كمال علوه وفوقيته بكمال علمه ومعيته مع خلقه.

كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة،

(**كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾**)، واستواؤه على عرشه هذا فيه إثبات علوه على خلقه، (﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾) إثبات كمال العلم.

(﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾) إثبات صفة المعية.

(﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾) إثبات صفة البصر.

(معية الله لا تقتضي الامتزاج بإجماع السلف والفطرة دلت على ذلك واللغة لا توجبه)

(**وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق**) ممتزج بالخلق كما تقوله حلولية الجهمية، حاشا وكلا، بل معية الله تعالى لا تقتضي ذلك، فإنها وردت مطلقة في وصف الله.

(**فإن هذا لا توجبه اللغة**) التي نزل بها القرآن من أن المراد بها الامتزاج، بل ترد ويراد بها هذا، وترد ويراد بها هذا[1].

---

(١) قلت: بحسب الإطلاق والتقييد، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة، أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني، دلت على المقارنة في ذلك المعنى فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا، =

وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان.

(**وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة**) فإنهم مجمعون على أن الله فوق عرشه، بائن من خلقه، فلو قلتَ: المعية لها معنيان؟، قلتُ لك، لكن يدل على أن المراد الأول إجماع المسلمين. ولما سئل ابن المبارك بماذا نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه».

(**وخلاف ما فطر الله عليه الخلق**) عربهم وعجمهم، صامتهم وناطقهم، فإنهم مطبقون على معرفة خالقهم ومزيل الضرّ عنهم، فوق السموات على العرش، فإنهم إذا حزب أحدهم حازب، رفع رأسه إلى السماء، حتى البهائم العُجْم إذا حزبها حازب رفعت رؤوسها إلى السماء.

(أمثلة على أن المعية لا تقتضي الامتزاج)

(**بل القمر آية من**) جملة (**آيات الله**) المشاهدة في الدنيا، (**من أصغر مخلوقاته**) بالنسبة إلى السموات، (**وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان**)، ويصح أن يكون مع المسافر وغير المسافر وهو في موضعه، فمعية القمر مع الماشي وغيره تخصه وهو في فلكه، فكيف برب العالمين؟ يقول السفار:

= ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة» مجموع الفتاوى ٥/١٠٣.

وهو سبحانه فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم، إِلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

«سافرنا ومعنا القمر» وهو ليس مختلطاً بهم، بل في فلكه. والعرب تقول: «ما زلنا نسير والقمر معنا» ولا يريدون أنه حال فيهم ممازج، وإذا كانت معية القمر تطلقها العرب ولا يريدون ما تقدم، فلأن لا تفيد النصوص ذلك في حق الله بطريق الأولى، فإن الشخص يكون معه القمر وليس فيه القمر وليس معه إلا نوره.

ويقال: «فلان مع فلان» إذا كان يميل إليه وإن كان بينهما مسافة بعيدة.

ويقال: «هذه المرأة مع فلان» وإن كان بينهما مسافة.

«وفلان مع الأمير» كذلك.

فبطريق الأولى ربّ العالمين، فكما أن ذاته لا كذوات المخلوقين، فكذلك صفاته، بل هي معية موافقة مطابقة لائقة به.

فالمراد شيء واحد وهو: أن المعية لا تقتضي امتزاجاً واختلاطاً، فإنه صح في لغة العرب أنه معهم من قولهم: «سرنا والقمر معنا».

(وهو سبحانه فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع) مشرف **(عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته)**.

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش وأنه معنا. حق على حقيقته، لا يحتاج إِلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماء تُقِلُّه أَو تظله، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض،

(الله فوق العرش وهو مع خلقه شيئان متوافقان لا يتنافيان كلاهما حق على حقيقته)

(**وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش وأنه معنا، حق على حقيقته**) كلٌّ حق على حقيقته، هو على العرش حق على حقيقته، وهو معنا حق على حقيقته، فهما شيئان متوافقان لا يتنافيان أبداً، فليس معنى قوله: «حق على حقيقته» كما يتبادر في الذهن من صفات المخلوقين، فبين صفات الله وصفات المخلوقين أعظم تباين يوجد.

(**لا يحتاج إِلى تحريف**) أي: الذي يسميه المحرفون تأويلاً.

(الله يصان عن الظنون الكاذبة فهو الغني بذاته ولا يحتاج إلى شيء من مخلوقاته)

(**ولكن يصان عن الظنون الكاذبة**) والأفهام الفاسدة، فإن بالظنون الكاذبة يكثر الاختلاف.

(**مثل: أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماء تُقِلُّه**): تحمله، وأنها لو سقطت لسقط ـ تعالى الله وتقدس ـ.

(**أو تظله**): تكون له كالظلة ـ تعالى الله وتقدس ـ.

(**وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان؛ فإن الله**) هذه فاء التعليل (**قد وسع كرسيه السموات والأرض**) الكرسي: موضع

وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إِلَّا بإذنه، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾.

القدمين، وجاء في الحديث «ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة»[1] وهو صغير بالنسبة إلى العرش كما في الحديث «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة»[2]، فكيف يظن أن السموات تقله أو تظله؟! بل السموات السبع كلها كالخردلة في يد أحدنا كما في الحديث[3].

فيظهر بهذا أن جميع مخلوقاته مفتقرة محتاجة إليه من العرش إلى الثَّرى، ولولا إقامته لها لاندكَّ بعضها على بعض، فهو تعالى الغني بذاته عن جميع مخلوقاته من عرشه حتى الحضيض، بل كل المخلوقات مفتقرة إليه.

(**وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إِلَّا بإذنه** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾) فلا قامت إلا بأمره وقدرته وإمساكه، فكيف يظن أنه محتاج إليها وهو الغني الكامل بذاته؟!

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٦.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٦، «وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة».

(٣) الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنّة ٢/ ٤٧٦، رقم ١٠٩٠، وابن بطة في الإبانة ٣/ ٣٠٨، رقم ٣٠٨، موقوفاً على ابن عباس «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الله عز وجل، إلا كخردلة في يد أحدكم».

فصل

وقد دخل في ذلك: الإيمان بأنه قريب مجيب، كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»

(فصل)

(إثبات صفة قرب الله الخاص وأنه لا ينافي علوه وفوقيته)

(وقد دخل في ذلك) يعني: في الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، فإن الإيمان بالله يشمل الإيمان بذاته وأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنّة، وأشياء من جملتها **(الإيمان بأنه قريب)** من سائليه، **(مجيب)** لداعيه.

(كما جمع بين ذلك) أي: قربه وإجابته **(في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾)**.

(وقوله ﷺ) ـ لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر ـ: «أيها الناس: اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، **(إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)** وهذا القرب هو القرب الخاص، قربه من عابديه ومن سائليه، يعني سواء كان ذلك الدعاء دعاء عبادة، أو دعاء مسألة، والقرب لم يرد في الكتاب والسنّة إلا لهذين: العابدين والسائلِين، وجاء في الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1].

---

(١) رواه مسلم ١/ ٣٥٠ رقم ٤٨٢.

وما ذكر في الكتاب والسنّة، من قربه ومعيته، لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه.

(**وما ذكر في الكتاب والسنّة، من قربه ومعيته، لا ينافى ما ذكر**) في الكتاب والسنّة (**من علوه وفوقيته**) بل كلٌّ من هذا وهذا، حق على حقيقته، فله سبحانه كمال القرب وكمال المعية، مع كمال العلو والفوقية.

(**فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته**) يعني: ليست نعوته كنعوت الخلق، ولا تصل تقديرات الخلق إلى معرفة كُنْهِ صفاته، والمخلوق هو الذي نعوته ليست كذلك.

(**وهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه**) يعني: وهو مع كمال علوه قريب، ومع كمال قربه عليٌّ، ولا منافاة بين هذا وهذا، فهو سبحانه على كل شيءٍ قدير، فلا يعجزه شيء، ولا يشق عليه شيء، بل السموات في يده كالخردلة في يد أحدنا.

فصل

ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود،

(فصـل)

(كلام الله منزل غير مخلوق، سَمِعه جبريل من رب العالمين)

(ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن) الموجود الذي في المصاحف **(كلام الله منزل)** من الله، يعني: أن الله نزله بواسطة جبريل، وجبريل سمعه من رب العالمين، وسمعه محمد ﷺ من جبريل، وبلَّغه العالمين، هذا هو طريق ورثة سيد المرسلين ـ بخلاف ورثة فرعون اللعين ـ نزل به الروح الأمين، بلسان عربي مبين، ولا منافاة بين هذا، وبين كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ.

(غير مخلوق) والقول بأنه مضاف إلى الله إضافة خلق، هو قول الجهمية والمعتزلة، قالوا: إنه مخلوق يخلقه في بعض الأجسام، إما في الشجرة أو على لسان القاريء، فمن ذلك الجسم بدأ لا من الله، ولا يقوم بالله عندهم كلام ولا إرادة.

(منه بدأ) قولاً، ولهذا في الآيات ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

(وإليه يعود) في آخر الزمان، كما جاء في الأحاديث أنهم إذا نسوا الآية أو الشيء، أنهم يرجعون إلى المصاحف، فلا يجدون شيئاً، ثم يرفع ـ بعد تعطله وترك العمل به في آخر الزمن ـ إلى من

وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمَّد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله، أَو عبارة عنه،

تكلم به، من الصدور ومن المصاحف، يرفع من صدور من يقرؤه، وإذا نُظر في المصاحف فإذا هم لا يجدونه فيها.

(**وأن الله تكلم به حقيقة**) لا مجازاً.

(القرآن كلام الله حقيقة)

(**وأن هذا القرآن**) الذي هو المكتوب (**الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة**) هو كلام رب العالمين (**لا كلام غيره**)، وعبارة أهل السنّة: أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وأن هذا القرآن كلام الله.

(**ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله**) كما أطلقته الكلابية، يعني: أنه يشبهه وإلا ليس كلام الله.

وبعضٌ تحاشى كلمة حكاية وقال: هو (**عبارة عنه**) أي: عن كلام الله وإلا ليس كلام الله كما أطلقته الأشاعرة.

وهذا كله بناءً على القول بالكلام النفسي وأنه شيء واحد، لا فرق بين أمره ونهيه، وخبره واستفهامه، وتوراته وإنجيله، وهم الذين ألّف المصنف في الرد عليهم «التسعينية»، وهذا القول أشر من قول الجهمية، وقد أضحكوا الأمم وخرجوا به عن المعقول، والأشاعرة فرع عن الكلابية في هذه المسألة، والماتريدية قولهم يقارب قول الأشاعرة، إلا أن بين القولين فروق عديدة، بعض المؤلفين صرح بكثير منها.

بل إذا قرأه الناس، أَو كتبوه في المصاحف، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إِلى من قاله مبتدئاً، لا إِلى من قاله مبلغاً مؤدياً.

(**بل إذا قرأه الناس**)، أو حفظوه في صدورهم، (**أو كتبوه في المصاحف، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة**)، فالصوت صوت القاريء، والمداد والورق مخلوق. وأما هذا المحفوظ فهو كلام الله، هذا المسموع هو كلام الله، هذا المرسوم هو كلام الله، هذا المتلو هو كلام الله تعالى.

فله أربع مراتب: الوجود الذهني وهو حفظه في الصدور، والوجود العيني، والوجود النطقي، والوجود السمعي، فما في الصدور منه هو كلام الله، وهذا الذي تراه في المصاحف هو كلام الله، والذي تتلفظ به هو كلام الله، والذي تسمعه هو كلام الله.

والمراد أنه بكل مراتبه ووجوهه لا يخرج عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، سواء وجوده في المصحف، أو التلاوة، أو غير ذلك، فهو كلام الله موجود في المصاحف، محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان، متلو باللسان، والورق والمداد مخلوق، والصوت صوت القاريء، والكلام كلام الباري.

(**فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً**) عن غيره، فالذي يقوله الأول ينسب إليه، وقد جاء في القرآن إضافة القرآن إلى الله كقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾. والكلام في لغة العرب إذا أضيف فالمراد إلى من قاله مبتدئاً، فإنك

وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروفَ دون المعاني، ولا المعانيَ دون الحروف.

إذا قلت: قال الشافعي، فالمراد أنه أول من قال هذا القول، وأما قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فهذا جاء في موضعين فالمراد التبليغ.

فإن قيل: أضافه إلى الرسول؟ قيل: نعم، فيه أن الرسول في آيةٍ: جبريل، وآيةٍ أنه: محمد ﷺ، فيدل على أنه ليس كلامه إنما بلَّغه عن غيره، فإضافته إلى مبلِّغه إضافة تبليغ، لا إضافة قول وابتداء لأحدهما دون الآخر.

(وهو كلام الله حروفه ومعانيه) جميعاً.

(ليس كلامُ الله الحروفَ) فقط **(دون المعاني)** كما يقول طوائف من أهل الكلام والحديث: أنه حروف وأصوات قديمة أزلية لها معانٍ تقوم بذات المتكلم[1].

(ولا المعاني) فقط **(دون الحروف)** كما تقوله الكلابية والأشاعرة، بل هو كلام الله ـ مجموع الأمرين ـ حروفه ومعانيه.

---

(١) قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «طوائف من أهل الكلام والحديث من السالمية وغيرهم يقولون: إن كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية، ولها مع ذلك معانٍ تقوم بذات المتكلم، وهؤلاء يوافقون الأشعرية والكلابية، في أن تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم، ليس هو أمراً منفصلاً عن المستمع» مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٢/١٦٦.

فصل

وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله: الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم، كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته،

(فصل)

(الإيمان برؤية المؤمنين لربهم رؤية حقيقية عياناً بأبصارهم، في عرصات القيامة، وفي الجنة، وكيفية رؤيتهم له)

(وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله؛ الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم) رؤية حقيقية **(كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب)** وذلك لظهور الباري لكل أحد.

(وكما يرون القمر) في الدنيا **(ليلة البدر لا يضامون في رؤيته)** كما في الحديث «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»[1].

قوله: «لا تُضَامُون» بضم التاء وتخفيف الميم، أي: لا يلحقكم ضيم ومشقة في ذلك، وفي رواية «لا تَضَامُّون» أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض كنظر الشيء الخفي.

كما أن رؤية القمر ليلة البدر ظاهرة وذلك لظهور البدر لكل أحد، وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية لا تشبيه للمرئي بالمرئي؛ لأن الله تعالى لا مثل له.

---

(١) رواه البخاري ١/٢٠٣، رقم ٥٢٩، ومسلم ١/٤٣٩، رقم ٦٣٣.

يرونه ـ سبحانه ـ وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله.

(يرونه ـ سبحانه ـ وهم في عرصات القيامة) في موقف القيامة.

(ثم يرونه بعد دخول الجنة) فأعلى لذة أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم، فإنه لا لذة أعظم من اللذة بالنظر إليه سبحانه، كما أنه لا لذة لأهل الجنة أعظم من لذة السماع لكلامه، بل ما طاب لأهل النعيم نعيمهم إلا بذلك.

ثم هذه الرؤية للمؤمنين والحجب للكافرين، الرؤية للمؤمنين هي بما كان في قلوبهم من معرفة الله وإجلاله ونظره بالبصائر، وفي الآخرة بالأبصار.

أما أهل البدعة أعمت قلوبهم الشبهات والأوهام والبدع، فكذلك تحجب أبصارهم في الآخرة عن رؤية الله، كما حُجبت بصائرهم في الدنيا، ثم المؤمنون إذا رأوه في الآخرة لا يحيطون به رؤية، لعظمته وجلاله وكبريائه كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، وليس معناه لا تراه بل المراد أنها لا تدركه عما هو عليه، فالإدراك أخص من الرؤية ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

المراد: أن الرؤية الثابتة في الكتاب والسنّة المجمع عليها بين سلف الأمة هي من غير إحاطة، بل لو اجتمعت أبصار العوالم فكانت في بصر شخص واحد لم يدركه تعالى على ما هو عليه جل جلاله.

(كما يشاء الله) وكيف يشاء.

فصل

ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيؤمنون بفتنة القبر، وبعذاب القبر ونعيمه.

(فصل)

(الإيمان بما يكون بعد الموت من الإيمان باليوم الآخر)

(**ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت**).

هذا هو الأصل الخامس من أركان الإيمان الستة، وهو يعم ويشمل الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت، وغير ذلك من أحوال البرزخ وما بعده، فإن هنا ثلاث دور، دار الدنيا، ودار الآخرة، ودارٌ بين الدارين وهي البرزخ والحاجب.

«الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت»، ومنه ما يحصل للميت في القبر، وهو مجمع عليه ويجب الإيمان به، والإيمان به من جملة الإيمان باليوم الآخر.

(الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه)

(**فيؤمنون بفتنة القبر**) الفتنة: الاختبار والامتحان، من قولك: فتنت الذهب، إذا عرضته على النار وعرفت جودته من ردائته.

فيؤمنون أن المقبور يفتن، ويفتن الميت ولو لم يقبر.

(**وبعذاب القبر ونعيمه**). تواترت عن النبي ﷺ الأخبار والأحاديث فيه وثبوته، وهو في الحقيقة روضة من رياض الجنة

....

لأهل الطاعة، أو حفرة من حفر النار لأهل المعصية. روضة لمن كان على الصراط المستقيم في الدنيا، أو حفرة لمن كان على الشك والريب والزيغ عن الصراط المستقيم والقول الثابت في الحياة الدنيا.

ثم العذاب والنعيم في البرزخ للروح والجسد جميعاً؛ لأنهما اللذان تساعدا على الطاعة أو على المعصية، للروح بالأصالة وللجسد بالتبع، بكيفيةٍ الله أعلم بها، فإن الروح قد انفصلت عن الجسد، ولكن لها اتصال به كما يأتي.

فأما الفتنة، فإن الناس يفتنون في قبورهم، فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فـ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمَّد ﷺ نبيي. وأما المرتاب

(فتنة الناس في قبورهم)

(فأما الفتنة، فإن الناس يفتنون) ويختبرون **(في قبورهم)** عن أعمالهم في الدنيا، وإن كان الله سبحانه قد علم ما هو كائن من الخلق قبل أن يخلقهم، فيأتيه ملكان عظيمان هائلان فظيعٌ منظرهما، وغليظةٌ أصواتهما، أحدهما اسمه منكر والآخر اسمه نكير، فهما بمنظرٍ ومسمعٍ وبحالٍ لا يقوى على إجابتهما إلا أهل التثبيت. والسؤال يكون عن مسائل القبر الثلاث، فيثبت بها قوم، ويزاغ بها آخرون.

(فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾) من كان في الدنيا على الثبات والحجة والبرهان.

(فيقول المؤمن) ـ الذي كان على ثقة ويقين ثابت في الدنيا ـ: **(ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي)**؛ لأنه كان عاش على الإيمان بذلك، ولهذا يقال له في الجواب على هذا عشت.. الخ.

(وأما المرتاب) الذي هو على ريب وشك(١) في الدنيا فهو بعكس ذلك عند هذه الفتنة العظيمة، يكون له الريب والشك

---

(١) قلت: في أحد التقريرات قال: «وأما المرتاب الذي على الزيغ والميل، فله الزيغ والميل عند هذه الفتنة». أَثْبتُّ هذا لئلا يكون بينهما فرق في المعنى، وقد يكون الشاك نوعاً، والزائغ نوعاً آخر.

فيقُولُ: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إِلَّا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق.

(**فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته**)، دينه دين المدينة، وهو ما كان عليه أهل مدينته، يعني: فلولا أنه وجدهم عليه ما دان، ليس معه إيمان واصِلٌ إلى قلبه ومصدقته جوارحه.

(**فيضرب بمرزبة**) بمطرقة عظيمة (**من حديد، فيصيح**) المضروب (**صيحة يسمعها كل شيء**) من خلق الله (**إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق**) لسقط مغشياً عليه أو ميتاً من فظيع تلك الصيحة، وفي الحديث: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»[١]. لكن من رحمة الله ولطفه وحكمته في عمارة هذه الدار، أن الإنسان لا يسمع ما لأهل القبور، فلو سمع لما استقام لهم حياة، ولا قر لهم قرار على وجه الأرض.

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢١٩٩، رقم ٢٨٦٧.

ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب، إِلى أن تقوم القيامة الكبرى، فتعاد الأرواح إِلى الأجساد.

(مآل الناس بعد فتنة القبر)

(ثم بعد هذه الفتنة) وهي سؤال الملكين الفتَّانَيْنِ اللذين هما بالمنظر الفظيع، وكذلك انتهارهم المسؤول.

(إما نعيم) وهذا هو نعيم البرزخ لأهل التثبيت.

(وإما عذاب) ـ والعياذ بالله ـ لغير المثبت، فالكافر في جحيم.

والبرزخ: هو الفاصل بين شيئين، فقبر الإنسان هو دار البرزخ بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، والعذاب والنعيم فيه لأهله، للأرواح والأجساد جميعاً، فالأحكام في البرزخ للأرواح، والأجسام تبع لها، وفي الدنيا للأبدان، والأرواح تبع لها، وفي الآخرة لهما جميعاً، واتصال الروح بالجسد له خمس مراتب[١].

(إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إِلى الأجساد) هذا النعيم للمُثَبَّت، والجحيم للكافر، يستمر إلى أن تقوم القيامة الكبرى، فإن القيامة قيامتان، صغرى وهي الموت فإن من مات فقد قامت قيامته، وكبرى.

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام، أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً، الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض، الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه، الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة، الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً» كتاب الروح ص ٤٣.

وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون. فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، وتُنْصَب الموازين فتوزن فيها أعمال العباد.

(القيامة الكبرى)

(وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون. فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين) وهذه هي القيامة الكبرى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(حفاة) لا نعال لهم، وأين النعال يومئذٍ؟

(عراة) وأين الثياب يومئذٍ؟

(غرلاً) غير مختونين، وهذا كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

(وتدنو منهم الشمس) فتكون قرب ميل، ويزاد في حرارتها، وكلهم تَصْلاه الشمس غير السبعة، ويكون كل إنسان في ظل صدقته، وما أثبتت النصوص أنهم يُظلون وإلا فلا ظل.

(ويلجمهم العرق) يبلغ موضع اللجام من الفرس وهو الفم، وذلك لهول ذلك اليوم وكربه.

(نصب الموازين)

(وتُنْصب الموازين) الإيمان بنصب الموازين من الإيمان باليوم الآخر؛ فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل أنواعاً منها هذا، ونصوص الكتاب والسنّة في ذلك معروفة.

(فتوزن فيها أعمال العباد) نفس الحسنات والسيئات، ولا ينافي

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾، **وتنشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره،**

هذا ما جاء في وزن الصحائف والأبدان، فإن خفتها وثقلها إنما هي بالأعمال كما قاله ابن كثير.

(﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾) ولو بحبة واحدة، بأن رجحت حسناته بسيئاته فإنه ناج، (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾) الفائزون.

(﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾) من الموحدين فإنه تحت المشيئة، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عامله بالعدل.

ومن عذبه (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾) خلود مؤبد للكافرين، أما الموحد فلا يخلد في النار.

(نشر الدواوين)

(وتنشر) يعني: تُفَلُّ **(الدواوين)** جمع ديوان وهي الورقة التي قيدت فيها أعمال العبد ـ حسناته وسيئاته التي كتبتها الحفظة ـ كما في الآية ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

(وهي) هنا **(صحائف الأعمال)** صحائف أعمال العباد وأقوالهم الصادرة منهم، المترتب عليها الثواب والعقاب، للنظر والاطلاع على ما فيها لعاملها، فيقرؤها من كان يقرأ في الدنيا ومن لم يكن يقرأ مسطورة.

(فآخذ كتابه بيمينه) وهم أهل السعادة.

(وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره) وهم أهل الشقاوة ـ والعياذ بالله ـ.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

(**كما قال سبحانه وتعالى:** ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾) يعني: ما طار له وما قدّر له ملازمٌ له ملازَمَةً لا انفكاك له منه بحال، فهو لازم في عنقه وهو ما قدّر وكتب له في الأزل.

(﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾) يعني: مفلولاً بمقتضى ذلك، ولا حجة له في ذلك على القدر، فإن الحجة قائمة على العباد (﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾)، وفي الآية الأخرى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾.

وينقسم الناس حينئذٍ إلى قسمين: آخذ كتابه بيمينه، وهم أهل السعادة والنجاة، وآخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره.

فمن أوتي كتابه بيمينه فهو من أصحاب اليمين. ومن أوتي كتابه بشماله فهو من أهل الشقاوة كما في الآيات ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، وكما قال: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾.

والإيمان بنشر الصحائف وأخذ الصحائف بالأيمان أو الشمائل، الإيمان بذلك من جملة الإيمان باليوم الآخر.

ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وصف ذلك في الكتاب والسنَّة، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها.

(الحساب من أعظم أمور الآخرة)

(ويحاسب الله الخلائق) الإيمان بالمحاسبة على الأعمال حسناتها وسيئاتها وعددها من جملة الإيمان باليوم الآخر.

والحساب من أشهر وأهم وأعظم أمور الآخرة، فإن الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان يشمل الإيمان بالمحاسبة.

(خلو الرب بعبده المؤمن)

(ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه) وخطاياه، حتى يقر بها ويعرفها، يقول: فعلت في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا.

(كما وصف ذلك في الكتاب والسنّة) وعلى تفاصيلٍ في الخلوة، فيستر ويغفر لمن يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله.

ومحاسبة المسلمين تتضمن: وزن حسناتهم وسيئاتهم وتوقيفهم على سيئاتهم، فصارت المحاسبة تتضمن: تقريرهم ومجازاتهم.

والمسلمون بِعَرْضَةِ المجازاة عليها، عدلٌ بالنسبة إلى السيئات، والعفو عنه تجاوزاً.

(محاسبة الكفار)

(وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها ويقررون بها) أنهم فعلوها **(ويجزون بها)** فلا يُعذَّبُ أحدٌ إلا مقراً

....

معترفاً بذنبه، حتى تنطق أبعاضهم بذلك من كمال عدله.

هذه المسألة ـ المحاسبة للكفار ـ:

من أهل العلم من قال: ليس لهم حسنات يحاسبون عليها.

ومنهم من قال: يحاسبون كما يحاسب المسلمون.

والإطلاق في الطرفين غلط، لا يصح إطلاق أنهم يحاسبون، ولا يصح إطلاق أنهم لا يحاسبون، فالذي يُثْبِت أنهم يحاسبون ويُطْلِق، يتناول أنهم يحاسبون مثل المسلمين الذين توزن حسناتهم وسيئاتهم واحدةً واحدة، وكذلك إذا قيل إنهم لا يحاسبون، فإن هذا الإطلاق يشمل أنهم لا تعد أعمالهم ولا تحصى.. الخ، وإن لم يقصده القائل.

فالصحيح: قول المصنف المتقدم.

وأما المسلمون فيحاسبون؛ لأن لهم حسنات صحيحة ثابتة، فمن زادت حسناته دخل الجنة، ومن نقصت: إما أن يعفو الربّ ويتجاوز عنه، أو يعذبه على قدر سيئاته.

وفي عرصات القيامة: الحوض المورود للنبي ﷺ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، طوله شهر وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

(وفي عرصات القيامة) العرصات: جمع عرصة، والعرصة المجتمع فيه سعة وانفساح، ومنه عرصة الدار وهو المتسع الذي حواليها الذي يراد للاجتماع فيه، ومنه قول الشاعر:

فلما حَوَتْها عرصةُ الدارِ سلَّمتْ ....[1]

وعرصات القيامة: متسع القيامة وهي المواضع التي يجتمع فيها الخلق، وهي الأرض كلها، تُمد مد الأديم العُكَاظِيّ.

(حوض النبي ﷺ المورود)

(الحوض المورود للنبي ﷺ) والحوض الكوثر لنبينا محمد ﷺ، وجاء في الحديث صفته وآنيته والشرب منه وأهل الشرب.

(ماؤه أشد بياضاً من اللبن).

(و) طعمه **(أحلى)** طعماً **(من العسل)**.

و**(آنيته)** التي عليه **(عدد نجوم السماء)**.

مسافةُ **(طوله شهر، وعرضه شهر)**.

(من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً) يعني يستمر به رِيُّه

---

(١) القائل أحمد بن مشرف وتمام البيت:
فلما حَوَتْها عرصةُ الدارِ سلَّمتْ   سلامَ حبيبٍ زائرٍ ذي تَوددِ
ديوان ابن مشرف ص ٢.

....

أبداً لا يظمأ حتى يدخل الجنة، فإذا دخل الجنة فَرِيٌّ على رِيٍّ، وأحاديث الحوض معلومة كثيرة شهيرة ثابتة عن النبي ﷺ.

فالإيمان بالحوض وصفاته المذكورة من الإيمان باليوم الآخر كما سبق لكم، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت.

والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يَمرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم،

(الإيمان بالصراط ونصبه على متن جهنم)

(والصراط منصوب على متن جهنم) الإيمان بالصراط، والإيمان بنصبه على متن جهنم، من الإيمان باليوم الآخر.

(وهو الجسر الذي بين الجنة والنار) الصراط: هو الطريق، وسمي الصراط طريقاً؛ لأنه يُعبر منه إلى الجنة. يَمر على وسط النار حتى ينتهي إلى الجنة، ولا يُمرُّ إلى الجنة إلا منه، والصراط صراطان: حسي وهو هذا، ومعنوي وهو في الدنيا.

(يَمرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم) والثبات على الحسي حسب الثبات على المعنوي في الدنيا، وجاء في الأحاديث أنه أَدَقُّ من الشعر، وأَحدُّ من السيف، وأَحرُّ من الجمر، وأنه دحض مزلة.

والقوى الحسية لا استطاعة لها على المرور عليه، لا يمر معه إلا بالقوى المعنوية الإيمانية، وهو بحسب الاستقامة على هذا الصراط المعنوي في الدنيا.

والمرور عليه على حسب الأعمال ثباتاً وسقوطاً، وسرعة وإبطاء واستقامة، سواء بسواء، ولهذا قال: «على قدر أعمالهم»، لا على قدر أجسامهم، كما أن الصراط في الدنيا أحظى الناس به أقواهم إيماناً لا أجساماً.

(أقسام الناس في المرور على الصراط)

والناس في سرعة المرور عليه على أقسام، فأهل السير: هم الذين استقاموا على الطريق المعنوي ولم يتثاقلوا عنه.

فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم،

(**فمنهم من يمر**) عليه (**كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف**) حتى إن منهم من إذا عبر خُطف خطفاً (**ويلقى في جهنم**).

(**فإن الجسر**) ـ الصراط ـ (**عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم**) قد حف به كلاليب، هو مثل السير على الصراط المعنوي، وهي شُبَهُ الترددِ والتثاقل والسير بالهوينا، فكما أن الكلاليب في هذا الصراط المعنوي في الدنيا من الشبهات والشهوات تخطفهم، فتلك الكلاليب تخطف الناس على قدر ما تخطفهم الشبهات والشهوات في تلك الأعمال وبسبب الأعمال، فكما خطفتهم في الدنيا خطفتهم في الآخرة، ومن خُطف سقط في جهنم.

فمن مر على الصراط دخل الجنَّة، فإذا عبروا عليه، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

(فمن مر على الصراط دخل الجنة) بكل حال ولا يرد إلى النار أبداً.

والظاهر أن المرور إنما هو لأهل الإسلام، وأن الذي يخطف هو صاحب المعاصي والشبهات والشهوات؛ لأن الكفار لم يدخلوا في هذا الصراط المعنوي في الدنيا.

(الوقوف على القنطرة والحكمة من ذلك)

(فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة) الظاهر أنها جسر يقفون عليه **(بين الجنة والنار)**.

والسر في الوقوف على هذه القنطرة: **(فيُقتص لبعضهم من بعض)** فإنه لا بد من أخذ الحقوق فلا أحد يدخل الجنة أو النار حتى تؤخذ الحقوق التي له، أو التي عليه ويؤديها، فلا يدخلونها من تلك القنطرة حتى يهذبوا وينقوا.

(متى يدخل أهل الجنة الجنة؟)

(فإذا هذبوا ونقوا) من درن الذنوب وأرجاس المعاصي ويصلحون لمجاورة الربّ الكريم في دار الخلد.

(أُذن لهم في دخول الجنة)؛ لأن الجنة دار طيبة في جوار الطيب سبحانه، ولا يدخلها إلا طيب، كما قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فالفاء للسببية فلا يدخلها أحد عنده دَرَنٌ: ذنب أو مظلمة.

وأول من يستفتح باب الجنة محمَّد ﷺ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته.

(أول من يطلب فتح باب الجنة ودخولها نبينا محمد ﷺ)

(وأول من يستفتح باب الجنة) يعني: يطلب فتحها ودخولها نبينا **(محمد ﷺ)**، فلا أحد يطلب ويسأل فتحها ليدخل فيها قبل نبينا محمد ﷺ.

(وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته)، فإنها أول الأمم دخولاً وإن كانت آخرها وجوداً، كما عرف ذلك من الأحاديث الصحاح، كما في قوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»[1]، وذلك لأن الله شرع لهذه الأمة أعمالاً لم تشرع لمن قبلهم تفضلاً عليهم بأن كانوا هم أول الأمم دخولاً الجنة، وليس أنهم أكثر الأمم أعمالاً، ففي هذا فضيلة هذه الأمة كونها آخر الأمم وجوداً وأولها دخولاً الجنة.

---

(١) رواه البخاري ١/ ٢٩٩، رقم ٨٣٦، ومسلم ٢/ ٥٨٥، رقم ٨٥٥.

وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات: أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء ـ آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ـ عن الشفاعة، حتى تنتهي إليه.

(الإيمان بالشفاعات)

(وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات) اشتقاق الشفاعة من الشفع خلاف الوتر، والشفع: الاثنان، سُمي شفعاً؛ لأن طالب الحاجة يكون اثنين بعد أن كان واحداً.

والإيمان بالشفاعات من جملة الإيمان باليوم الآخر.

(شفاعات النبي ﷺ)

وللنبي ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات بالنسبة إلى الشفاعات العمومية، وإلا هناك شفاعات غير ما ذكره المصنف، كشفاعته في عَمِّه لتخفيف العذاب لا إخراجه، فثنتان مختصتان به، وواحدة مشتركة.

(شفاعته الأولى: الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود الذي أوتيه وهي خاصة بالنبي ﷺ)

(أما الشفاعة الأولى: فيشفع) إلى الله **(في أهل الموقف حتى يقضى بينهم)** فيستريحوا من كرب الموقف الذي تقدم من صفته قرب الشمس والعرق.. الخ.

(بعد أن تتراجع الأنبياء ـ آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ـ عن الشفاعة) كلٌّ من هؤلاء يعتذر **(حتى تنتهي إليه)**، فيقول ﷺ: أنا لها، قال ﷺ: فيفتح عليّ من المحامد ما لا أحسنه الآن، قال: فيقال: اسأل تعط، واشفع تشفع.. الخ، وهي التي في الحديث «وأُعطيتُ الشفاعة»[1]، وهذه الشفاعة العظمى، وهي المقام

---

(١) رواه البخاري ١/١٢٨ رقم ٣٢٨، ومسلم ١/ ٣٧٠ رقم ٥٢١.

....

المحمود الذي أوتيه ﷺ، يعني: الذي يحمده الأولون والآخرون، يعني: الذي يُغبط به، الذي فيه فضل ومرتبة عليا، فإن هذا المقام ليس لأحد سواه، بل هو مختص به ﷺ.

وقيل: إنه إجلاسه معه على العرش، جاء في الحديث أنه يقعد مع الله تعالى على العرش كما ثبتت به السنّة[1]، ويكون هذا أيضاً من المقام المحمود.

والظاهر أنه لا منافاة بين القولين، فيتقدم فيشفع بإذن الربّ ـ جل وعلا ـ في أهل الموقف ليحاسبوا، فإن الربّ تعالى لا يأتي الخلق في الفصل إلا بعد شفاعته ﷺ. فإن أهل الموقف إذا اشتد بهم الكرب العظيم ينظرون ويتراجعون من هو الذي يشفع لنا عند ربنا ليفرج عنا من كرب هذا الموقف فيذكرون أباهم آدم.. الخ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٣٠٥ رقم ٣١٦٥٢، وابن أبي عاصم في السنَّة ١/ ٣٠٥ رقم ٣٦٥، وابن جرير في تفسيره ٨/ ١٣٢ موقوفاً على مجاهد.
قال ابن جرير في تفسيره ٨/ ١٣٤: «ما قاله مجاهد من أن الله يُقْعِد محمداً على عرشه، قولٌ غير مدفوعٍ صحتُه، لا من جهة خبر ولا نظر».
وقال شيخ الإسلام: «حدَّث العلماء المرضيون، وأولياؤه المقربون، أن محمداً رسول الله يجلسه ربه على العرش معه، رَوى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد في تفسير ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، وذُكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة، وغير مرفوعة، قال ابن جرير: ـ وهذا ليس مناقضاً لما استفاضت به الأحاديث من أن المقام المحمود هو الشفاعة، باتفاق الأئمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعيه لا يقول إن إجلاسه على العرش منكراً ـ، وإنما أنكره بعض الجهمية، ولا ذِكرُه في تفسير الآية مُنَكَرٌ». مجموع الفتاوى ٤/ ٣٧٤.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنَّة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له ﷺ.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم،

(شفاعته الثانية: في أهل الجنة الذين استوجبوها أن يدخلوها وهي خاصة به ﷺ)

(وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة)، فإن أهل الجنة الذين استوجبوها بسبب الأعمال الصالحة لا يدخلونها إلا بعد استفتاحها فيشفع لهم **(أن يدخلوا الجنة)**، وكذلك أهل الجنة من سائر الأمم.

(وهاتان الشفاعتان) الأولى: الشفاعة في محاسبة الخلائق، وهذه الثانية في الذين استحقوا دخول الجنة بفضل الله ورحمته وتوفيقه لهم للأعمال الصالحة في حياتهم وموتهم على الإيمان، **(خاصتان له ﷺ)**.

(شفاعته الثالثة: فيمن استحق النار من عصاة الموحدين أن لا يدخلها، ومن دخلها أن يخرج منها، وهي ليست خاصة بالنبي ﷺ)

(وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار) من عصاة الموحدين خاصة.

(وهذه الشفاعة) هو فيها سيد الشفعاء وأكملهم فيها، وليست مختصة، بل هي **(له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم)**، فيشفع الأنبياء والرسل والأولياء والملائكة والأَفْراط وغيرهم ممن أذن الله لهم أن يشفعوا كما جاء في النصوص، وهذه هي التي ينكرها المعتزلة.

وأما أهل السنّة فإن قولهم فيها هو ما دل عليه الكتاب والسنّة، وهو أن أحكامهم في الدنيا حكم المسلمين إن قام عليهم حَدٌّ أقيم

فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها.

عليهم، وفي الآخرة مُعرَّضون للوعيد ومَخُوْفٌ عليهم، ومع ذلك يؤمنون بالأخبار المتواترة عن النبي ﷺ في الآخرة من الشفاعة للعصاة.

(فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها) منهم **(أن يخرج منها)** قبل أن يُطهَّروا من أوضار[1] الذنوب، فإذا طُهِّروا أُخرجوا، إذا كانوا ماتوا على التوحيد، كما بُيِّنَ في الأحاديث أن من مات على التوحيد غير مشرك فالشفاعة تتناوله، قال ﷺ: «وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً»[2].

---

(١) الأوضار: الأوساخ. لسان العرب مادة وضر.

(٢) رواه مسلم ١/ ١٨٩ رقم ١٩٩.

ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته، ويبقى في الجنة فضلٌ عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشيء الله لها أقواماً فيدخلهم الجنَّة.

(إخراج بعض عصاة الموحدين من النار بفضل الله ورحمته من غير شفاعة)

(ويخرج الله من النار أقواماً) ممن استحق النار من الموحدين **(بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته)** بمحضِ فضلٍ من الله ورحمته، كما جاءت بذلك النصوص الثابتة عن النبي ﷺ، وذلك لسبق الرحمة الغضب كما في الحديث «إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

(ينشيء الله أقواماً لم يعملوا خيراً قط فيدخلهم الجنة ليملأها)

(ويبقى في الجنة فضلٌ عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشيء الله لها أقواماً) لم يعملوا خيراً قط، لأنها وُعِدَت ملئها، **(فيدخلهم الجنَّة)** بفضله ورحمته، كما أن الأولين يدخلون الجنة بفضله ورحمته، أبلغ من أن يعفى عن أناس؛ لأن الجنة وعدت ملئها وليس فيها تضايق كالنار.

(الحكمة من أن الله ينشيء للجنة أقواماً يدخلونها، وأن النار بخلاف ذلك)

والفرق بين هذه وهذه، مِنْ سَبْقِ الرحمة للغضب من إدخال قوم الجنة بغير شفاعة، وأن النار لا تُدخل إلا بذنوب فتمتليء كما في الحديث:

وهذا لِمَا سَبَق، مِن سَبْقِ الرحمة الغضب، فإن جانب الفضل والرحمة، أغلب من جانب العدل والغضب، وأما النار فلا تمتليء بل لا تزال تطلب الزيادة حتى يكمل أهلها فيها، ولا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله، فينزوي بعضها إلى بعض

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٢٧٠٠، رقم ٦٩٨٦.

....

فيصيرون ملئها بضيق، فتقول: قط قط، ولا ينشيء الله لها كما أنشأ للجنة.

ولنعرف أنه جاء في حديث أبي هريرة انقلاب على بعض الرواة «أنه ينشيء للنار من يشاء فيُلقون فيها» وهذا انقلاب بل صواب الحديث وصحيحه الثابت: «أن الله ينشيء للجنة خلقاً فيسكنهم فضل الجنة».

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة، من الحساب، والثواب والعقاب، والجنَّة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء، والآثارِ من العلم المأثور عن الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمَّد ﷺ، من ذلك ما يشفي ويكفي، فمن ابتغاه وجده.

(تضمن الكتاب والسنّة تفاصيل اليوم الآخر)

(**وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة**)، وما أُعدّ فيها (**من الحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وتفاصيل ذلك**) كلها معلومة (**مذكورة في الكتب المنزلة من السماء، و**) في (**الآثار من العلم المأثور عن الأنبياء**).

(**وفي العلم الموروث عن**) النبي (**محمد ﷺ، من ذلك ما يشفي ويكفي**) مما تضمنه الكتاب والسنّة، بل في القرآن والسنّة أعظم وأكثر مما سواهما من الكتب. بل ما جاء عن النبي ﷺ أشمل مما جاء في الكتب السابقة وأخبار الماضين.

(**فمن ابتغاه**) فمن تطلَّبه وتتبعه في مظانه فيها (**وجده**) مبيناً موضحاً في كتب التفاسير والسنن والصحاح وغيرها من كتب الحديث، فإن في ذلك من التفاصيل شيء كثير.

وكأن المصنف رأى أنه أَقلَّ في المقام، ولكن المقام لا يتحمل وينبغي أن يُتطلَّب، فأحال بقوله: «وتفاصيل ذلك...» الخ.

وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنّة والجماعة بالقدر خيره وشره.

(الإيمان بالقدر)

(وتؤمن الفرقة الناجية) ـ من النار، والناجية من بين الفرق **(أهلُ السنّة والجماعة ـ بالقدر)** وهذا آخر أصول الإيمان الستة المتقدم ذكرها في أول هذه العقيدة المختصرة، وتقدم لك ما يتعلق بالخمسة الأول، وهذا الفصل مما يتعلق بالسادس وهو القدر، والمصنف ـ رحمه الله ـ ذكر الأصول الستة، وما بعد ذلك شرح، منه ما هو ببسط ومنها دون ذلك، فالذي تكلم فيه ووقع فيه النزاع وكثر بين أهل السنّة والمبتدعين أطال فيها، والتي لم يتنازع فيها ذكر منها كالإشارة.

ولم يقل: «فصل ومن أصول أهل السنّة، الإيمان بقدرة الله، والإيمان بكتب الله، والإيمان برسل الله»، وذلك لأن المبتدعة لم يكن لهم كلام فيه ولا نزاع، إنما ذكر الذي فيه النزاع «القدر» مسألة الإيمان به، فإن القدرية النفاة والمجبرة، انحرفوا عن الصراط المستقيم فاحتيج لبعض التطويل في ذلك.

والقدر: من التقدير وهو التهيئة.

(خيره وشره) كما جاء في بعض ألفاظِ الحديث. قدر مقادير الخلائق بما يلائم الخلق من أمور دينهم ودنياهم، جميع ما كان في الأديان والأبدان، والخير والشر، والصحة والمرض، ونحو ذلك، فهو بقضاء الله وقدره. فما من خير في الأديان والأبدان فهو بقضاء الله وقدره، وما من شر في الأديان والأبدان فهو بقضاء الله وقدره.

والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي، والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق،

(الإيمان بالقدر على درجتين، وكل درجة تتضمن شيئين)

(**والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة**) واحدة منهما (**تتضمن شيئين**)، فمن آمن بها كلها حقيقة فقد آمن بالقدر، ومن كفر بها أو ببعضها فقد كفر بالقدر.

(الدرجة الأولى: العلم، والشيء الأول منه علم الله السابق للأشياء علماً تفصيلياً)

(**فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون**) من خير وشر، وجارين عليه من خير أو شر.

عَلِمَه (**بعِلْمِه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي، والأرزاق**) سعتها وضيقها، (**والآجال**) طول الأعمار وقصرها، والأجسام صحتها وسقمها، وكذا وكذا إلى ما لا يحصى، والآثار، وجميع تفاصيل ما هو صائر منهم عَلِمه بعلْمِه القديم. فعَلِم تفاصيل ما هو صادر منهم وما هو جار منهم، وما هم صائرون إليه.

وهذا الشيء الأول من هذه الدرجة الأولى: الإيمان بعلم الله الأشياء، أنه علمها في الأزل علماً تفصيلياً.

(الشيء الثاني من الدرجة الأولى: الإيمان بالكتابة)

(**ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق**)، والشيء الثاني من الدرجة الأولى: الإيمان بالكتابة، أنه كتب ما هو عالم،

فأول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فما أصاب الإِنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ

ورسم أن الخلق عاملوه، ويأتي الشيئان، فتجتمع حقيقة الإيمان بالقدر في هذه الأربعة.

فصار الإيمان بالقدر في الحقيقة ينتظم الإيمان بأربعة أشياء.

(فأول ما خلق الله القلم) بالنسبة إلى هذا الكون المشاهد، وإلا فالعرش موجود مخلوق قبله كما في الأحاديث.

(قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة) هذا من جملة الأحاديث المثبتة للقدر.

(نتيجة الإيمان بالقدر)

(فما أصاب الإنسان) مما علم الله وكتبه **(لم يكن ليخطئه)** ولو اجتمع أهل السموات والأرض، **(وما أخطأه لم يكن ليصيبه)** هذا نتيجة وحقيقة الإيمان بالقدر.

(جفت الأقلام) التي كتبت بها المقادير.

(وطُويت الصحف) على ما كتب فيها، فلا تغيير ولا تبديل **(كما قال تعالى:** ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾**)** هذا هو الكتاب الأول، يعني: أن ما علمه كائناً من العباد، كتبه في الكتاب الذي فيه المقادير، فأول الآية فيه إثبات العلم السابق، وآخرها فيه إثبات الكتابة السابقة.

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، **وقـــــال:** ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ **وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع، جملة وتفصيلاً، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء،**

ثم قال: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾).

(**وقـــال:** ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾) قبل أن نبرأ الأرض، وقيل: الأنفس، وقيل: المصيبة، والحقيقة: أنه يعود إليها كلها[1]، (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾).

فهذان شيئان تتضمنهما هذه الدرجة.

(أنواع الكتابة)

(**وهذا التقدير**) أي: قَدَر الكتابة التي هي الثاني من أنواع القدر (**التابع لعلمه سبحانه**)، فإن الكتابة تابعة لعلمه سبحانه، (**يكون في مواضع**):

(**جملةً**): يعني: أنه أقسام وأنواع، بعضها جملة، وبعضها تفصيل لبعض.

(**وتفصيلاً**): منها ما هو كتابته جملة، ومنها ما كتابته تفصيلاً، ولكن ما بعد الجملة يكون تابعاً للجملة.

(الكتاب الأول: الجملة)

(**فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء**) وهذا الكتاب الأول،

---

(١) (عبارة أخرى) «والصحيح: أنه عام في كل شيء».

وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ونحو ذلك، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً،

ليس فيه تغيير أبداً، ألا ترى أنه قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا هو الجملة، ومن هذه الجملة تفاصيل، منها عند تخليق الجنين.

(الكتاب الثاني: التفصيل)

(وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد)، وجاء أنه يقال لمَلَكِ الأرحام: ارجع فانظر إلى قصة هذه النطفة.

(ونحو ذلك) هذا نوع من أنواع التفصيل من الجملة الأولى، وهو راجع إليها.

ومنه ما يكون في ليلة القدر، وكذلك الذي في خبر ابن عباس ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة.. الخ[1]، فهذا كله تفصيل من القدر.

(فهذا القدر) يعني: الكتابة **(قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً)**، يعني: الذين خرجوا في زمن الصحابة كمعبد الجهني،

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن مما خلق الله لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة، ففي كل مرة منها يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾» رواه الحاكم في المستدرك ٢/٥١٦، رقم ٣٧٧١، والطبراني في الكبير ١٠/ ٢٦٠، رقم ١٠٦٠٥.

....

(الرد على من أنكر ذلك)

وعمرو بن عبيد وأتباعهما يقولون: لا قدر، يعني: أن الأمر أُنُف ـ مستأنف ـ.

وقال الإمام الشافعي: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصِمُوا، وإن جحدوه كفروا».

يعني: أن كفرهم من هذه الناحية أشهر، فإنهم إن جحدوا العلم فقد جحدوا سابق علم الله.

ويقول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «القدر: قدرة الله»، واستحسنه ابن عقيل.

ومراده أن هذه جملة هامة عظيمة في هذا الباب، وفي ضمنها بطلان ما سلكوه من إنكار أن الله على كل شيءٍ قدير.

ومراد أحمد ـ رحمة الله عليه ـ، يعني: من آمن بالقدرة فإنها حجة على القدر، ومن أنكر قدرة الله على الأشياء فقد أنكر قدر الله، يعني: فمن أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله، يعني: وأي شيء يستنكر مِنْ كَتْبِ الله تعالى إذا كان قد علمه فما المانع من الكتابة؟!.

وحديث: «إن الأمر أنف»[1]، يعني: يستأنف الله ما يقضيه إذا

---

(١) عن يحيى بن يعمر قال: خرجت أنا وحميد بن عبد الرحمٰن الحميري حاجِّين، أو معتمرين، وقلنا: لعلنا لقينا رجلاً من أصحاب محمد ﷺ فنسأله عن القدر، فلقينا ابن عمر رضي الله عنهما، فظننت أنه يكل الكلام إليَّ، فقلنا: يا أبا عبد الرحمٰن قد ظهر عندنا أناس يقرؤون القرآن، يتقفرون العلم تقفراً، يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: «فإن لقيتهم فأعلمهم أني منهم بريء، وهم مني براء، والذي يحلف به ابن عمر، لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ثم لم يؤمن بالقدر لم يقبل منه» رواه ابن حبان ١/ ٣٨٩، رقم ١٦٨.

ومنكروه اليوم قليل.

أراده، يعني: يجد له قدراً، يعني: وأن لا قدر سابق.

«يتقفرون العلم»: يعني: يخوضون فيما لم يسبقهم إليه أحد، وفي رواية: «يفقرون» يعني: يتكلفون، لكونهم بحثوا فيما لم يتعبد الخلق العلم بها، بل تعبدوا بالسكوت عنها.

(ومنكروه اليوم قليل) في زمن الشيخ ومن يليه. فالذين في زمن المصنف نفاة لا ينكرون هذا، بل ينكرون غيره من أنواع القدر، أو المجبرة وهم أكثر من النافية.

وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون، إِلَّا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات

(الدرجة الثانية)

(وأما الدرجة الثانية) تقدم أن الإيمان بالقدر على درجتين، وتقدمت الدرجة الأولى، وأنها تتضمن شيئين، وأن أحدهما: أن الله عَلِم.. الخ، والثاني: أنه كتب ما علمه في اللوح المحفوظ.. الخ. وهذه الدرجة الثانية، وهي تتضمن شيئين: الأول: الإيمان بالإرادة والمشيئة، والثاني: الإيمان بخلق الله الكائنات بقدرته سبحانه وتعالى.

(الشيء الأول من الدرجة الثانية: الإيمان بالإرادة والمشيئة)

(فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، و) حقيقة ذلك وإيضاحه: **(هو الإيمان بأن ما شاء الله كان)**، ولا يريد شيئاً إلا يكون بكل حال، **(وما لم يشأ لم يكن)** وهذه كلمة المسلمين ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومقتضى أن ما شاء الله كان، أن ما لم يشأ لا يكون.

(وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون، إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد) فما من شيء واقع إلا وقد شاءه الله ولا بد، وما لم يشأ فلا يكون أبداً، ولا يكون شيء طاعة أو معصية إلا الله شاءه.

(وأنه سبحانه على كل شيءٍ قدير من الموجودات

والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إِلَّا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره ولا ربّ سواه.

والمعدومات) التي لم تفعل والممكن وجوده. أما المستحيلات فليست شيئاً حتى تشمل بالعلم والقدرة.

(الشيء الثاني من الدرجة الثانية: الإيمان بخلق الله الكائنات بقدرته)

(فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه) وموجده، هذا من مضمون ما شاء الله كان.

(لا خالق غيره ولا ربّ سواه) فشاء ما في الكون وأوجده بقدرته ومشيئته، فصار ما في الكون بهذين الشيئين.

فصار الإيمان بالقدر ينتظم أربعة أشياء:

الأول: الإيمان بعلم الله القديم.

الثاني: الإيمان بأن ما علمه كتبه في السابق.

الثالث: الإيمان بأن ما شاء الله كان.

الرابع: الإيمان بأن ما من موجود إلا الله موجده[١].

فما من موجود من الموجودات إلا وهو مشمول بهذه الأربعة: الإيمان بعلمه تعالى السابق، والإيمان بأن الله كتب في الأزل ما عَلِمه كائناً، والإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، والإيمان بأنه ما من موجود إلا وهو موجده.

---

(١) (عبارة أخرى): «الرابع: أن الله كوَّن ما في الوجود، أجزاءه وأفعاله وصفاته».

ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

(القدر لا ينافي الشرع)

(ومع ذلك) يعني: ما تقرر لك من الأصل العظيم ـ وهو الإيمان بالقدر، وأنه أحد أركان الإيمان الستة، وما اشتملت عليه الأشياء الأربعة السابقة ـ يأتي بعد ذلك عدم منافاة القدر للشرع، وأنهما أخوان مصطحبان لا ينافي أحدهما الآخر، وأنه ما ضاق به صدرٌ إلا المبتدعة، نظروا بعين واحدة وأغضوا عيناً، أخذوا جانباً من النصوص وتركوا جانباً، وهدى الله أهل السنّة والجماعة فنظروا بالعينين جميعاً وآمنوا بالشرع والقدر جميعاً.

(فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته) ومعصية رسله، فوجب الإيمان بشرعه وقدره جميعاً، بأن يؤمن أن هذا شرعه ويمتثله ويفعله، فإذا امتثل صار من أهل السعادة، والقدر لا حجة فيه، وهو تام وماضٍ، ولا راد له، وسبق أن لا يكون الخلق على طريق واحد؛ بل أن يكون الخلق متفاوتين كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كجنة ونار لتسكنا، وهو اللائق بجلاله، وسواه ليس بكمال.

(الطوائف في القدر والشرع)

ولا منافاة بين الشرع والقدر، فإنها ضاقت أعطان القدرية ولم تتسع للشرع والقدر جميعاً.

فالقدرية النفاة من المعتزلة وغيرهم أثبتوا الحكمة والشرع وغلوا فيهما، ونفوا القدر أو بعضه، وقالوا: إن الأمر والنهي بيد الإنسان، فإنها زعمت أنها إذا أثبتت القدر صارت معطلة للشرع.

وقابلها طائفة القدرية الجبرية، فغلبت جانب القدر وغلت فيه،

وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

وعطلت جانب الشرع، وقالوا: إن العبد مجبور لا فعل له، وإنما هو كالأشجار في مهب الريح.. الخ.

وأهل السنّة قالوا: له فعل صحيح، واختيار صحيح، ويحمد على فعل الخير، ويذم ويعاقب على فعل الشر.

فهدى الله أهل الحق أهل السنّة والجماعة فآمنوا بالشرع والقدر وقالوا: ما في الكون كله خلق لله، فالأفعال فعل للمخلوق، خلقٌ للربّ، فأفعالهم نسبتها إلى الله نسبة خلق وإيجاد، ونسبتها إلى العبد نسبة فعل.

فالشرع والقدر متلازمان ولا حجة في القدر على الشرع، بل قد ركز الله في عقول العباد معرفة النافع من الضار، وأحدهم يعرف الضار ويجتنبه، والنافع فيأتيه.

(يريد سبحانه أشياء يحبها وأشياء لا يحبها)

(وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد)، ففرقٌ بين المحبة والإرادة لا كما زعمه المبتدعة الذين يقولون: ما شاءه فقد أحبه[١]، بل يريد سبحانه وتعالى أشياء

---

(١) قلت: القدرية النفاة يقولون: لا معنى لمشيئته إلا أمره، فما شاءه فقد أمر به، وما =

....

لا يحبها، وقد أراد كُفْر إبليس وكُفْر الكفار، ومع ذلك لا يحبه لكونه ظلماً وفساداً، فهو سبحانه لا يحب الكافرين، ومع ذلك أفعالهم بقدرته وقضائه، يحبه قدراً ولا يحبه شرعاً، فإنه يحب ذلك ولا يحب المفعول، يحب القضاء والقدر في أهل الشقاء، وما يترتب عليه مبغوض له، فعلمه وقضاؤه كله جميل، والله يحب كل جميل.

= لم يشأه لم يأمر به، والجبرية قالوا: إن مشيئته وإرادته بمعنىٰ واحد، وقد شاء ما وقع من المعاصي فهو يحبها ويرضاها.
مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ٣٤٠.

والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة،

(العباد لهم أفعال حقيقية والله خالقها)

(والعباد فاعلون حقيقة) إذا عرف ما تقدم من القدر والإيمان به، وعرف أن الله أمر بطاعته وطاعة رسله، وأنه لا تعارض بين القدر والشرع، وأن أهل السنّة آمنوا بهما جميعاً، فاعلم أن العباد لهم أفعال حقيقية تقول: صلَّى زيد، زنى زيد. خلافاً للأشاعرة، فإن عندهم القول بالكسب[١].

(والله خالق أفعالهم) نعم هي منه خلق وإيجاد. ففرق بين الخلق والفعل.

فأفعال العباد لها نسبتان: نسبة فعل وعمل، ونسبة خلق وإيجاد، فنسبة الخلق لله ونسبة الفعل إليهم.

(والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم) وإن كان مدبَّراً بل هو حقيقة إذا صلى فهو المصلي، وإذا قتل فهل القاتلُ غير مَنْ فَعَل القتل؟! فالفعل إنما يضاف إلى من باشره، كما تقول: قام زيد، كَفَر زيد، قعد زيد، هذا هو المعروف في لغة العرب التي نزل بها القرآن، فما صدر من المخلوق فهو فعل له، ليس فعلاً لربّ العالمين.

(وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة)، لهم تصور واختيار وفعل.

---

(١) وهم مضطربون في تعريف الكسب، فقال بعضهم: «هو تعلق القدرة الحادثة في المقدور في محلها من غير تأثير»، ولهم فيه تعاريف أخرى وكلها لا حقيقة لها، وحقيقة قولهم: قول جهم أن العبد لا قدرة له ولا فعل ولا كسب. انظر النبوات ٤٦٢، شفاء العليل ص ٤٩.

والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وهذه الدرجة من القدر، يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة،

(**والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم**) كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فهي لربّ العالمين خلق وإيجاد وتكوين، وللمخلوق فعل وتصور، فهي قضاء الله وقدره، وهي للعبد فعل، فجانب الخلق إلى الله، وجانب الفعل إلى من صدر منه وباشره. كما تقدم وكما يأتي.

ومما يدل على ذلك (**قوله تعالى**: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾) دل على أن للعبد مشيئة حقيقية، ودل على أن له استقامة، ودل على أن العبد لا يملكها استقلالاً، فوجود وتصور المشيئة من العبد لا يكون إلا بمشيئة الله. فإرادته تابعة لإرادة الله، ومشيئته تابعة لمشيئة الله.

(القدرية النفاة من المعتزلة وغيرهم، يخرجون أفعال العباد عن أن تكون مخلوقة لله، وزعموا أن العبد يخلق فعل نفسه)

(**وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية**) أي: النفاة من المعتزلة وغيرهم (**الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة**)، وإنما سموا مجوس هذه الأمة، لمضارعة مذهبهم لمذهب المجوس، لإخراج المجوس بعض مخلوقات الله عن الله، فإن المجوس هم القائلون بالأصلين، النور والظلمة، وأن النور خلق الخير، وأن الظلمة خلقت الشر، فهؤلاء ضارعوهم، أخرجوا أفعال

ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه، حِكَمَها ومصالِحَها.

العباد عن أن تكون مخلوقة لله، ورأوا أن العبد هو الذي يفعل الطاعات والمعاصي ويخلقها، والذي ألجأهم ـ زعماً منهم ـ لإثبات الشرع، غلوٌّ منهم في أفعال العباد. قالوا: لو كانت خلقاً لله لكان ذلك للعبد ظلماً، ويريدون الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ باء العوض، وهؤلاء مشبهة الأفعال، وضعوا أوضاعاً جعلوا الخالق فيها مثل المخلوق، والباء للسبب كما في الحديث: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله» الحديث[1].

(الجبرية يسلبون العبد قدرته واختياره)

(ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات) وهم الجبرية، ويقولون: إن العبد لا فعل له أصلاً، أثبتوا هذه الدرجة من القدر وغلوا فيها.

(حتى سلبوا العبد قدرته واختياره) قالوا: لا قدرة له ولا اختيار، فهذا مسلك الجبرية ومنهم الجهمية ومِنْ مَسْلك المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري، وإن كان قد رجع عما كان قد قال به أوّلاً، والمنتسبون ليسوا على ما كان عليه، فإنه صرح أنه على مذهب أهل السنّة.

(ويُخْرجون عن أفعال الله وأحكامِه حِكَمَها ومصالِحَها) فينفون الحكمة.

---

(١) رواه أحمد ٢/٢٥٦، رقم ٧٤٧٣: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل».

....

والخلاصة: أن القدرية النافية أثبتوا الفعل للعبد ولم يثبتوا أنها خلق لله، وقابلهم المجبرة في ذلك، فالكل منهم رد النصوص من الكتاب والسنّة.

(أهل السنّة آمنوا بالشرع والقدر جميعاً)

وهدى الله أهل السنّة، فآمنوا بالشرع والقدر جميعاً، ووفَّقوا بين النصوص.

فصل

ومن أصول أهل السنّة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب

(فصـل)

(معتقد أهل السنّة والجماعة في حد الإيمان أنه قول واعتقاد وعمل يزيد وينقص)

(ومن أصول أهل السنّة والجماعة: أن الدين والإيمان) الدين هو الإيمان، من عطف الصفة على الصفة، وفي ذلك مزية وهو أنه يسمى الدين ويسمى الإيمان.

ولنعرف مسألة، وهي أدلة جاءت في القرآن ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ هذا المعدى باللام: التصديق، وما تعدى بالباء فهو الشرعي، وبعضٌ عرفه بأنه تصديق خاص وهو ناقص.

وأهل السنّة لهم عبارات في حد الإيمان نحو خمس عبارات منها: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان. وكلها ترجع إلى شيء واحد، ومن أحسنها وأجمعها وأشملها ما عرفه به شيخ الإسلام هنا.

(قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح)

(معنى قول القلب وعمله)

(قول القلب) علمه وتصديقه وإقراره.

(وعمل القلب) عمل القلب انقياده بمقتضى ما أقرّ به من الأعمال القلبية، كالخشية والخضوع والرغبة والرهبة، والتوكل عليه

واللسان والجوارح،

ورجائه ومحبته، وأشياء غير ذلك من أعمال القلوب، فإنه أولاً يصدق ثم ينقاد لما صدق به، وكونه يصدق ولا ينقاد من الحجة عليه كما قال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ فلا بد من أن ينقاد ويعمل.

(الفرق بين قول اللسان وعمله)

(و) قول **(اللسان)** نطقه بما يدخله في الإسلام.

وأما عمله فهو نطقه بالشيء الزائد على كلمة الإسلام من أنواع العبادة كالذكر ونحو ذلك[١].

فدخل في ذلك فعل الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات.

فقول اللسان وعمله قسمان:

قسم: لا يصح الإسلام إلا به، وهو كلمة الإسلام.

وقسم: هو من واجباته ومندوباته ولا يفتقر في صحته إليها.

فالكل من الإيمان، كل خصلةٍ إيمان، وسواء كان من الظاهر أو الباطن.

وهذا الحد عرفتَ أنه شامل الإسلام، فإنه ما من خصلة من خصال الإيمان، إلا وهي داخلة في الإسلام.

(معنى عمل الجوارح)

(و) عمل **(الجوارح)** ظاهر، كالمشي بالرجل إلى الصلوات،

---

(١) (عبارة أخرى): «وعمله: انقياده».

وإعطاء اليد في الصدقات، وما يعمل بالأركان من صلاة وحج، وغير ذلك من الأعمال الظاهرة من البدن، فدخل في هذا الحد جميع الطاعات من فرض ومندوب، والانكفاف عن جميع المحرمات، فترك خصلة من المحرمات من الإيمان، وعمل خصلة من الواجبات من الإيمان، والمندوبات من مندوباته، وهذ الحد يوافق عليه المعتزلة والخوارج، خلافاً للمرجئة من أعظمهم الجهمية.

ومرجئة الفقهاء أقل ما فيها أنها بدعة، ويعد منهم أبو حنيفة عرَّفوا الإيمان بالنطق بالشهادتين والتصديق.

(الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية)

(وأن الإيمان يزيد بالطاعة) بفعل الطاعات، **(وينقص بالمعصية)** وينقص بفعل المعاصي.

وزيادته ونقصانه تارة من جهة الشرع، وتارة من جهة العامل، وتارة لا من هذا، ولا من هذا.

فالأول: إذا شُرِّع شيء صار من الإيمان وزاد بذلك وقت التشريع. فالذين ماتوا من المسلمين في أول الهجرة آمنوا بالإيمان جميعه، والذي نزل بعد ذلك زيادة في الإيمان.

والثاني من جهة العامل: إذا زاد خصلة من خصال الإيمان زاد إيمانه، وإذا عصى نقص إيمانه.

والثالث: المرأة إذا حاضت، وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال:

....

فذلك من نقصان دينها»[1] ولا تأثم عليه، فهذا نقصان من الإيمان الواجب، ومع ذلك هو نقص ولا تأثم، وتارة نقصانه بالمعاصي كما تقدم.

ويتبعض ويتجزأ وهذا هو الذي عليه أهل السنّة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهذا الحد مختص بقول أهل السنّة والجماعة.

وخالف في ذلك المرجئة والجهمية، والمعتزلة والخوارج.

فالمرجئة والجهمية يقولون: هو تصديق فقط، أو قول فقط، أو هما معاً، وأنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض ولا يتجزأ، ولا يدخلون أعمال الجوارح في مسمى الإيمان، فإيمان جبريل وفرعون سواء.

والنصوص من الكتاب والسنّة ظاهرة أنه منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ يعني: صلاتكم لبيت المقدس.

(الإيمان عند المعتزلة والخوارج)

والمعتزلة والخوارج يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض ولا يتجزأ، فمن أتى بمعصية يكفر ويخرج من الإيمان، وهم يجعلون العفو ذنباً، والذنب كفراً.

المعتزلة والخوارج يوافقون المرجئة والجهمية في أنه لا يزيد ولا ينقص، وبنوا عليه أصلاً وهو أنه إذا زال زال بالكلية، وإذا وجد وجد بالتمام، ويوافقون أهل السنّة والجماعة في أنه قول وعمل، ويخالفون أهل السنّة في أنه يتبعض ويتجزأ.

---

(١) رواه البخاري ١/١١٦ رقم ٢٩٨.

....

وأهل السنّة يقولون: إنه يزيد من ناحية الصلاح والتصديق، ـ من ناحية العمل وما في القلوب ـ، فالتصديق الذي في قلب أبي بكر ليس مثل غيره.

وكذلك النقصان من ناحية المعاصي، نظير البصر، زَيْدٌ مثلاً يعرف فلاناً من نصف كيلو، وعمر يُميِّز أنه رجل لا امرأة، وخالد يرى الشخص لكن لا يميز أرجل أو امرأة.

وأدلة الزيادة والنقصان في القرآن معلومة، والسنّة كذلك، منها: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين»[1].

فالإيمان يكسب القلب ليناً لأجل كمال حياته فيزيد، والمعصية تُظلِم بالقلب فيقسو فينقص الإيمان، وفي الآية ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) رواه البخاري ١/١١٦، رقم ٢٩٨، ومسلم ١/٨٦، رقم ٧٩.

وهم مع ذلك، لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال تعالى ـ في آية القصاص ـ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ

(أهل السنّة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج)

(وهم) أهل السنّة **(مع ذلك)** مع القول بهذا الحد **(لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر)**، يعني: كونه تصدر منه معصية أو معاصٍ فليس كافراً بذلك.

فعند أهل السنّة: أن من خصال الإيمان ما يزول كله بزوالها، كأركان الإسلام والإيمان.

ومنها ما يزول كماله الواجب، كفعل بعض المعاصي والكبائر التي لا توصل إلى الكفر.

ومنها ما يزول كماله المندوب بترك مندوبات الإيمان.

فالأعمال مع الإيمان بمنزلة الشجرة إذا زال الأصل زالت الشجرة وكذا الإيمان، فإن قطع شيء من أوراقها وأغصانها كانت ناقصة، فهي بعد ذهاب الورق شجرة، وبعد ذهاب الأغصان شجرة، لكن كاملة وناقصة.

(كما يفعله الخوارج) بناءً على أصلهم السابق أن الإيمان لا يتبعض ولا يتجزأ، فبزوال خصلة منه يزول كله، فيخرج من ربقة الإيمان فيكفرونه بمطلق المعصية أو الكبيرة.

(الرد على الخوارج)

(بل الأُخوَّة الإيمانية ثابتة مع) وجود **(المعاصي)** منهم **(كما قال تعالى ـ في آية القصاص ـ:** ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ

بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، **وقـال:** ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾.

بِٱلْمَعْرُوفِ﴾) سَماه أخاه مع وجود القتل، وجعل الأُخوَّة الإيمانية بينهما، (**وقال:** ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾)، وكذلك سماهم إخوة لهم مع وجود التقاتل، فدل على أن الأخوة الإيمانية ثابتة مع وجود المعاصي، فظهر بهاتين الآيتين وأمثالهما ضلال الخوارج وأمثالهم.

ومن جملة ما استدل به الخوارج قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية وأشباهها.

والرد على الخوارج من غير ما تقدم: أنه كان في زمن النبي ﷺ مَنْ صدر منه معاصٍ من الزنا والسرقة والسكر وغير ذلك، وثبتت لهم أحكام الإسلام من توريثهم، ومن دَفْنهم مع المسلمين، ومن الصلاة عليهم، وغير ذلك، ولم يكونوا كفاراً.

وهذا من أعظم الضلال تكفير عصاة الموحدين، وأن الإيمان لا يقبل التبعض والتجزأ.

ولا يسلبون الفاسق الملي الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة

(أهل السنّة لا يسلبون عصاة الموحدين اسم الإيمان بالكلية)

(ولا يسلبون الفاسق الملي) ـ الذي من أهل ملتنا وهو فاسق ـ اسم **(الإيمان بالكلية)**، لا يسلب اسم الإيمان بالكلية ويقال: ليس بمؤمن كما تقوله المعتزلة.

المعتزلة يقولون ـ بأصل الخوارج ـ: إنهم خرجوا من الملة، تتفق مع الخوارج في خروجه من الإيمان، ولكن الخوارج يقولون: يخرج من الإسلام والإيمان، ويدخل في الكفران.

والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ويقفون، يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وردوا بذلك نصوص الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وأهل السنّة بخلاف القولين: ـ القول بخروجه من الإيمان والوقوف، والقول بدخوله في الكفر، بريئون من مقالة الطائفتين ـ، ويقولون: إنه تحت المشيئة كما في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، فعصاة الموحدين تحت المشيئة، إن شاء الربّ عذبهم على قدر جرائمهم وطهرهم منها، وإن شاء تجاوز وعفا وسمح عنهم وأدخلهم برحمته الجنة.

(ولا يخلدونه في النار)

(ولا يخلدونه في النار) أهل السنّة لا يقولون: بخلوده في النار **(كما تقوله المعتزلة)** والخوارج، فالمعتزلة متفقون مع الخوارج في حكمه في الآخرة أنه مخلد في النَّار.

وهذه المسألة يقال لها: مسألة أسماء الدين وأحكامه.

وحد الإيمان سبق لك ما هو حدُّه عند أهل السنّة وعند الخوارج

بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾،

والمرجئة. وتقدم أن الأخوة تبقى معهم ولو على المعاصي.

(الفاسق الملي لا يخرج من الإيمان بالكلية، ولا يدخل في الإيمان المُثنى به)

(بل الفاسق) الملي، الذي يجاهر بالمعاصي ويكابر بها، يحكم عليه بالفسق ويتغلظ بحسبها، ومن تكرر منه حبس عليها **(يدخل في اسم الإيمان المطلق)** لا كما يقوله هؤلاء، ولا هؤلاء.

(كما في قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾)، ووجه دلالتها: أنه لو أعتق رقبة فاسقة ذات معاصٍ، أجزأت بإجماع أهل العلم، فصار داخلاً في هذه الآية وهو قوله: ﴿مُّؤۡمِنَةٖ﴾.

(وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق) لعصيانه، **(كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾)**، فإن الفاسق الملي لا يَجِلُ قلبُه، وليس ممن إذا تليت عليه الآيات زادته إيماناً على الحقيقة، فما دخل في الإيمان الذي يستحق أن يثنى عليه ويمدح به، إنما يثنى على من أتى بالإيمان الكامل. فالفاسق ما دخل في هذا، إذ لو كان ممن إذا ذكر الله وجلت قلوبهم لما دخل في المعاصي.

﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: القرآنية السمعية ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ فلم يدخل في هذا، فإنه ليس بمؤمن الإيمان المطلق.

فالفاسق لا يخرج من الإيمان بالكلية، وإن خرج من الإيمان

وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن».

ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان،

المُثْنَى به لا يخرج عن الثاني وهو مطلق الإيمان، والمُثْنى به هنا هو الواجب، فإيمانه ناقص، إذ لو كان مؤمناً الإيمان الواجب لزجره عنها، فإنه لم يباشرها إلا عن نقص إيمانه.

(**وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»**) فهذا الحديث فيه نفي الإيمان عن أهل الكبائر.

قول بعض السلف: «إن الإيمان يخرج كالظلة فوقه» المراد به: خرج ما يستحق به الثناء عليه.

(العاصي يقال له: مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته)

(**ونقول**) كأن قائلاً قال: إذا كان الفاسق قد يدخل في اسم الإيمان المطلق، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق، فهل تقولون إنه مؤمن، أو تقولون: إنه كافر؟

فنقول: لا نقول: إن العاصي كافر، ولا نقول: إنه مؤمن ويُطْلَق بل يقيد، فنقول: (**هو مؤمن**) في الحكم وإثبات أصل الإيمان له، (**ناقص الإيمان**) لنقصه بعض واجبات الإيمان، فلا يستحق أن يثنى عليه به، لا نفيٌ لأصل الإيمان عنه.

أَو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

(أو) نقول: **(مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته)**، ونكون قد خرجنا من بدعة الخوارج الذين يقولون: هو كافر، ومن بدعة المرجئة الذين يقولون: إنه مؤمن كامل الإيمان، فنصير وسطاً بينهم.

فالزاني والسارق مثلاً يقال: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من الفسق أو الكبيرة، إحدى هاتين العبارتين.

وبعض السلف قالوا: نقول إنه مسلم، ولا نقول: إنه مؤمن، وهذا يشبه أن يكون عدم تعرض للمسألة وحياداً عنها، والذي ذكره شيخ الإسلام تصريح فيها، وهو أحسن.

(فلا يعطى الاسم المطلق) ويقال: مؤمن ويسكت، **(ولا يسلب مطلق الاسم)** فيقال: ليس بمؤمن ويسكت.

أما قول: ليس بمؤمن، فهذا ظلم وهضم لحقه وتعد عليه، لأن معه أصل الإيمان.

وإن قيل: هو مؤمن، فهذا إعطاء له ما ليس بحق له، وهو لا يستحق أن يثنى عليه به، وإدخالٌ له في آية المدح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وهو ليس كذلك.

فدخوله في الإيمان باعتبار، وعدم دخوله باعتبار، فبذلك يكون هذا القول جامعاً بين النصوص جميعاً، وموافقاً للكتاب والسنّة.

....

ولعل قائلاً أن يقول: كيف يدخل الفاسق في الآيات في اسم الإيمان المطلق، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق.

فيقال: إن آية ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ على وجه إثبات الإيمان له، لا على وجه المدح والكمال.

وعدم دخوله في آية ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنها على وجه المدح والكمال كما تقدم.

والضابط: أنه إذا ذكرت الآيات التي فيها الأحكام، فالمطلق يدخل فيها.

فصل

«ومن أصول أهل السنَّة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ»

فصل

(من أصول أهل السنّة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم للصحابة رضي الله عنهم)

(ومن أصول أهل السنّة والجماعة: سلامة قلوبهم) وطهارتها لأصحاب رسول الله ﷺ، سلامة قلوبهم من الغل والحقد، والبغض والعداوة، واعتقاد السوء في الصحابة.

(و) سلامة **(ألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ)**، فألسنتهم سالمة من أن تتلوث بالطعن والوقيعة في أعراض أصحاب رسول الله ﷺ، بل هم أحب طائفة إليهم.

(مذهب الرافضة في أصحاب رسول الله ﷺ)

يعني: خلافاً للروافض الذين قلوبهم مفعمة من بغض أصحاب رسول الله ﷺ وعداوتهم، وألسنتهم مسلقة في سبّ أصحاب رسول الله ﷺ، فمن مذهب الروافض: تكفير أصحاب رسول الله ﷺ إلا بضعة عشر.

فمذهبهم في أصحاب رسول الله ﷺ أشنع مذهب وأفظعه، ولهذا صاروا أشر من اليهود والنصارى في هذا الباب، فإنهم لو سئلوا مَنْ شركم؟ لقالوا: أصحاب محمد ﷺ، واليهود لو سئلوا من خيركم؟ لقالوا: أصحاب موسى، والنصارى لو سئلوا من خيركم؟ لقالوا: أصحاب عيسى.

كما وصفهم الله في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ

(كفر الرافضة)

وذهب بعض أهل العلم إلى تكفير الروافض، واستدل بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

هذا التكفير في بدعة التفضيل من دون بدعة التخوين، وأيضاً هناك شيء آخر وهو عبادة الأوثان ـ والعياذ بالله ـ.

(أهل السنّة والجماعة يمتثلون ما وصفهم الله به من سلامة قلوبهم للصحابة)

(كما وصفهم الله) يعني: أهل السنّة والجماعة بسلامة قلوبهم **(في قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾) يعني: من بعد المهاجرين والأنصار.

فمن بعد البعثة المسلمون على ثلاث طبقات: مهاجرين، وأنصار، وتابعين إلى يوم القيامة، فمن صفة الطبقة الثالثة: أنهم (﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾)، فإن الآية الأولى في المهاجرين ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، والآية بعدها في الأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾، فأثنى الله على من جاء بعد المهاجرين والأنصار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

فهذا وصف أهل السنّة وهذه مقالتهم، يدعون للصحابة بالمغفرة كما يسألونها لأنفسهم، فمدحهم الله بهذه المقالة، وهي

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾
وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي،

باقية في أهل السنّة إلى يوم القيامة، والرافضة ليسوا كذلك، بل يقعون فيهم أشد الوقيعة، بل يكفرونهم إلا النفر القليل.

ولهذا استدل مالك بالآية على منعهم الفيء.

ثم وصفهم بقوله: (﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) والغل في قلوب الروافض، حتى ـ صاروا في هذا الباب ـ يظهر منهم عند ذكر الصحابة من الأقوال والأعمال مضحكات من شدة الغيظ في قلوبهم. وبهذا ينبغي لولاة الأمور أن لا يجعلوا لهم رفادة ولا شيئاً أبداً، اللهم إلا أن يزول رفضهم أولاً، بما يُظهِرون أولاً، فيُعْطون.

(أهل السنّة والجماعة أشد الناس طاعة للنبي ﷺ في محبة الصحابة)

(وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي) والخطاب مع مَنْ؟ مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وأصحابه في قصة بني جذيمة، لما قتلوا مَن قتلوا، ـ ظناً منهم أنهم لم يسلموا ـ، أنكر عليه عبدُ الرحمٰن ابن عوف رضي الله عنه قتلَه لهم، فسبه خالد، فقال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي» يعني عبد الرحمن بن عوف، مع أن خالداً وأصحابه من الصحابة، لكن عبد الرحمن أسبق صحبة، فما الظن فيمن بعده في الزمن والفضل؟!

فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

(**فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل**) جبلِ (**أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم**) من البر ونحوه ينفقه (**ولا نصيفه»**) لغة في النصف، وذلك أن تفاوت الأعمال إنما هو بالنسبة إلى ما في القلوب، لما فيها من صريح الإيمان والصدق ما لا يكون لمن بعدهم.

فلأجل الآية، ولأجل طاعة النبي ﷺ في هذا الحديث، الذي فيه أعظم تغاير بين الصحابة ومن بعدهم، كان مسلك أهل السنّة في الصحابة هو ما تقدم.

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنّة والإجماع، من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ـ وهو صلح الحديبية ـ وقاتل،

(فضائل الصحابة عامة وخاصة)

(ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنّة) المطهرة **(والإجماع، من)** مناقب الصحابة و**(فضائلهم ومراتبهم)**، وفضائل الصحابة جمة، جاءت نصوص عامة لجميعهم، وجاءت نصوص خاصة، منها ما هو تفضيل لهم عموماً، ومنها خصوص طائفة على طائفة بالتفضيل، مثل المهاجرين فضلوا على الأنصار، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومنها ما هو تفضيل أشخاص على أشخاص، وأهل السنّة يقبلون ذلك كله ويعرفون لكل واحد من الصحابة فضله.

(من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أفضل وأرفع ممن أنفق من بعده وقاتل)

(ويفضلون) من الصحابة **(من أنفق من قبل الفتح ـ وهو صلح الحديبية ـ)** سماه الله فتحاً، فإن الناس دخلوا في الدين، وكانوا في غزوة بيعة الرضوان ألفاً وأربعمائة، وبعدها كانوا نحواً من عشرة آلاف، فإن الصحابة لما اجتمعوا بالكفار وبينوا لهم وقاتلوا كانوا أفضل ممن أنفق من بعده وقاتل.

فمن كان قبل صلح الحديبية من الصحابة بادروا ولم يبالوا بكثرة الأعداء، فأنفقوا وقاتلوا مع الشدة والقلة، وبذلوا المهج والنفس والنفيس، ومَنْ بعدهم أنفقوا وقاتلوا، ولكن مع الكثرة والقوة فبهذا كانوا أفضل.

فالأولون في ضيق العيش وشدة العدو وقلة النصرة.

فهذا جنس المراتب، فجنس من أنفق من قبل الفتح **(وقاتل)**،

على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار،

أفضل وأرفع **(على من أنفق من بعده وقاتل)**، لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ فهؤلاء أفضل.

ومنهم السابقون، وإنما كانوا أفضل، لأنهم كانوا سابقين، ولأنهم اختاروا الإسلام وقت القلة والشدة، ففرق بين من دخل في حال الضيق والشدة، ممن قد كثر الناصر والداخل في الدين، فإن النبي ﷺ حين صالح أهل الحديبية ليئتمن الناس، فدخل بذلك خلق كثير، ولهذا كان ما بين صلح الحديبية وبين فتح مكة سنتان، وفي الحديبية عددهم ألف وزيادة، وفي فتح مكة عشرة آلاف.

(المهاجرون أفضل من الأنصار)

(ويقدمون المهاجرين على الأنصار) أهل السنّة يرون أن الكل له فضيلة وخير، ولكن يرون أن المهاجرين أفضل؛ لأن الله قدم المهاجرين على الأنصار في مواطن الثناء عليهم في عدة آيات - والله لا يقدم إلا الأفضل - كما في سورة الحشر، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم أهل المدينة، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ﴾.

وإنما قدموا المهاجرين لأجل النصوص، فالمهاجرون أقدم في الفضيلة لكون الله قدمهم، فالتقديم يفيد التفضيل كما تقدم، والحكمة في ذلك أنهم باشروا من الشدائد ما لم يباشره الأنصار،

ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر ـ وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ـ: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»

ولكونهم فارقوا مألوفاتهم من المساكن والأوطان والأموال والعشائر وغير ذلك، كله نصرة لله ورسوله، وبعضهم فارق والديه كما في قصة سعد وقصتهما معروفة.

والأنصار آووا المسلمين ونصروهم بالمال والأبدان، ولكن في أوطانهم وعشائرهم فكانوا في الفضل دون المهاجرين، فبهذا يعرف سبب تفضيلهم وسبقهم أيضاً رضي الله عن الكل وأرضاهم.

(لأهل بدر رتبة عالية)

(ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر) وبدر: ماء معروف غير بعيد من المدينة، وجرت فيه الوقعة الشهيرة، وهو المذكور في الآية الكريمة.

(وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر) الذي شهدها من الصحابة هم هذا العدد.

(اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) يعني: فيؤمنون بأن النبي ﷺ قال ذلك، وبأنهم ممتازون بالفضيلة على غيرهم من الصحابة، فهي رتبة عالية لشهودهم هذا المشهد الكبير الذي فرَّق فيه بين الحق والباطل.

(معنى مغفرة الله لأهل بدر)

لكن لا بد من معرفة معنى ذلك، فليس معناه عند أهل العلم أنه مرخص لهم في الكفر والمعاصي، لكن من ثواب الله لأهل بدر أن المعاصي المتجددة إذا وقعت من أحدهم فإنه يوفق للتوبة، وكذلك توفيقه للحسنات، كله من ثواب الله، فهذا معنى التكفير في باقي العمر بعد ذلك.

وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، كما أخبر به النبي ﷺ. بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه،

فلا تظن أن الواحد من البدريين مأذون لهم في المعاصي، بل إيمانهم أعظم من غيرهم، وعصيان من انقطع إلى الله أعظم؛ لامتيازه بالمعرفة، والشكر في حقه آكد، لكن مغفرة ذلك من أجل ما جرى على أيديهم من النفع، أي: وما عملتم من عملٍ لا يصل إلى الكفر مغفورٌ لكم، والكفر لو قدر وجوده من بدري حبط عمله، وهم متفاوتون في الأجر، فلِعُمَر من سنامه ما ليس لغيره.

(أهل السنّة والجماعة يؤمنون بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)

(و) كذلك أهل السنّة والجماعة يؤمنون **(بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)** وذلك سنة ست، فلما صَدَّ المشركون النبي ﷺ عن البيت وهم هذا العدد، أخذ النبي ﷺ عليهم أن لا يفروا، فبايعوه تلك البيعة فرضي الله عنهم، **(كما أخبر به النبي ﷺ)** في قوله: «لا يدخل النارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة»[1]، وهؤلاء هم أهل بيعة الرضوان.

أما قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ فالمراد المرور على الصراط، فإنه منصوب على متن جهنم؛ وجميع الخلق يعبرون عليه، فالورود أعم من الدخول، فالدخول أخص، فلا يلزم من الورود الدخول.

(كل من بايع تحت الشجرة في الحديبية فإن الله قد رضي عنه)

(بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه) كل منهم قد رضي الله عنه، وغير خافٍ أن الرضا درجة فوق المغفرة كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ

---

(١) رواه مسلم ٤/١٩٤٢ رقم ٢٤٩٦.

وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ المعروفة في صلح الحديبية، فإن النبي ﷺ في سنة ست خرج قاصداً مكة في ذي القعدة معتمراً، ولما بلغه أن قريشاً يريدون أن يصدوه عن العمرة، عزم على أن من قاتله أن النبي ﷺ يقاتلهم، فبايعهم تحت الشجرة على ألا يفروا إذا لقوا قريشاً في مكة، فصالحهم النبي ﷺ أن يعتمر من القابلة.

المقصود أنهم بايعوه تحت الشجرة، **(وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة)** فيؤمن أهل السنّة أن الله رضي عنهم.

فهؤلاء هم أهل بيعة الرضوان لهم مزية على من لم يحصل له ذلك، هذه فضيلة عمومية لأهل بيعة الرضوان، كما أن موقعة بدر عمومية لأهل بدر على غيرهم، وكذلك فضيلة المهاجرين على من ليسوا مهاجرين كذلك، ومنها باعتبارِ تفضيل العشرة، فهي خاصة لهم بالنسبة إلى غيرهم وعامتهم.

وفي الصحابة من له فضائل خاصة به، كأبي بكر وعمر وغيرهم، وكذلك الملازمون له في الصحبة، وهذا غالب فيهم ليس في كل فرد منهم، بل من اجتمع بالرسول ﷺ ولو لحظة وهو مؤمن به فإنه من الصحابة.

ونشهد بالجنَّة لمن شهد له رسول الله ﷺ، كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس،

(مسألة الشهادة بالجنة والنار)

(ونشهد بالجنة) بالتعيين **(لمن شهد له رسول الله ﷺ)** هذا أصل من أصول أهل السنّة، لأنه شهد له الرسول بوحي من الله فنجزم. وبشهادة المعصوم له عُرِف أنه لا يأتي عليه ما ينقض هذه.

(كالعشرة)، جاء في بعض الأحاديث تعدادهم في حديث واحد ومتفرقة، والعشرة هم: أبو بكر الصديق، والفاروق، وذو النورين، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وطلحة، وأبو عبيدة، ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: أبو بكر في الجنة، عمر في الجنة[1].. الخ فنشهد ونجزم أنهم من أهل الجنة.

(وثابت بن قيس بن شماس) وله قصة شهيرة، فإنه كان يخطب للنبي ﷺ، وكان ثقيل السمع ولما نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية خشي أن يكون ممن يرفع صوته في القرآن فاحتبس في بيته يبكي، ففقده النبي ﷺ وسأل عنه، فقيل له: إنه لما نزلت هذه الآية احتبس في بيته وخشي أن يكون ممن رفع صوته فحبط عمله وأنه من أهل النار، فأرسل إليه النبي ﷺ وبشره بالجنة وقال: «أخبروه أنه من أهل الجنة»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد ١/ ١٩٣ رقم ١٦٧٥.

(٢) رواه البخاري ٣/ ١٣٢٢، رقم ٣٤١٧، ومسلم ١/ ١١٠، رقم ١١٩.

وغيرهم من الصحابة.

وكعكاشة بن محصن[١]، ومعاذ للحديث[٢]، وبلال[٣]، ولذلك قال المصنف: **(وغيرهم من الصحابة)**، فكل ما ثبت لأحد نصٌّ أنه من أهل الجنة فهو من أهل الجنة.

ثم هنا مرتبة بين الشهود الكلي والتعيين، كأهل بيعة الرضوان وكأهل بدر، فإنه يشهد لهم بمثل هذا، فهي عمومية من وجه خصوصية من دون غيرهم من المسلمين، وعموم من حيث أنه لم يقل في واحد بعينه بل يقال فيهم ذلك عموماً.

(لا نشهد لأحد بجنة أو نار ما لم تشهد له النصوص بذلك)

ومن لم يشهد له بالتعيين من الصحابة أو غيرهم فلا نشهد له به وإن بلغ ما بلغ، لأنه لا يُدرى عن الخواتيم، للحديث في ذلك[٤]، بخلاف الشهادة بالصلاح والخير، كما جاء عن علي لما سئل وهو على المنبر، والرؤيا تثبت الخيرية إذا تواترت ولا يشهد له بمجردها؛ لأنه لا يدرى ما خاتمته، وكذلك السوء.

---

(١) كما في حديث السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال للنبي ﷺ: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم» رواه البخاري ٥/ ٢١٥٧، رقم ٥٣٧٨، ومسلم ١/ ١٩٧، رقم ٢١٦.

(٢) روى الطبراني في المعجم الصغير ١/ ٣٣٥، رقم ٥٥٦: «يجيء معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء برتوة».

(٣) لقول النبي ﷺ لبلال رضي الله عنه: «سمعت دفَّ نعليك بين يديَّ في الجنة» رواه البخاري ١/ ٣٨٦، رقم ١٠٩٨، ومسلم ٤/ ١٩١٠، رقم ٢٤٥٨.

(٤) في قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن الرجل منكم ليعمل، حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة» رواه البخاري ٣/ ١١٧٤ رقم ٣٠٣٦، ومسلم ٤/ ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣.

....

فلا يقال: فلانٌ من أهل الجنة، بل يرجى له أنه من أهل الجنة رجاء قريباً من الجزم، وأما الجزم لغير معين فجائز، كما تقول: من مات من أهل التوحيد فهو من أهل الجنة، فنشهد شهادة عمومية لكل من مات على التوحيد أنه من أهل الجنة على أحد تقادير ثلاثة[١].

وكذلك النار لا نشهد لأحد إلا لمن شهد له الرسول ﷺ، فمن شهد له الرسول ﷺ أنه من أهل النار، فنشهد أنه من أهل النار، كأبي لهب، وأبي طالب، وأما على العموم فنشهد لمن مات على الكفر أنه من أهل النار الخالدين المخلدين.

فنشهد شهادة عمومية أن من مات على الكفر مصيره إلى النار، فالكافر وإن بلغ كفره من الكفر ما بلغ، لا نقول: إنه من أهل النار، لأنا لا ندري ما باطنه، ولا ندري ما يموت عليه.

---

(١) إما أن يُدْخلَه الله الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما أن يدخل النار على قدر ذنبه ثم يدخل الجنة، وإما أن يدخل النار ثم يخرج منها بشفاعةٍ أو بفضل الله ورحمته.

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أَبو بكر، ثم عمر، ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي رضي الله عنهم، كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة،

(مراتب الخلفاء الأربعة في الفضل)

(ويقرون) ـ كذلك يقر أهل السنّة والجماعة ـ **(بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر)** قال المصنف: صَحَّ عن علي من نحو ثمانين طريقاً حين سئل مَنْ خير هذه الأمة بعد نبيها؟ فقال: أبو بكر، قيل: ثم من؟ قال: ثم عمر، حتى إنه سئل عن ذلك وهو على منبر الكوفة، بل هي من المتواتر.

ومقصده بيان أن الذين ينتسبون إلى أنهم يعظمونه وهم الشيعة لا يعبئون بأقواله، مع أنهم لا يعبئون بالكتاب والسنّة في ذلك.

(ويثلثون) ـ أهل السنّة ـ **(بعثمان، ويربعون بعلي رضي الله عنهما، كما دلت عليه الآثار)** كما قال ابن عمر: كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ: أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، وهذا بالنسبة إلى الخيرية، وأما بالنسبة إلى الخلافة فشيء آخر.

(وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة)، وهم لا يجتمعون على تقديم أحدهما إلا أنه أفضل، وهذه المسألة يقال لها: مسألة التفضيل، فإن أهل السنّة يقدمون أبا بكر، ثم عمر، فإن النصوص يستفاد منها بعد خلافة أبي بكر وعمر، ولكن بعض أهل

مع أن بعض أهل السنَّة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما ـ بعد اتفاقهم على تقديم أَبي بكر وعمر ـ أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا، أو ربعوا بعلي، وقدم قوم علياً، وقوم توقفوا، لكن استقر أمر أهل السنّة على تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنّة، لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة،

السنّة قال بالنص، وبعضهم قال بإجماعهم عليهم.

(**مع أن بعض أهل السنّة**) والجماعة (**كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي** رضي الله عنهما) في وقت من الأوقات، ثم استقر الأمر على ما يأتي وزال الاختلاف (**ـ بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر ـ أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربعوا بعلي**).

(**وقدم قوم علياً، وقومٌ توقفوا، لكن استقر أمر أهل السنّة على تقديم عثمان ثم علي**) ورجع الأمر إلى نصابه.

(**وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة**) التفضيل بين (**عثمان وعلي ـ ليست من الأصول التي يُضلَّل المخالف فيها عند جمهور أهل السنّة**) والجماعة؛ لأنها مسألة تفضيل، والتفضيل أمره أسهل من غيره.

(مراتب الخلفاء الأربعة في الخلافة)

(**لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة**) إنما الذي يضلل فيها مسألة الخلافة، فمسألة الخلافة هي التي فيها من القدح في الصحابة؛ بل القدح في الأمة ما لا يخفى.

وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر، ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله.

(وذلك أنهم يؤمنون) ـ أهل السنَّة ـ يقطعون **(أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر، ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله)**. يعني: فَرقٌ بين مسألة الخلافة والتفضيل.

فمسألة الخلافة ما جرى فيها خلاف يذكر، أما مسألة التفضيل، فجرى كما تقدم ثم زال.

أما أبو بكر وعمر فلا خلاف في خلافتهما وفضلهما على سائر الصحابة ومن بعدهم أبداً، ولكن بعض أهل العلم قال: بالنص، وبعضهم قال: بإجماعهم عليهما، وكذلك خلافة عثمان.

أما فضيلة عثمان على عليّ: فجرى فيها خلاف وزال ولكن استقر، هذا هو تفضيله.

ومن تفضيل عثمان على عليّ: تقديمه عليه في الخلافة، فإنه لا يقدم في الخلافة إلا الأفضل.

ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي».

(أهل السنّة والجماعة يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم)

(و) أهل السنّة والجماعة (**يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ**) يعني: قرابته بني هاشم.

(**ويتولونهم**) التولي: المحبة والترضي والذب عنهم ونحو ذلك، يعني: يذبون عنهم وينصرونهم عندما يحتاجون إلى ذلك، ويحمونهم عندما يحتاجون إلى حماية، ويعرفون لهم فضائلهم ومناقبهم، بل أهل السنّة والجماعة يتولونهم زيادة على ما يتولون به سائر المؤمنين، فهم يرون أن المسلم يُذَبُّ عنه.. الخ، فهم اشتركوا معهم في ذلك واختصوا بقرب رسول الله ﷺ.

(**ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خم**) ـ موضع معروف بين مكة والمدينة، في منزلٍ نزله في رجوعه من حجة الوداع لما رجع من مكة، خطبهم فيه خطبة شهيرة قبل موته بشهرين ـ: (**أذكركم الله في أهل بيتي**) يعني: أن تعرفوا لهم حقهم وحرمتهم ومكانتهم من رسول الله، وأن ترعوا لهم حقهم ولا تحرموهم، قاله مزيد حث وتذكير لهم على أنه يُراعى لهم حقيقة.

وهذا خلافاً للنواصب الذين نصبوا لهم العداوة، وهذا حيث كان في خلافة بني أمية، جفوا أهل البيت. والمنصف يعطي كل ذي حق حقه.

فدل على أن أهل بيت رسول الله ﷺ يُحبَّون لأمرين،

(الكافر من أهل البيت)

أحدهما: إسلامهم، والثاني: لقربهم من المصطفى ﷺ، والمراد المُسْلم منهم، أما الكافر فلا، فإن أبا لهب عمُّ النبي ﷺ.

فالمراد المسلمون الموحدون الذين هم على سنته ﷺ.

أما من حاد عما جاء به النبي ﷺ فلا، وقربه من النبي ﷺ يدعوه أن يكون أسرع الناس إجابة له ﷺ.

أما من كان من الكفار فإنه أبعد الناس عن النبي ﷺ وأسوؤهم كفراً، فالذين يكفرون من ذرية عبد المطلب يتغلظ كفرهم، ألا ترى قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾.

وهذه الخطبة ألف فيها ابن جرير مجلدين، لكن ما ذَكَر ورواه، مشتمل على أشياء لا تثبت من أجل الشيعة، ويُعْرف أن عنده شيء من التشيع الذي لم يصل إلى البدعة.

المقصود: أن من جملة ما حفظ عنه ﷺ هذا الحديث، وقال ﷺ: «إني تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله، وثانيهما: أهل بيتي»[1].

(وقال أيضاً للعباس عمِّه، ـ وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم ـ) يعني: يُقصِّر في حقهم.

---

(١) رواه مسلم ٤/١٨٧٣ رقم ٤٤٢٥.

فقال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»، وقال ﷺ: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

(**فقال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»**) فدل على أنه واجب من واجبات الإيمان محبة قرابة النبي ﷺ في الله لكونهم مسلمين، وواجب محبتهم من جهة أخرى وهي قرابتهم من النبي ﷺ وهي أخص.

(**وقال ﷺ: «إن الله اصطفى بني إسماعيل**) يعني: من ذرية إبراهيم، يعني: اتخذ من العرب بني إسماعيل.

(**واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**) ولهذا عرفنا أن بني هاشم أهل بيت رسول الله ﷺ صفوة من صفوة، من صفوة من صفوة، كما أن كنانة صفوة بني إسماعيل، وقريشاً صفوة كنانة، وبني هاشم صفوة قريش. فأهل بيته هم صفوة الناس، فبنو إسماعيل صفوة، وكنانة صفوة من صفوة.. الخ، فالنبي ﷺ صفوة من صفوة، من صفوة من صفوة، من صفوة.

وصفوة الشيء: هو خالصه، أصلها: اصتفى من صفا الشيء اختاره، وصفوة الشيء خيرته.

ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة، خصوصاً خديجةَ رضي الله عنها،

(أهل السنّة والجماعة يتولون أزواج رسول الله ﷺ وهن من أهل بيته)

(ويتولون أزواج رسول الله ﷺ) ـ والتولي: نشر الجميل ـ، بمحبتهن، والذب عنهن، ومراعاة حقهن، والنصر عندما يحتاج لذلك. والأزواج: جمع زوج، والأفصح زوج بدون تاء.

والمراد: اللاتي تُوفي وهن في عصمته، أو تُوفِّين وهن في عصمته، بخلاف من فارقنه في حياته.

فأهل السنّة يتولون أزواج رسول الله ﷺ، كما يتولون أهل بيت رسول الله ﷺ[1]، خلافاً للنواصب.

والتولي ـ كما تقدم ـ: الترضي عنهن، والذب عنهن، وتبرئتهن فُرَش المصطفى ﷺ خيرِ الخلق وأطهرِ الخلق ﷺ.

(أمهات المؤمنين) والمراد في الحرمة وعدم التزوج بهن بعده فقط، ليس المراد كشفهن الوجه للناس، أو إذا أرضعت، فإنه ﷺ أبوهم الأكبر الذي على يديه تربيتهم بغذاء القلوب. وفي قراءة: «وهو أبوهم»[2].

(فضائل خديجة وعائشة رضي الله عنهما)

(ويؤمنون بأنهن) رضي الله عنهن **(أزواجه في الآخرة)**.

(خصوصاً خديجةَ) بنتَ خويلد (رضي الله عنها) فلها من المزية ما لا

---

(١) قلت: وأزواجه من أهل بيته.

(٢) وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبيّ بن كعب. الدر المنثور ٤/ ٤٥٧، ٦/ ٥٦٧.

أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية، والصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

يخفى، **(أمَّ أكثرِ أولاده)** ـ أم فاطمة ـ **(وأول من آمن به وعاضده على أمره)** أي دينه. وهي التي جاء إليها لما جاءه المَلَك وقال: زمِّلوني، وأخبرها بما أتاه والقصة معروفة، وأول امرأة آمنت به، **(وكان لها منه المنزلة العالية)**.

(والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما) يعني: وخصوصاً أيضاً الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، يعني: عظيمة التصديق، فأبوها الصديق الأكبر، وهي صديقة النساء التي لها المزايا الخاصة من نزول الآيات في حقها والعلم.

(التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام») والثريد: هو الخبز مع اللحم. وباتفاقٍ أنها أعلم نساء الصحابة.

وقول المصنف: «خصوصاً» وخص منهن اثنتين هما أفضل النساء على الإطلاق، فأهل السنّة والجماعة يقولون: جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبالأخص هاتين، لكونهما أخص أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

(أيهما أفضل خديجة أم عائشة؟)

وقد اختُلِف أيما أفضل عائشة أو خديجة؟ واستدلوا على فضل خديجة بما ذكر. وقومٌ قالوا: عائشة أفضل بالحديث.

ومسألة التفضيل شيء سهل، والصواب والحق أن عائشة

....

أفضل من خديجة في الأشياء التي امتازت بها، وخديجة أفضل في الأشياء التي امتازت بها، وهذا ينبغي سلوكه في مسائل التفضيل، والصِّدِّيقة أعطيت من مِنَّة التصديق شيئاً كثيراً ما ليس لغيرها وأن الصِّدِّيق كثير التصديق. والمصنف ـ رحمه الله ـ ما تعرض لهذا هنا؛ لأن هذا مختصر، ومسلكه في المسألة مبين في مصنفاته.

والتحقيق: ـ كما ذكره المصنف في غير هذه العقيدة المختصرة ـ، أن الصواب أن لا يقال: خديجة أفضل مطلقاً، ولا عائشة أفضل مطلقاً، بل عائشة أفضل في أشياء، وخديجة أفضل في أشياء، عائشة فيها آيات تتلى في المساجد، فهي بها أفضل، ومن جهة كون خديجة أم أكثر أولاده فيقال هذه أفضل من وجه، وبهذا تجتمع النصوص، وهذا له نظائر يفاضل بينها ويحتج كل طرف بحجج.

ومسألة التفضيل أمرها سهل فلا يضلل فيها كما تقدم، ومسائل الخلاف في الفضل وعدمه كثيراً ما يدخله الهوى النفساني، وبعضه قد لا يدخله الهوى، وكونها مسألة هوى لا يُوسَّع البحث فيها مخافة أن يدخل في تأييد هواه.

وحديث: «لا تخيروا بين الأنبياء»[1]: النهي في قوله: «لا تخيروا» إذا كان التخيير على وجه التعصب، مثل ما فعل الأنصاري واليهودي، أو أنه قاله على وجه التواضع.

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٢٥٣٤ رقم ٦٥١٨، ومسلم ٤/ ١٨٤٥ رقم ٢٣٧٤.

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول، أَو عمل،

(التبرؤ من طريقة الرافضة في بغض الصحابة وسبهم، أصل من أصول أهل السنّة)

(**ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم**)، من أصول أهل السنّة والجماعة: التبرؤ من طريق الروافض الذين يبغضون الصحابة، فإنهم لا يقرون لأصحاب رسول الله ﷺ بقول ولا عمل، فقلوبهم مفعمة من البغض لأصحابه، وألسنتهم متلوثة بالسب في أصحاب رسول الله ﷺ، وأهل السنّة يحبونهم ويترضون عنهم.

الرافضة مسلكهم في الصحابة أخبث مسلك، يكفرون الصحابة إلا نفراً قليلاً، وتكفيرهم الصحابة هو أصل مذهبهم لكن ضموا إليه الشرك والاعتزال.

(ومن أصول أهل السنّة: التبرؤ من طريقة النواصب في عداوة أهل البيت)

(**و**) يتبرؤون من (**طريقة النواصب الذين**) ينصبون العداوة لأهل بيت رسول الله ﷺ، (**يؤذون أهل البيت بقول، أو عمل**). فهم في مقابلة الروافض في الغلو في أهل البيت، والنواصب يجفونهم ويبغضونهم.

(الأغراض الشخصية سبب نشوء معتقد النواصب)

وأصل النصب: للأغراض الشخصية للميل إلى رؤساء بني أمية، ناشيء عن المنازعة في مُلْكٍ من مُلْكِ مصر، في مُلْكِ بني أمية ومن يواليهم، فينصبون لأهل البيت العداوة، لأجل ذلك، ويمكن أن يوجد إخوان النواصب، فمن كان كذلك فهو ناصبي مبتدع ضال.

....

فالحامل على النصب الشهوة، والرفض أعظم منه والحامل عليه الشبهة، والشبهة أعظم من الشهوة.

فالنواصب والروافض في أهل البيت في طرفي نقيض:

الروافض يغلون في أهل البيت، ويكفرون باقي الصحابة.

والنواصب يجفون.

وأهل السنّة وسط بين غلو هؤلاء، وبين غلو أولئك، ورأوا أن لهم مزية لقربهم من النبي ﷺ، كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[1] وأهل السنّة طريقتهم: الترضي عنهم جميعاً، ويعرفون لأهل البيت قدرهم القدر الشرعي.

فالخوارج والنواصب متفقون في مزيد العداوة لأهل البيت.

والخوارج لا يقتصرون على عداوة أهل البيت بل عموماً. والذي باشرهم هو عليٌّ، فهم يعادونه ويكفرونه ومن معه من الصحابة، يقولون: إنك حكَّمت الرجال وكَفَرتَ.

والنواصب قابلوا الروافض، جفوا أهل البيت وأبغضوهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد ١/ ٢٠٧ رقم ١٧٧٧، وابن أبي شيبة ٦/ ٣٨٢ رقم ٣٢٢١٣ بلفظ: «والله لا يدخل قلب امريء إيمان، حتى يحبكم لله ولقرابتي».

ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم، منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيِّر عن وجهه،

(معتقد أهل السنّة والجماعة: الإمساك والكف عما شجر بين الصحابة)

(ويمسكون): يكفون **(عما شجر)**: وقع **(بين الصحابة)** من النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من الحروب بينهما؛ لأن تلك الأمور اجتهادية وهم على قسمين: مجتهد مصيب، ومجتهد مريد للحق مخطيء فاته أجر الإصابة وصار له أجر الاجتهاد، مع العلم والقول أن أَوْلى الطائفتين: علي رضي الله عنه ومن معه.

هذه طريقة أهل السنّة يمسكون عما شجر بين الصحابة ـ في الحروب والوقائع ـ إذا جاء الخوض ويكفون، فلا يكونون في هذا الجانب ولا في هذا الجانب.

هذا من أصول أهل السنّة: الكفُّ عمّا كان بين الصحابة، وعدم الخوض فيها، وعدم الكلام وتُتْرك.

(ويقولون) ما يأتي بيانه:

(مسلك أهل السنّة والجماعة في الآثار المروية في مساويهم على ثلاثة أقسام)

(إن هذه الآثار المروية) الكثيرة **(في مساويهم)**: في عيوبهم **(منها: ما هو كذب)** من أصله، ولا أصل له بحال أبداً، هذا مسلك أهل السنّة والجماعة.

(ومنها: ما قد زِيد فيه ونُقِّص وغُيِّر عن وجهه) أي: ومنها ما له أصل لكن ما بقي على أصله بل غُيِّر.

وهذا في القول العام في الصحابة، فإنهم لا يجتمعون على ضلالة.

والصحيح منه: هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق

(ما وقع بين الصحابة هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون)

(والصحيح منه): أي الذي يثبت منه وهو الأقل، وهذا خاص بالأفراد:

(هم فيه معذورون):

(إما مجتهدون مصيبون) فيكون لهم أجران رضي الله عنهم.

(وإما مجتهدون مخطئون) والخطأ مغفور لهم.

فأعمالهم مترددة بين أن يكون لهم فيها أجران أو أجر، مثل الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

(لا يمكن اجتماع الصحابة بحالٍ على ضلالة)

(وهم) أي: أهل السنّة والجماعة **(مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة)** - كل فرد منهم - **(معصوم عن كبائر الإثم وصغائره)** تجوز عقلاً وغير مستحيلة.

(بل تجوز عليهم) فهذا من التجويز الوقوعي، لا أنه يجوز لهم في الأحكام. - تجوز عليهم لا أنها تجوز لهم - **(الذنوب في الجملة)**، فالذنوب متصورة من أحدهم، والعصمة إنما هي لجميعهم أن يكونوا مجتمعين على ضلالة.

(ولهم من السوابق) إلى الإسلام وقوة الإيمان واليقين والجهاد

والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به، كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم،

(للصحابة من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر)

(والفضائل، ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم).

(وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون) كما في حديث «خير الناس قرني..» الحديث، و«خير أمتي قرني..» الحديث.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ مخاطباً خالداً ومن معه وكان منهم «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً» ما بلغ مثلَ مُدِّ مَنْ تقدَّمه من الصحابة، فكيف بمن بعد الصحابة؟! ومن بعدهم فمن بعدهم؟!.

(وأن المد من أحدهم) من البر ونحوه **(إذا تصدق به، كان)** خيراً و**(أفضل)** عند الله **(من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم)**، فهذه فضيلة ومنقبة لهم، بل قال ذلك النبي ﷺ لبعض الصحابة السابق منهم، فكيف بمن بعد الصحابة؟! ومن بعدهم؟! فهذا بَوْنٌ بعيد وتفاوت عظيم.

....

(الأعمال تتفاضل بما في القلوب)

وهذا يبين لك أن الأعمال لا تتفاوت وتتفاضل إلا بتفاضل ما في القلوب، وصدور العمل معتمد على النية والإخلاص وسماح النفس، فالصحابة أكمل الناس إيماناً وإخلاصاً وعلماً، وأيضاً صحبتهم الرسول ﷺ التي امتازوا بها عن غيرهم، ـ فقاتل الله الروافض ـ.

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب، فيكون قد تاب منه، أَو أتى بحسنات تمحوه، أَو غفر له بفضل سابقته، أَو بشفاعة محمَّد ﷺ

(أسباب مغفرة ذنوب الصحابة إذا قدر أن واحداً منهم قد صدر منه ذنب)

(ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب) ـ تقدم لك أن الفرد منهم غير معصوم ـ، إذا قدرنا أن واحداً منهم قد صدر منه ذنب وثبت، ـ وهو غير معصوم ـ، فإنه تَعْرِضُه هذه الأمور:

الأول: التوبة **(فيكون قد تاب منه)**، والتوبة تَجبُّ ما قبلها، فهم أسرع شيء إلى المبادرة بالتوبة والإقلاع عما صار منهم، بل هذا ممكن قريب وهو الأحرى بهم رضي الله عنهم. ثم الشخص قد يكون بعد الذنب والتوبة أكمل منه قبله.

(أو أتى بحسنات تمحوه) الثاني: كثرة الأعمال ورجحانها على السيئات، كما في قصة أهل بدر، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وفي الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[1].

الثالث: **(أو غفر له بفضل سابقته)** وجهاده مع النبي ﷺ، فإن صاحب السابقة يغفر له ما لا يغفر لغيره، فإنها شيء كبير من الفضل، ولهذا نوّه الله عن أهل السبق في كتابه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(أو بشفاعة محمد ﷺ) هذا الرابع للعصاة من أمته، وأولى

---

(١) رواه أحمد ٥/ ١٥٣، رقم ٢١٣٩٢، والترمذي ٤/ ٣٥٥، رقم ١٩٨٧.

الذي هم أحق الناس بشفاعته، أَو ابتلي ببلاء في الدنيا كُفِّر به عنه. فإذا كان هذا

الناس بها أصحابه لامتيازهم على الأمة، فإن شفاعته هي دعوته لأمته **(الذين هم أحق الناس بشفاعته)**، فإنه ﷺ أخبر أن شفاعته نائلة العصاة من أمته كما في الحديث: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[١]، فأولى الناس بهذه الشفاعة من العصاة الصحابة، وَلِمَ لا يكونون أولى وهم خير القرون؟!

الخامس: **(أو ابتلي ببلاء)** من مصائبٍ ببدنه أو أهله أو ماله، فإنها ليست حسنات، بل مكفِّرات، وهي نوعُ امتحان، ولكنها غالباً تسبب إما عملاً صالحاً وهو الصبر، أو سوءاً وهو الجزع، والصحابة أولى الناس بها، **(كُفِّر به عنه)** فإن المصائب مكفِّرات للذنوب مطهِّرات، فإنهم ليسوا أهل ترافات، بل هم أحرى بالمصائب المنكبات كما في الحديث: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»[٢].

فهذه خمسة أسباب لمغفرة الذنب، إذا صدر عن أحد من الصحابة فهو بعرضة خمسة أشياء، والمصنف ذكر في بعض مؤلفاته «كمنهاج السنّة» عشرة أسباب في تكفير الذنوب.

(فإذا كان هذا) يعني: الأسباب العشرة التي ذكر منها هنا

---

(١) رواه مسلم ١/١٨٩، رقم ١٩٩.

(٢) رواه الترمذي ٤/٦٠١، رقم ٢٣٩٨، وابن ماجه ٢/١٣٣٤، رقم ٤٠٢٣.

في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم؟!

ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم، قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح،

(ما جرى بين الصحابة هم مجتهدون فيها، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم)

خمسة **(في الذنوب المحقَّقة)** أنها بعرضة هذه الأسباب **(فكيف بالأمور)** التي ليست محقَّقةً بل اجتهاد وليست ذنوباً محضة **(التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا)** في الحصول على الخير والعمل به **(فلهم أجران)** أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة.

(وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد)، إن فاتهم أجر الإصابة، ما فاتهم أجر الاجتهاد والحرص على الخير، **(والخطأ مغفور لهم)**.

(ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم، قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم) فإذا ثبت عن أحد منهم، فهو كنقطة في بحار استهلكت، فلم يبق لها عين ولا أثر، والخطأ يعني الذي خلاف الاجتهاد وما إلى ذلك، يعني: فبطريق الأولى أن تكون مغفورة في جنب هذه الفضائل، بل في جنب واحدة من هذه الفضائل.

(من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح) «مِنْ» لبيان الجنس في

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله.

جنس ما منَّ الله به عليهم، إذا نسبت هذا إلى هذا، فلا كمية ولا كيفية.

(الصحابة خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم)

(ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة) من عرف ذلك في سيرتهم، عرف صدق ما جاء في الأحاديث، أنهم خير الخلق بعد الأنبياء كما تقدم «خير القرون قرني» كما في حديث عمران وابن مسعود رضي الله عنهما، ومنه: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله».

(وما منَّ الله عليهم به من الفضائل) من صريح الإيمان بالله ورسوله، وسبقهم إلى الخير والأعمال الصالحة تبين له ما يأتي:

(عَلِم يقيناً أنهم) ـ يعني: الصحابة ـ **(خير)** وأفضل **(الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم)** رضي الله عنهم.

(وأنهم الصفوة) الخيار **(من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله)**.

فصل

ومن أصول أهل السنَّة: التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات،

(فصل)

(من أصول أهل السنّة: الإيمان بكرامات الأولياء)

(**ومن أصول أهل السنّة: التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات**) من حمل الأثقال وقطع المسافات الطويلة.

وقد انقسم الناس في كرامات الأولياء إلى ثلاثة أقسام:

قسم: أنكروها بالكلية، وهم المعتزلة.

وقسم: أثبتوها وغلوا في إثباتها، حتى جعلوا من صدرت منه فهو ولي لله، وأنها من الدلالة على أنه يصلح أن يُعبد من دون الله، وهم القبوريون.

وقسم: توسطوا، فأثبتوا كرامات الأولياء وتثبّتوا فيمن صدرت منه.

وهذا هو الصواب: إثبات جنسها، وأن من جرت على يده يوزن بالكتاب والسنّة، فإن كان من أهل الاستقامة فهي كرامة وولاية وعلامة، ولا تدل على أنه يصلح للعبادة.

وإن كان بخلاف ذلك فهي من الأمور الشيطانية.

والذي حدى المعتزلة على إنكار الكرامات أنهم يقولون: إن

كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة

تعريف النبي: هو من صدر عن يده خارق قالوا: فإذا قلنا: إن لهم كرامات التبس الولي بالنبي، فلم يتميز هذا من هذا، فأنكروا الكرامات لذلك.

ونقول: هذا من تعريف النبي كرامةٌ، لكن مع شيء آخر وهو إنزال الوحي عليه.

(من ظهرت له كرامة ليس له مزية وفضيلة على من لم تظهر له)

وأهل السنّة أثبتوها وصَدَّقوا بأن ما جرى لهم من ذلك فهو كرامة وقالوا: إن من صدرت عنه فليس له مزية على غيره وفضيلة، فليست الكرامة هي الميزان في علو الدرجة في الولاية، وأن من ظهرت له كرامة أنه أفضل ممن لم يظهر له كرامة؛ بل من ليس له كرامة أفضل بكثير ممن له كرامة. بل هي من نوع الحظ والبخت يعطيها الله من يشاء.

ثم هي قد تكون لمن جرت له، فتنة وشر تنقصه في دينه، وقد تكون خيراً، وقد تزيده ولا تنقصه وتحمله على فعل الطاعات فهي كالنعمة، من الناس من تزيده، ومنهم من تنقصه.

(كالمأثور عن سالف الأمم) كقصة أصحاب الكهف **(في سورة الكهف)** لما فارقوا قومهم في ذات الله وأووا إلى الغار ثلاثمائة وتسع سنوات لا يأكلون هذه المدة الطويلة. المقصود: أن جنس هذا من كرامات الأولياء كونهم بقوا هذه المدة بلا طعام ولا شراب.

(وغيرها) كما جرى لابن مريم من إبراء الأكمه والأبرص.

(وعن صدر هذه الأمة من الصحابة) كقصة خالد حين حسا

والتابعين، وسائر فرق الأمة، وهي موجودة فيها إِلى يوم القيامة.

السم، وقصة الذين خاضوا البحر ولم يغرقوا.

(لماذا الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؟)

(والتابعين) أكثر، والسبب: أن الصحابة أقل حاجة إليها؛ لأنها لتأييد الحق وبيان فضله وهم لا يحتاجون إليها.

وليعرف أنها كرامة يكرم الله بها أولياءه وهي لا تدل على أنه أفضل من الآخر، وأنها من جنس الحظ من المال أو العلم أو الفهم، هي بنفسها كرامة إنما تدل على فضله، لا على أفضليته على غيره، شبه البخت والحظ، بل إن زادت صاحبها صارت نعمة، وإن كانت أوقفت شيئاً من سيره أو أنقصته، فهي نعمة من جانب، وابتلاء من جانب، كما قال تعالى عن سليمان: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

فحقيقة الخارق: هو أن يوجد منه شيء ليس من عادته ولا استطاعته، كأن يقطع في لحظة ما جنسه يقطع في يوم، أو نحو ذلك كالطيران في الهواء.

(وسائر فرق الأمة) وهم على طبقتين: أبرار وأصحاب يمين، ولا تكون له دائماً في كل وقت، وإذا عرفت أنهم في هذا الزمان كادوا أن يفقدوا، والأكثر فيهم من التخليط ما فيهم[1]!! وليس المراد أنه لا يقع منهم زلة، بل تقع ولكن يرجعون وليسوا معصومين، هذا هو المراد، والله أعلم.

(وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة) وللمصنف كرامات مع أهل زمانه.

---

(١) تبين لك قلة من تقع له.

فصل

ثم من طريقة أهل السنّة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال:

(فصل)

(من طريقة أهل السنّة والجماعة اتباع هدي النبي ﷺ في الاعتقاد والقول والعمل)

(ثم من طريقة أهل السنّة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً) اعتقاداً في الاعتقادات، وأقوالاً في الأقوال، وأفعالاً في الأفعال.

فما أثر عنه وما جاء عنه أقسام: قسم من قوله، وقسم من فعله، وقسم من إقراره، فنتبع ما قال، ونقرر ما قرر، ونفعل ما فعل، فهذا أصل عظيم وباب كبير من أبواب الدين.

(و) كذلك من أصول أهل السنّة مع ذلك: **(اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار)**، ومعرفة ما هم عليه والأخذ بهديهم، كما قال ﷺ: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين» الحديث[1].

(واتباع وصية رسول الله ﷺ) هذا من عطف الخاص على العام، ومن أصولهم أيضاً: اتباع وصية رسول الله ﷺ **(حيث قال:**

---

(١) رواه أحمد ٤/١٢٦، والترمذي ٥/٤٤، رقم ٢٦٧٦.

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة». ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله

«عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها) يعني: شدوا بها، **(وعضوا عليها بالنواجذ)** يعني: امسكوا عليها بالنواجذ الأربع، فإن الشيء النفيس لا يُكتفى بإمساكه باليد فقط.

(التحذير من البدع)

(وإياكم ومحدثات الأمور) حرض على التمسك بما تقدم، وحذر مما أحدث بعده مما يتعبد به، فإن الذي لم يكن على زمنه وأصحابه والسلف الصالح والصدر الأول، فما جاء به فهو البدعة المحضة، لو كان خيراً لسبقونا إليه «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

فإذا لم يكن في القرآن ولم يكن من المأثور عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة والتابعين والصدر الأول فهو بدعة.

(أهل السنّة يرون أن أصدق الكلام كلام الله، ويؤثرون كلامه على كلام من سواه)

(فإن كل بدعة ضلالة»)، البدعة في قول عمر رضي الله عنه: «نعمت البدعة»، مراده من حيث اللغة، وإلا فأصلها معروفٌ زمن النبي ﷺ، أما تقسيم بعضهم البدعة إلى خمسة أقسام فهذا غير مسلم، بل البدعة الذي لا يسوغها الشرع فهي بدعة ضلالة، وما كان لها ما يخولها من الدين ويدل عليها فليست ببدعة ضلالة، بل بدعة لغوية.

(ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله) كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ويرون أن فضل

وخير الهدي هدي محمَّد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمَّد ﷺ على هدي كل أحد، ولهذا سموا أهل الكتاب والسنّة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة،

كلام الله على كلام خلقه، كفضل الله على خلقه.

(وخير الهدي هدي محمد ﷺ) هديه وسيرته، خير الهدي والسيرة، فلا هدي ولا سيرة خير من هديه وسيرته.

(ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس) فلا يعدلون كلام ربّ العالمين بكلام غيره كائناً من كان.

(ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد) كذلك من أصول أهل السنّة: تقديم هدي النبي ﷺ على هدي كل أحد، ولا يعبئون بهدي ما سواه وإن تباعدت بهم الأوطان.

(سموا أهل الكتاب والسنّة لإيثارهم طريق الكتاب والسنة على غيرهما)

(ولهذا) ولأجل كونهم لا يفضلون على كلام الله كلام غيره، ولا يقدمون هدي أحد على هدي محمد ﷺ.

(سموا أهل الكتاب والسنّة) مما تقدم من إيثارهم طريق الكتاب والسنّة، وإيثارهم كلام الله على غيره من أصناف الناس، سموا أهل الكتاب والسنّة.

(سموا بالجماعة لاجتماعهم على الحق وهو الأخذ بالكتاب والسنّة)

(وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة)؛ لأنه يجمعهم شيء واحد، وهو اجتماعهم على الحق، وهو

وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين، والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين، وهم يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة، جميع ما عليه الناس، من أقوال وأعمال باطنة أَو ظاهرة، مما له تعلّق بالدين.

الأخذ بالكتاب والسنّة، والمنع بالكتاب والسنّة، فمن صار كذلك فهو من أهل الجماعة.

(وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين) سواء كانوا قليلين أو كثيرين فهم الجماعة، ولو كان واحداً فهو الجماعة في الحقيقة، كما سمى الله إبراهيم أمة.

(والإجماع: هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين) فهذه الأصول الثلاثة المجمع عليها، فإن كل واحد منها حجة، الكتاب والسنة والإجماع، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وهناك أصول مختلف فيها كالقياس.

(عند أهل السنّة والجماعة ثلاثة أصول يزنون بها جميع ما عليه الناس)

(وهم) يعني: أهل السنّة **(يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة، جميع)** ما جنسه قربة ـ **(ما عليه الناس من أقوال وأفعال باطنة أو ظاهرة)** ما كان راجحاً فهو راجح، وما كان مرجوحاً فهو مرجوح، وما لم يعلم رجحانه ولا مرجوحيته فإذا أمكن رَدّه إلى الكتاب والسنّة، وكذلك مسألة الحلال والحرام كما تقدم، فإن الأصول المعتمد عليها ثلاثة: الكتاب والسنّة والإجماع.

(مما له تعلق بالدين) خاصة مما جنسه يتعبد به إلى الله من

والإجماع الذي ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح، وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة.

فعل أو ترك، ـ إما من تحريمه أو تحليله ـ، أما من جهة الأمور العادية فهذا لا مدخل له فيه.

الإجماع المعتبر: هو ما كان عليه السلف الصالح)

و**(الإجماع الذي ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح)** والذين يلونهم وذلك لكرامة هذه الأمة وأنها لا تجتمع على ضلالة، وإذا قيل: واحتُجَّ، فهو إجماع.

(وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة) في فضاء المعمورة فلا يمكن أن يحصل إجماع إلا ما حصل في ذلك الوقت، فهي أوطان محصورة معروفة، وهي أمصار الإسلام الشهيرة، وهي كانت مرجعاً للدين، وبعدهم لا يقال: أجمع العلماء على كذا؛ لأنه لا ينضبط.

فصل

ثم هم مع هذه الأصول، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(فصـل)

(من أصول أهل السنّة والجماعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

(ثم هم) يعني: أهل السنّة والجماعة **(مع هذه الأصول)** العظيمة والهامة، وعملهم بهذه الأصول والعقائد القيمة المتقدم ذكرها **(يأمرون بالمعروف)** فإنه أصل عظيم وعبادة عظمى من أجلِّ الطاعات، كما أنها مفتقرة أن تفعل ابتغاء وجه الله الكريم، والمعروف: هو ما عرف بالشرع أنه ينبغي سواء من الواجب أو المندوب.

(وينهون عن المنكر) والمنكر: اسم لكل شيء عرف من الشرع والعقل قبحه.

(ما هو المعروف والمنكر؟)

فكل ما أنكره الشرع والعقل فهو منكر، وكل ما استحسنه الشرع والعقل فهو معروف. والمعروف: اسم لكل شيء عرف من الشرع والعقل حسنه.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب عظيم كبير من أبواب الجهاد، فهو من الدين بمكان، ولهذا في النصوص شَرْعِية الأمر به. وقيل: إنه ركن سادس من أركان الدين لأثر ورد.

والمعروف كلمة شاملة وهو: كل ما جاء به الشرع، وأعظمه التوحيد.

على ما توجبه الشريعة.

والمنكر: اسم لكل ما نهىٰ عنه الشرع، وأعظمه الكفر، فما أنكرته العقول السليمة والفطر المستقيمة والشرائع المنزلة فهو منكر، والمعروف بعكسه.

(درجات الأمر بالمعروف)

فأعلى المعروف التوحيد، وأدناه المستحبات، فإن بكُلِّها مما يأمر به أهل السنّة والجماعة، فبعضها ـ مما يأمرون به ـ حتم ووجوب ويقاتِلون عليه، ومنها ما يأمرون به أمر حتم ووجوب ولكن ليس مثل الأول، ومنها ما يأمرون به أمر ندب لا وجوب.

فالأمر بالمعروف عند أهل السنّة درجات ـ طبقات ـ منها مما هو من أركان الدين كالأمر بالتوحيد، ومنها ما هو من واجبات الدين، ومنها ما هو من المندوبات، فهو درجات منه ما هو مندوب كالأمر بالمندوبات، وفوقه الأمر بالواجبات، وفوق ذلك الذي يفتقر الدين إلى صحته.

فأهل السنّة والجماعة يأمرون بالمعروف الذي أعلاه وأعظمه التوحيد، ويفرضون الفرضيات ويأمرون بالمستحبات، وينهون عن الشرك أصغره وأكبره وينكرونه، وينهون عن الكبائر، وينهون عن المكروهات والمحرمات والصغائر.

(من شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن يكون على ما توجبه الشريعة)

والمنكرات يكفي معرفتها جملة، بخلاف الواجبات فإنها جملة وتفصيلاً.

وقوله: **(على ما توجبه الشريعة)** فإن قوماً يرونه لكن لا على ما توجبه الشريعة، كالذي عليه الخوارج والمعتزلة الذين يرون

....

الخروج على الأئمة، وقتال الأئمة على شيء من المعاصي التي لا تنافي الدين.

«على ما توجبه الشريعة» قيد، يعني: لا مطلقاً، فإن قوماً تصدوا له وزعموه، ولكن خرجوا عن حد الشريعة، فإن منهم من رأى الخروج على المسلمين على غير ما توجبه الشريعة، فالخوارج أمروا بالمعروف حتى جوّزوا الخروج على الأئمة، وأما أهل السنّة والجماعة فهم على ما توجبه الشريعة.

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد له من أمرين: الإخلاص والمتابعة، فمن لم يخلص أمره ونهيه فهو مشرك.

ومن أخلص ولكن ما تابع فهو مبتدع كالمعتزلة والخوارج، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد أصولهم، لكنهم لم يتابعوا في ذلك ما جاء به الرسول ويُفْرِطُون في ذلك حتى جوزوا الخروج على الأئمة العصاة، وسمَّوا قتالهم ولاة المسلمين أمراً بالمعروف، والمصنف احترز بهذا القيد فقال: «على ما توجبه الشريعة»، فإن كثيراً ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر خارج عن هذا القيد. فلا يُزاد في ذلك فيَدْخل في سلك هؤلاء، ولا يُنقص فيدخل في سلك الإباحية أو أهل الشهوات.

ويرون إقامة الحج والجهاد، والجُمَع والأعياد مع الأمراء،

(من أصول أهل السنّة: إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء، أبراراً كانوا أو فجاراً)

(ويرون)، كذلك أهل السنّة يرون **(إقامة الحج)** فإنهم في ذلك كالأئمة للناس، يعني: مع ولاتهم المسلمين، بأن يكونوا هم المتولين منهم أعمال الحج، واتباع المسير فيها، والذهاب إليها، وتدبير أمرها، أو من يقوم مقامهم، كنوابهم الذين يتولون إقامة الحج بالمسلمين في سيرهم ونزولهم، وظعنهم وإقامتهم ونحو ذلك.

(والجهاد) كما في الحديث: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير، براً كان أو فاجراً»[1]، والجهاد جهاد الكفار أعداء الله، يعني: مع ولاة الأمور، فإنهم الذين يتولون إقامة الجهاد في سبيل الله، كما أنهم يتولون فَيئَه وخُمُسَه ونحو ذلك، فكذلك يتولون إقامته وتدبيره وأمره وشؤونه، فلا ينازعون فيه، فإنه لا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة.

(والجُمَع) إقامة الجُمَع مع الأئمة والصلاة خلفهم واجبة ولو كانوا عصاة فجاراً، فإنه تصح الصلاة خلفهم، والمراد إذا كان مسجد واحد يصلي به إمام فاجر، فإن الصلاة خلفه أهون من ترك الصلاة مع الجماعة، وهذا بخلاف الصلوات الخمس فإنها لا تجب في مسجد واحد، وأما الجمعة فتجب في مسجد واحد على قول من لا يرى التعدد إلا لمسوغ شرعي.

(والأعياد) مع الأئمة، فيُصلَّى **(مع)** الأئمة **(الأمراء)**، يعني: كون الأئمة هم الذين يتولون إقامة ذلك.

---

(١) رواه أبو داود ٣/ ١٨، رقم ٢٥٣٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٢١، رقم ٥٠٨٣.

أبراراً كانوا أَو فجاراً. ويحافظون على الجماعات،

(أبراراً كانوا أو فجاراً) فإن أهل السنّة يرون إقامة ذلك، سواء كانوا تقاة فلهم وللناس، إن كانوا أبراراً فهذا من فضل الله وبرحمته، وإن كانوا فجاراً فهو من ذنوب المسلمين أن ولوا عليهم من فجارهم، والفجار فجورهم على أنفسهم، فإن قاموا بأمر دينٍ وإسلام فيجب القيام به معهم، فالشرع يقيمونه ومعصيتهم عليهم، فإن هذه طاعات تفعل لله، فيشارَكون فيها، فهذا اتباع للدين ولو على أيدي الفجار.

فالمسلمون يشاركونهم في الطاعة، في بِرِّهم وصلاتهم وأعمالهم الصالحة، ولا يشاركونهم في المعاصي، فما كان من فجور وفساد فعليهم ولا يشارَكون فيه.

وأما الصلاة خلف المبتدع، فإن كانت بدعته توصله إلى الكفر وكان يخاف من سطوته صلَّى وراءه وفارقه في النية.

(المحافظة على الجمع والجماعات من أصول أهل السنّة خلافاً للرافضة)

(ويحافظون على) الجمع و**(الجماعات)**، هذا مما عليه أهل السنة، الصلوات الخمس مع الجماعة، وكذلك الجمع، وقد همَّ النبي ﷺ بإحراق من لم يشهد الجماعة. والجمعة أهم وآكد.

«يحافظون على الجماعات» يعني: وراء كل مسلم بخلاف الروافض، فإنهم لا يرون إقامتها إلا وراء معصوم، وينتظرون محمد العسكري ـ وقيل: إنهم مُعِدُّون له بغلة وفرساً ـ متى خرج صلوا وراءه، وهذا أصل فاسد ومردود عليهم، فإنهم أنفسهم غير معصومين، بل تقع منهم المعاصي، بل والكفر، فكيف يرون أن لا يصلوا إلا وراء معصوم؟!.

ويدينون بالنصيحة للأمة،

(من معتقد أهل السنّة: النصيحة لجميع الأمة)

(ويدينون بالنصيحة للأمة) كذلك أهل السنّة والجماعة: يدينون بالنصيحة لجميع الأمة المحمدية.

والمراد بالنصيحة: خلوص السريرة للمؤمنين من قولهم: «ذهب ناصح».

وخلوصها سلامتها وخلوها من غلّ أو حقد أو دغل، فهي صافية طاهرة نقية، ساعية في الخير للمسلمين، ساعية في دفع الضر عنهم.

فهي تعتمد شيئين: السلامة من الغش، وبذل المجهود.

فمن كان مدخول القصد للمسلمين فهذا عادم النصيحة، ومن كان سالم القصد وقصَّر فهذا غير ناصح، فهي بذل المجهود مع خلوص السريرة للمسلمين، بحيث يحب لهم الخير والدخول فيه، ويكره لهم الشر، ويؤثِّر ذلك فيه.

فأهل السنّة يدينون بالنصيحة للأمة المحمدية كلِّهم، خاصتهم وعامتهم، في دينهم وإرشادهم وهدايتهم وإنقاذهم من المهلكات، وكذلك السعي لهم في ذلك، ومحبته لهم، وفي معاشهم ومصالحهم كلها، ولهذا في الحديث: «الدين النصيحة، قلنا: لمن، قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

---

(١) رواه مسلم ١/ ٧٤ رقم ٥٥.

ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً،

(من أصولهم: العمل بمقتضى ما اعتقدوه، ومن ذلك العمل بالنصيحة)

(ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن) ويعملون بمقتضى ما اعتقدوه، فمتى تخلف العمل بموجب ما اعتقدوه دلّ على تخلف الاعتقاد، ومتى ضعف دلّ على ضعف الاعتقاد، فكل من اعتقد شيئاً حقيقةً ولم يكن على ذلك مكدِّر لا غبار شبهة ولا شهوة، فإنه لا يتخلف عنه بحال عن أي عمل.

(هل العلم يستلزم الهداية أم لا؟)

وهذه مسألة هل العلم يستلزم الهداية أم لا؟ قولان لأهل العلم:

طائفة من أهل العلم: ذهبوا إلى أنه يستلزم الهداية.

وقوم قالوا: لا يستلزم الهداية، واستدلوا بقصة بلعامَ وعلماءِ اليهود وغيرِهم ممن علم وتخلف منه العمل.

وفصَّل المسألة شيخ الإسلام وابن القيم، فقالا: العلم التام السالم من مكدِّرٍ ـ شبهةٍ أو شهوةٍ ـ لا يتخلف عنه العمل أبداً.

(من المؤمنين من لو ترك وحده لسقط)

(كالبنيان يشد بعضه بعضاً) يعني: أن اتفاق المؤمنين بعضهم ببعض كالبنيان، وهذا في أمور دينهم ودنياهم، بحيث يستقيم ويثبت، فإذا كان هذا شأن البنيان بعضه مع بعض، كان واجباً على المسلم أن ينصح أخاه، فإن هذا كالبنيان يشد بعضه بعضاً في دينه ودنياه، يشد قويُّه ضعيفَه، فإن البنيان منه القوي، ومنه الضعيف، فإذا تماسك وشد بعضه بعضاً ولصق بعضه ببعض استقام كله؛ فإن من المؤمنين من ليس كامل الإيمان قَوِيَّه، فلو تُرك وحده لسقط،

فإذا كان مع جماعة المسلمين تقوَّى بهم وصار منهم ومثلهم، وتقوّى من ضعفه بجماعتهم.

ومنهم من هو ضعيف الإيمان لا يستقيم استقامة تامة.

(**وشبك بين أصابعه»**) الكريمة إشارة إلى حقيقة ذلك، وأن المؤمنين كالأصابع المتداخل بعضها في بعض.

وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد

(من معتقد أهل السنّة: مودتهم ورحمتهم وعطفهم على إخوانهم المؤمنين)

(و) يعتقد أهل السنّة معنى **(قوله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في توادهم)**، فإنه من أعظم الأصول العظيمة: الحب في الله. «توادهم»: تحاببهم، و«توادهم» أصله تواددهم وهو التحابُّ، فالتوادد: هو التحابُّ، وفي الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.. إلى قوله: وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله»[1]، يعني: المحبة الدينية التي هي لله.

(وتراحمهم) التراحم هو: رحمة بعضهم بعضاً، كما وصف الله المؤمنين في قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

(وتعاطفهم) والتعاطف يعني: عطف بعضهم على بعض بالمنافع والمصالح، ويلجأ إليه ونحو ذلك من رجوع بعضهم على بعض، ورفق بعضهم ببعض.

(كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد) رجع بعضه إلى بعض، ووجع من أجل ما اشتكى، فينعطف عليه الجسد ويتداعَى، يعني: ينادي بعضه بعضاً هلُمَّ نحمل معه الألم، بل ونكون معه بالسوية نحمل كما حمل، ولو كان الألم في

---

(١) رواه البخاري ١/ ١٤، رقم ١٦، ومسلم ١/ ٦٦، رقم ٤٣، وتمامه: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

بالحمى والسهر».

بَضْعة من الجسد، سهر ذلك الجسد كله، (**بالحمى**) وهي شدة الحرارة، (**والسهر**): عدم النوم، فمثلاً الوجع يكون في الأصبع الواحد، فيتألم منها سائر الجسد ويشتكي، ويناله من الوجع ـ وهو في طرف الأنملة ـ فيسهر.

(من أصول أهل السنّة: الأمر بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمرّ القضاء)

(ويأمرون بالصبر عند البلاء)، أهل السنّة والجماعة: يحثون على الصبر، والصبر ثلاثة أقسام: صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر على المصائب.

(والشكر عند الرخاء) كذلك أهل السنّة والجماعة: يأمرون به.

والشكر: هو الاعتراف بها في الباطن؛ كون الله أنعم بها، وهو أعم من القول باللسان، وأركانه ثلاثة: اعترافه بنعمة الله عليه، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على مرضاته.

والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، هما الإيمان.

الصبر نصف الإيمان، وذلك أن العبد متقلب بين نعم يجب عليه شكرها، وبين صبر عن المعاصي يجب عليه اجتنابها، والدين كله في هذين الشيئين: فعل المأمور، وهو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر، وترك المحظور، وهو الصبر عن المعاصي.

وهذان الأمران من الدين بمكان، بل الدين أمران: صبر وشكر، فإذا قام عند المصائب بالصبر، وعند النعم بحقها وهو الشكر، صار عابداً لله حقاً، وأعظم أنواع الصبر، الصبر عن المعاصي وهو أشقها، وعلى المصائب، ويفهم من كلام ابن القيم أن الصبر على الطاعات أفضل، وذلك أن الطاعات مرادة بالذات، أما المعاصي فليست مرادة بالذات، وإنما هو الطاعة لله، والصبر على الطاعة: إلزام النفس على فعلٍ.

والرضا بمُرِّ القضاء،

(**و**) من أصول أهل السنّة: (**الرضا**)، والرضا: قد يكون بمعنى التسليم، وربما أنه أشهر معنىً من التسليم، فهو من الكلمات التي هي أقرب إلى الذهن من التسليم.

(**بمُرِّ القضاء**) هذا يرجع إلى الصبر ولكنه غيره.

حالة الرضا: أن يستوي عنده البلاء وعدمه.

والرضا مرتبة أعلى من مرتبة الصبر، وهذه المرتبة المندوب فيها أفضل من الواجب، وهذا من المراتب التي المندوبات فيها أفضل من الواجبات، وإلا فالأصل أن الواجب أفضل من المندوب إلا في أمور منها هذا، كما في الحديث: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه»(١)، فإنه دالّ على أن الفرض أفضل من المستحب، فالرضا هنا أفضل من الواجب وهو الصبر، والصبر عند المصائب عزيز في الناس، ثم الرضا عزيز.

وللعبد عند المصيبة أربعة أحوال ممكنة:

١ ـ الجزع.

٢ ـ الصبر.

٣ ـ الرضا.

٤ ـ الاستشعار بأنها نعمة، وهذه تكاد أن تكون تذكر ولا توجد.

فالصابر قليل، وأقل منه الرضا، وأقل منه الشكر.

(١) رواه البخاري ٥/ ٢٣٨٤، رقم ٦١٣٧.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»

(أهل السنّة يدعون إلى كل خلق عالٍ نفيس، وإلى كل عمل حسن)

(ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال) يعني: خلق كريم، وعمل حسن، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] أي: لِمَا رُكِز في القلوب استحسانه.

فكل خلق وفعل حسن دلّ على حسنها الشرع والفطرة والعقل، فأهل السنّة يعتقدون حسنه، ويعملون به، ويأمرون به، وكل خلق وفعل يستنكر في الفطر والعقول، يكرهونه وينهون عنه.

فهم يدعون إلى كل خلق عالٍ نفيس، وعمل حسن.

(اعتقادهم أن المؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا حسن خلقه)

(ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً») ويقبلونه ويعملون بموجبه، ويُحسِّنون أخلاقهم مع إخوانهم المسلمين، ويسعون ويَجِدُّون في تحسين أخلاقهم مهما أمكنهم، ويحثون الغير على ذلك، فهو يَجِدُّ في أن يكون حسن الخلق ويوصي غيره.

والخُلُق: هو صورة الإنسان الباطنة، والخَلْق: هو صورته الظاهرة.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩١.

ويندبون إِلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك،

(لا يقابلون قاطع الرحم بالقطيعة)

(ويندبون إلى أن تصل من قطعك) من الأرحام، لا تقطعه حين يقطع، ليبوء بإثم الذي مَنْ قبله، وتنجو من تلك القطيعة، فلا تقابله فمن كان ذا رحم فلا تقطعه كما قطعك، وقد سأل رجل النبي ﷺ فقال: «إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[١]، وقال: «ليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[٢]، وقطيعة الأرحام ليس فيها انقسام[٣].

وتمام الصلة الحقيقية: بأن تكون أنت الواصل ولو لم يصلك، فإذا فعلت الخير، فالخير ما يجر إلا إلى خير، وهو أن يتقي الله فلا يقطعك.

(لا يقابلون من حرمهم بمثل ما فعل)

(وتعطيَ من حرمك) الذي له حق عليك أن يعطيك، يندبون إلى أن لا تقابله بمثل ما فعل، فإن أهل السنّة يندبون إلى خير الأمرين، فمن عاملك بالحرمان فيما ينبغي أن يعطيك، فأنت لا تقابله بالحرمان، بل ابذل له حقه، ولا تقابله بما قابلك به.

(ويعفون عمن ظلمهم)

(وتعفوَ عمن ظلمك) وكذلك من أساء إليك وتعدّى عليك وظلمك، تعفو عنه ولا تقابله بمثل فعله، وإن كان جائزاً، وهو من

---

(١) رواه مسلم ٤/١٩٨٣، رقم ٢٥٥٨.

(٢) رواه البخاري ٥/٢٢٣٣، رقم ٥٦٤٥.

(٣) أي: يجب عليك صلتها على كل حال، سواء وصلوك أم قطعوك.

....

باب القصاص قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ لكن الأفضل أن تعفو عنه فدرجة العفو درجة عليا.

(الظالم له عند أهل السنّة مرتبتان: المقاصة والمسامحة)

والظالم له عند أهل السنّة مرتبتان: المقاصة والعدل، والمسامحة والفضل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

(ويأمرون ببر الوالدين أحياءً وأمواتاً)

(ويأمرون ببر الوالدين) وهو فعل الجميل معهما، وضده العقوق وهو من المحرمات، وبر الوالدين من الواجبات، والأمر ببرهما جاء قرنه بحق الله تعالى فإنه أعظم حق بعد حق الله وحق الرسول ﷺ، فالوالدان أصلك، وهما سبب إيجادك، فأعظم حق عليك حق الذي خلقك، ثم بعد ذلك حق النبي ﷺ؛ لأنه سبب نجاتك، وبعد ذلك حق الوالدين كما في الآيات التي فيها قَرْن حق الوالدين بحقه تعالى.

ومن بر الوالدين بعد الوفاة: الدعاء والصدقة وهذا ثوابه لهما، وأن توقف وتجعل المثوبة لهما، ومودة أصدقائهما، ففي الحديث: «هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»[١].

فبين ﷺ فعل بعض هذه الأوجه، وحديث «من بر الرجل والديه أن يبر ما يود» أو ما هذا معناه[٢].

(ويبذلون الخير لذوي الأرحام)

(وصلة الأرحام) بأن تصل الأرحام أي: القرابات، بأن تفعل معها الخير.

فالصلة من الوصل، بأن تبقى بعضها منضم مع بعض بالخير

(١) رواه أحمد ٣/٤٩٧، وأبو داود ٤/٣٣٦ رقم ٥١٤٢.

(٢) رواه مسلم ٤/١٩٧٩ برقم ٢٥٥٢ بلفظ: «أبر البر، أن يصل الرجل ود أبيه»، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ٧/٢٨٣، رقم ٧٥٠١ بلفظ: «من بر الرجل أباه بعد موته حفظه أهل ود أبيه من بعده».

والنصح، هذا واجب لكل مسلم، فإن كان رحماً فهو أولى، وفي الحديث: «ليس الواصل بالمكافيء»[1].

(ويحسنون معاملة الجار)

(وحسن الجوار) ويأمرون أيضاً: بحسن الجوار، يعني: معاملة الجار بالجميل بالمعاملة الحسنة، بكفّ الأذى، وإيراد الخير له، والصفح والستر عما يصير منه إن صار، فحقه كبير عظيم. فإذا كان مسلماً اجتمع له حق الإسلام وحق الجوار، فإن كان قريباً فهو آكد، وفي الحديث: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2]، وحسن الجوار حتى مع الذمي إذا تُصُوِّر أن يكون في دار ذمة.

(ويحسنون إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل)

(والإحسان إلى اليتامى)، اليتيم: الذي مات أبوه قبل بلوغه، وما بعد البلوغ فليس بيتيم، فاليتيم فَقَدَ مَنْ يعوله ويقوم به، فالإحسان من حيث هو له محله، ولكن من آكد محالِّه اليتامى، وجاء في حق اليتيم أحاديث، منها: «كافل اليتيم أنا وهو كهاتين في الجنة»[3].

(و) الإحسان إلى **(المساكين)**: المحاويج، ودخل فيهم المحاويج سواء كان يجد بعض الكفاية أو لا، فأهل السنّة والجماعة يأمرون بالإحسان إليهم بما يدفع مسكنتهم.

---

(١) رواه البخاري ٥/ ٢٢٣٣، رقم ٥٦٤٥.

(٢) رواه البخاري ٥/ ٢٢٣٩، رقم ٥٦٦٩، ومسلم ٤/ ٢٠٢٥، رقم ٢٦٢٥.

(٣) رواه البخاري ٥/ ٢٠٣٢، رقم ٤٩٩٨، ومسلم ٤/ ٢٢٨٧، رقم ٢٩٨٣.

(وابن السبيل) يعني: المسافر، فإنه مَحلٌّ للإحسان، وذلك أنه في سفر قد فارق أهله ووطنه فهو بحاجة إلى من يحسن إليه.

(ويرفقون بالمملوك)

(والرفق بالمملوك) النصوص جاءت في الرفق بالمملوك ومواساته، وأنه لا يُكلَّف ما شَقَّ، وفي الحديث: «إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[1].

فهو إنسان آدمي مثلك، فجعل لك عليه الرق نعمة لك وابتلاء وامتحاناً، فمتعين عليك الرفق به عند جهله وغشمه، فجاء في الشرع الرفق به، لكونه تحت يدك ولهذا هو ليس بمملوك من كل جهة.

فيرفق بهم وفي معاملتهم وطعامهم وشرابهم، وسائر ما يحتاجون إليه.

كل هذا مما يأمر به أهل السنّة والجماعة، وأدلته ومكانته وفضله من الكتاب والسنّة معلوم.

---

(١) رواه البخاري ٢/ ٨٩٩، رقم ٢٤٠٧.

وينهون عن الفخر والخيلاء، والبغي والاستطالة على الخلق ـ بحق أَو بغير حق ـ،

(وينهون عن الفخر والخيلاء)

(وينهون عن الفخر) أي: الافتخار، وذلك بذكر الفضيلة مفتخراً بها على غيره، والفخر لا ينبغي، فإذا كان لدين فهي نعمة يستعين بها على شكر الله[1].

(والخيلاء): هي الكبر والتعاظم، فإن المتكبر يتخيل نفسه أعظم مما هي عليه، ويراها أكبر مما هي عليه.

(وينهون عن البغي والاستطالة على الخلق)

(والبغي والاستطالة على الخلق): الارتفاع عليهم بيده، أو بكلام، أو نحو ذلك، والتعالي عليهم سواء **(بحق)** عند أسباب ذلك **(أو بغير حق)**.

الترفع والزيادة عليهم سواء بحق أو بغير حق، ولا سيما إذا صار فخراً بغير مفخر[2]، فلا توجب نعم الله معصية الله بها، بل توجب طاعة الله بها؛ وفي الحديث: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والافتخار نوعان: محمود ومذموم، فالمذموم إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعاً عليهم، والمحمود إظهار الأحوال السنية والمقامات الرفيعة لا على وجه الفخر، بل على وجه التعظيم للنعمة والفرح بها وذكرها والتحدث بها والترغيب فيها، وذلك من المقاصد في إظهارها، كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر»، وقال سعد رضي الله عنه: «أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله» مدارج السالكين ٣/ ٤٢٤.

(٢) قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «نهى سبحانه على لسان رسوله عن نوعي الاستطالة على الخلق: وهي الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر، وإن كان بغير حق فقد بغى» اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٦٤.

حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1]، ولما بيّن ﷺ ما هو عليه من السيادة قال: «ولا فخر» بل على وجه التحدث بنعمة الله، وفي الحديث: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه»[2]، وفي الحديث الآخر: «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»[3].

والكبر على قسمين: قسم: يكون له ملك، وقسم: عائل كما في الحديث[4] فهو محرم على كل أحد.

(ويأمرون بالأخلاق العالية وينهون عن رذائلها)

(ويأمرون بمعالي الأخلاق) المعالي: جمع عالي، يعني: العالية الرفيعة مطلقاً التي جاء من الشرع حسنها وأعلاها، وقد قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فيأمرون بكل خلق عالٍ جميل.

(وينهون عن سفسافها) ورذائلها أي: مراذل الأخلاق وسفالات الأخلاق. فهم ينهون عن كل خلق دنيء رذيل.

الخلق: ـ بضم الخاء ـ هو في الصورة الباطنة، ـ وبفتحها ـ في الصورة الظاهرة.

(١) رواه مسلم ٤/٢١٩٨، رقم ٢٨٦٥.

(٢) رواه الترمذي ٥/٧٣٤، رقم ٣٩٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٣٢.

(٣) رواه الترمذي ٥/٧٣٤، رقم ٣٩٥٤.

(٤) قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر» رواه مسلم ١/١٠٢ رقم ١٠٧.

وكل ما يقولونه أو يفعلونه من هذا وغيره، فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة،

(كل ما يقولونه ويفعلونه متبعون فيه الكتاب والسنّة)

(وكل ما يقولونه أو يفعلونه من هذا) الذي تقدم **(وغيره)** مما هو من أنواع الحق من أصولهم وعقائدهم.

(فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنَّة) مِعْولهم ومستندهم الكتاب والسنّة.

كل ما تقدم إيضاحه وشرحه عن أهل السنّة، إنما هم أبداً متبعون فيه للكتاب والسنّة، وحبل القياد في يد الكتاب والسنّة، يسيرون حيث سار الكتاب والسنّة، لا استحسان منهم لشيء، ولا نظر لشيء.

وطريقتهم هي دين الإِسلام الذي بعث الله به محمَّداً ﷺ، لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إِلَّا واحدة، وهي الجماعة. وفي حديث عنه ﷺ أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب، هم أهل السنّة والجماعة،

(طريقتهم هي دين الإسلام)

(**وطريقتهم**) يعني: كثير من الناس سلكوا طرقاً ـ كالتيجانية وغيرها ـ، فعندما يكون للناس طرائق، فإن أهل السنّة طريقتهم شيء واحد: و(**هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ**) ظاهراً وباطناً، فكأن المصنف بين لهم طريقاً، لكن لا كطريق أهل الطرائق، فقط طريق واحد وهو دين الإسلام، فأهل السنّة ليس لهم دين غير دين الإسلام هذه طريقتهم ظاهراً وباطناً.

(**لكن**) استدراك مما تقدم وهو قوله: «وطريقتهم هي دين الإسلام»، وهذا الاستدراك إنما هو لإرادة شيء مقدر، وجه قول «أهل السنّة».

(**لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة**)، فهو واقع بكل حال (**كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وفي حديث عنه ﷺ أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب، هم أهل السنّة والجماعة**) هذا جواب لما ذكر.

....

(لماذا قيل لهم: أهل السنّة والجماعة، ولم يقل: المسلمون؟)

كأن قائلاً قال: إذا كانت طريقتهم هي الكتاب والسنّة فلم لم يقل: المسلمون؟[1].

قيل: لما تفرق الناس إلى ثلاث وسبعين فرقة، ولما لم يكن متمسكاً بالكتاب والسنّة سوى فرقة واحدة، وهم أهل السنّة والجماعة، لقبوا أهل السنة والجماعة، يعني: أنهم تمسكوا واتحدوا في هذا الطريق، يعني: أنه ليس شيئاً خفياً، ولا من الطرق، بل هو هذا الطريق البيِّن الواضح.

(عبارة أخرى):

قيل: لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، المحض فقط من الثلاث والسبعين هي فرقة واحدة، وهم أهل السنّة والجماعة، صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنّة والجماعة، فكأنهم قيل لهم: هم على ما كان عليه النبي ﷺ وأتباعه، فإن من انتسب إلى الإسلام فيهم بدع، منها ما تخرجهم عن الإسلام، ومنها ما لا تخرجهم من الإسلام، ليس كل من انتسب إلى الإسلام فهذه عقيدته، لا، بل هذه عقيدة فرقة واحدة، وهم أهل السنّة والجماعة[2].

---

(١) (عبارة أخرى): كأن قائلاً قال: إذا كانت طريقتهم هي دين الإسلام، أليس هذا من الطرق التي يلقبون بها، فلم لا يكتفى بذلك وأن يقال لهم: المسلمون؟.

(٢) (عبارة أخرى): إنما قال ذلك، لأن الناس اشتهروا بالطرائق التي تشعبت بالناس كالتيجانية وغيرها، ـ منها ما هو في زمن المصنف وبعده ـ صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب، هم أهل السنّة والجماعة.

يعني: إنما لقبوا بذلك؛ لكون أهل السنّة تمسكوا بذلك لا فلانية، ولا فلانية، =

(طبقات الخلق)

(وفيهم الصديقون والشهداء)، هؤلاء طبقاتٌ من الخلق، وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء، فإنهم طبقات بعد الأنبياء، وهذه المذكورة في الآية على الترتيب من الأعلى إلى الأدنى، وفيها أربع طبقات، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾. وأفضل هذه الأصناف: الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، فالأنبياء مكانتهم شيء معروف، وما سواهم كلهم من هذه الأمة، فطبقات المكلفين المؤهلين للشرع ثمانية عشر مذكورة في مُصنَّف[1].

المقصود أنه في أهل السنّة والجماعة من فيهم هاتان الصفتان.

والصديقون: جمع صديق، والصديق: فعيل من صيغ المبالغة، يعني: كثير وعظيم التصديق بالحق، وهم في هذه الأمة كثير، ورئيسهم وأفضلهم صديق هذه الأئمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أعظمهم وأكبرهم.

وفي أهل السنّة والجماعة: الشهداء: جمع شهيد، وأفضل الجهاد القتل في سبيل الله.

فكلهم موجودون في هذه الأمة، يعني: أهل السنّة والجماعة موجود فيهم الصديقون والشهداء.

= أهل سنّة الرسول ﷺ، ومجتمعين على إيثار ما جاء به النبي ﷺ.

(عبارة أخرى) قيل: الجواب أنه لما كان المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنّة والجماعة، قيل لهم: أهل السنّة والجماعة.

(١) ذكرها ابن القيم في آخر كتابه طريق الهجرتين ص ٤٥٣.

وفيهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة.

(الأئمة الكبار في أهل السنّة)

(وفيهم) ـ وفي أهل السنّة ـ **(أعلام الهدى)** المعنوي، الأعلام: جمع علم، وهو في لغة العرب: الجبل الكبير العظيم على الطريق، سمي علماً؛ لأنه علم على الطريق التي يعلم به الجهات والطرقات.

يعني: في أهل السنّة أئمة كبار يهتدى بهم في الدين كما يُهتدى بالجبال الكبار.

(و) في أهل السنّة **(مصابيح الدجى)**، المصابيح: جمع مصباح التي تستضيء بنورهم الأمة، وذاك العلماء الكبار، وهم الذين يضيء علمهم ويزول الجهل بضيائها، وقيل لهم ذلك؛ لأنه يهتدى بهم في ظلمات الجهل، وهم كالسرج في الظلم يستضاء بهم، وذلك لما أوتوه من العلم الموروث.

كلهم في أهل السنّة موجودون.

(أولو) يعني: أصحاب **(المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة)**.

وفيهم الأبدال، وفيهم أئمة الدين، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

(في أهل السنّة أناس أهل صلاح يرحم الله بدعائهم الأمة وهم الأبدال)

(وفيهم الأبدال) الأبدال: هم أناس صلحاء في الأمة تجاب دعواتهم فيدفع الله بدعواتهم عن المسلمين، فبوجودهم في الناس يرحم الله بدعائهم الناس، وسموا أبدالاً؛ لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر، أخذه بعض الناس من قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**﴾.

يعني: في أهل السنّة رجال أهل صلاح وخير لا يزالون في الناس، يرحم الله بسببهم المسلمين ببركة دعائهم، والمصنف ذكر هذه، لأحاديث جاءت في هذا ولكنها ضعيفة، فالمصنف ذكرها يعضد بعضها بعضاً «لا يزال في أمتي أبدال»[1].

(وفيهم أئمة الدين)

(وفيهم أئمة الدين) مثل الأئمة الأربعة أئمة المذاهب وغيرهم من الأئمة قبلهم بأزمان وبعدهم، ووجود الأئمة فيهم دليل أنهم من أهل السنّة وليسوا من أهل البدعة، وصاحب البدعة لا يثنى عليه، بل يذم.

(الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم) من شأنهم طلب الهدى واتباعه، والأئمة ليسوا محصورين في الأربعة لكن الأربعة اشتهروا أكثر.

فإن الأئمة الأربعة كونهم أهل هدى وخير وعلم، لا نزاع

---

(١) رواه الإمام أحمد ٥/ ٣٢٢ رقم ٢٢٨٠٣ بلفظ: «كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً».

وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة».

فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم،

بين المسلمين أنهم أئمة، وليسوا معصومين في جميع أقوالهم، فإن المعصومين الرسل، فإنه ليس شرطاً أن لا يوجد في أحد زلة، لا.

(أهل السنّة والجماعة هم الطائفة المنصورة)

(وهم) ـ أي: أهل السنّة والجماعة ـ **(الطائفة)** الباقية وجودها في الناس **(المنصورة)** وهم الفرقة الثالثة والسبعون **(الذين قال فيهم النبي ﷺ)** ـ المثنى عليهم في حديث ـ: **(لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)** معنى ظاهرين: عالين منصورين، عالين كما في الآية: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فإن الشيء كلما كان منصوراً صار جلياً، فالظهور تبع للنصر والتأييد، وكلما كان أقل نصرة صار أقل ظهوراً.

(لا يضرهم من خذلهم) يعني: ترك نصرتهم، **(ولا من خالفهم)** وضادهم وعاداهم **(حتى تقوم الساعة)**. فإن الله سبحانه وتعالى من عنايته أن تلك الطائفة يحفظ الله بهم الدين، وتقوم بهم الحجج على الأمة.

(فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم) يعني: من تلك الطائفة المنصورة ظاهراً وباطناً، هذا دعاء من المصنف أن يجعله الله منهم وأصحابه، ومن أراد صار حريصاً على هداية الناس.

وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب، والله أعلم.

وصلَّى الله على محمَّد، وآله وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

(**وأن لا يزيغ**) يميل (**قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب**) يعطي (**لنا من لدنه رحمة**) يعني: من عنده، منّاً منه وفضلاً، (**إنه هو الوهاب، والله أعلم، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً**).

الفهرس

للتوزيع

هاتف: ٠٥٠٥٤٤٣٢٤٨


ISBN 978-9960-58-810-X
9 789960 588100

تَيْسِيرُ الوُصُولِ

شرح

ثَلَاثَةِ الأُصُولِ

ⓒ عبد المحسن بن محمد القاسم، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبد المحسن بن محمد
تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول/ عبد المحسن بن محمد القاسم ـ
ط ٢ ـ الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٢٢ ص: ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ ـ ٠٠٣٧ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ العقيدة الإسلامية أ ـ العنوان
ديوي ٢٤٠ ١١٨٨/ ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١١٨٨/ ١٤٢٩
ردمك: ١ ـ ٠٠٣٧ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٢٩ هـ

تَيْسِيرُ الوُصُول
شَرح
ثَلاثَةِ الأُصُول

د. عبدالمحسن بن محمد القاسم
إمام وخطيب المسجد النبوي

إذا رغب إمام المسجد قراءة هذا الكتاب على جماعة المسجد، أو رغب رب الأسرة قراءته على أسرته، أو غيرهما، فقد تم تقسيم هذا الكتاب إلى مجالس، كل مجلس ينتهي بهذه العلامة *

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فإن «**ثلاثة الأصول**» للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ، من أنفع المتون المؤلفة في أصول الدين، وقد تلقاها طلبة العلم والعامة بالحفظ والمدارسة، لكونها قاعدة في العقيدة، ولقد وهب الله عز وجل الإمام العلامة محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ حسن التصنيف، ودقة الترتيب، وقوة الاستدلال مع جزالة اللفظ وجمال البيان، وقد جاءت ثلاثة الأصول شاملة لذلك كله، قال عنها حفيد المصنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: «**فما أعظم نفعها على اختصارها لطالب الهدى**»[1].

موضوع ثلاثة الأصول

ففيها الأصول التي يجب على الإنسان معرفتها، وهي معرفة العبد ربه، وأنواع من العبادة التي أمر الله بها، ومعرفة العبد دينه، ومراتب الدين، وأركان كل مرتبة، ومعرفة النبي ﷺ في نبذة من حياته، والحكمة من بعثته، والإيمان بالبعث والنشور، وركنا التوحيد وهما الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

الشيخ محمد ابن عبد الوهاب يلقن الطلبة والعامة ثلاثة الأصول

ولكونها قاعدة في العقيدة فقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يلقنها الطلبة والعامة، قال الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ: «**وقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: يلقن الطلبة والعامة هذه**

(١) الدرر السنية ٤/ ٣٣٨.

الأصول، ليدرسوها ويحفظوها، ولتستقر في قلوبهم، لكونها قاعدة في العقيدة»[1] . وكانت تقرأ على الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ ويشرحها كل يوم[2] .

رسائل صدرت بها ثلاثة الأصول

وقد صُدِّرت ثلاثة الأصول بثلاث رسائل نافعة عظيمة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ هي قواعد في الدين:

الأولى منها: في وجوب العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه.

والثانية: في توحيد الربوبية، والألوهية، والولاء والبراء.

والثالثة: في بيان التوحيد وضده.

وبذلك جاءت ثلاثة الأصول مع الرسائل الثلاث عقداً مكتملاً في أصول الدين، ودرة مضيئة للعابدين الموحدين، قال عنها الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ: **«هذه رسالة مهمة في العقيدة»**[3] .

الولاة يأمرون العامة بتعلمها وفهمها

ولأهميتها وغزير نفعها وحاجة المسلم إليها كان العلماء يحثون الولاة لإلزام الناس بتعلمها وفهمها، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: **«فيَلْزم الأمير أن يأمر جميع المدرسين وأئمة المساجد، بالحضور عند من يعلمهم دينهم، ويلزمهم القراءة فيما جمعه شيخنا ـ رحمه الله ـ في كتاب التوحيد، من أدلة الكتاب والسنة التي فيها الفرقان بين الحق والباطل، فقد جمع على اختصاره خيراً كثيراً، وضمنه من أدلة التوحيد ما يكفي مَنْ وفقه الله، وبين فيه الأدلة في بيان الشرك الذي لا يغفره الله، ويلزمهم سؤال العامة عن أصول الدين الثلاثة بأدلتها، وأربع القواعد»**[4] .

---

(١) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن باز ص ٢١.

(٢) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ١/ ١٢.

(٣) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن باز ص ٢١.

(٤) الدرر السنية ٤/ ٣٣٨.

واجب أئمة المساجد تعليم المصلين ثلاثة الأصول

وكتب الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ لأئمة المساجد يأمرهم بتعليم جماعة المسجد ثلاثة الأصول، وأن يعقد لهم مجلساً يومياً يسألهم عنها قال ـ رحمه الله ـ: «**وكذلك عليكم ـ أي الأئمة ـ تعليم الجماعة أمر الدين وسؤالهم عنه، كما في «مختصر ثلاثة الأصول» فيتعين على كل إمام مسجد إبلاغ جماعته بذلك، ويعقد لهم مجلساً يومياً يسألهم فيه عن أمور دينهم، ويعلمهم ما يخفى عليهم منها**»[1].

ولأهمية هذه الرسالة وعميم نفعها وضعت لها شرحاً سميته: «**تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول**» موضحاً معانيها، ومظهراً مبانيها، مستشهداً بأقوال سلف هذه الأمة ومحققيها، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ.

أسأل الله عزَّ وجل أن ينفع به، وأن يجعله ذخراً لنا في الآخرة، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عبد المحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم
إمام وخطيب المسجد النبوي
والقاضي بالمحكمة العامة
بالمدينة النبوية

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ٢/ ٢٧٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم[1] رحمك الله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

شرح البسملة

استفتح المؤلف ـ رحمه الله ـ كتابه مستعيناً بالله، متبركاً باسمه تعالى، قائلاً: أبدأ مصنفي بـ **(بسم الله)** مقتدياً في ذلك بكتاب الله، ومتأسياً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته.

ولفظ الجلالة «الله» علم على الباري جلَّ وعلا، وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء.

و**(الرحمن)** اسم من الأسماء المختصة بالله لا تطلق على غيره، والرحمن معناه المتصف بالرحمة الواسعة.

و**(الرحيم)** اسم من أسمائه تعالى، ويطلق عليه ويطلق على غيره، ومعناه ذو الرحمة الواصلة، فالرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم»[2].

أربع مسائل واجب تعلمها

يقول المصنف: **(اعلم)** ولا تكن جاهلاً بأمور الدين، وسأذكر لك مسائل مهمة في أصول الدين حقيق أن تهتم بها غاية الاهتمام وأن تصغي إليها حقيقة الإصغاء، وأنا أدعو لك بالرحمة قائلاً: **(رحمك الله)** أي: أسأل الله أن ينزل عليك رحمته التي تحصل بها على مطلوبك، وتنجو بها من محذورك، وهذا دأب الناصح يدعوك إلى الهداية، ويدعو لك بالخير، فيجمع بين التعليم

---

(١) هذه هي الرسالة الأولى من الرسائل التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٢٤.

أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولى: العلم،

والدعاء، وهذا من حُسن عناية المصنف ـ رحمه الله ـ بعباد الله المؤمنين، ونصحِه وقصدِه الخير للمسلمين.

(أنه يجب) وجوباً عينياً **(علينا)** نحن المكلفين، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً **(تعلم)** ومعرفة **(أربع مسائل)** مهمة في الدين شاملة له.

المسألة الأولى: العلم

(الأولى) من تلك المسائل: **(العلم)** وهو معرفة الهدى بدليله، ويشمل معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام، وخص المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الأمور، لأنها هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا عليها، وهي التي يسأل العبد عنها في قبره، والعبد إذا عرف ربه وعرف نبيه ﷺ وعرف دين الإسلام بالأدلة، كمل له دينه.

وما كان واجباً على الإنسان العمل به ـ كأصول الإيمان وشرائع الإسلام، وما يجب اجتنابه من المحرمات، وما يحتاج إليه في المعاملات ونحو ذلك ـ مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ليعبد العبد ربه على بصيرة، ويتقرب إليه على برهان، ويجب عليه أن يسأل أهل العلم عمَّا جهله من ذلك، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله، صلاته وصيامه ونحو ذلك»[١].

وأما القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعيّن من فروض الكفايات، كتعلم المواريث وكيفية تغسيل الميت، فإنه إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين *.

---

(١) الفروع لابن مفلح ١/ ٥٢٥.

وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

معرفة الله

(و) العلم الواجب علينا تعلمه **(هو معرفة الله)**، ومعنى معرفة الله: أن يعرف العبد ربه بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ من أسمائه وصفاته وأفعاله.

ومعرفة الله أحد مهمات الدين، والجهل به سبحانه من التفريط في أمور الدين، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته»[(١)].

والإنسان لا يكون على الدين الحق إلا بالعلم بربه، ولهذا كان أساس دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «مفتاح الدعوة الإلهية، معرفة الرَّبّ تعالى»[(٢)]. ومن سلك الطريق الموصل إليه تعالى، سلك طريق معرفته، وعلى قدر معرفة الله يكون تعظيم الرَّبِّ في القلب، ومن عرف الله أحبه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبَّه لا محالة»[(٣)].

ومعرفة الله وإفراده بالعبادة، هو سبب السعادة في الدارين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «اللذة والفرحة، والسرور وطيب الوقت، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به»[(٤)].

معرفة نبيه ﷺ

(و) من العلم الواجب على المكلف تعلمه **(معرفة نبيه)** محمد ﷺ، فإنه الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ رسالة الله، ومعرفته تستلزم قبول وامتثال ما جاء به من عند الله، من الهدى ودين الحق.

معرفة دين الإسلام

كما يجب على المكلف **(معرفة دين الإسلام بالأدلة)** من الكتاب والسنة، لأنه هو الدين الذي تعبَّد الله به الخلق، ومعرفته والعمل به سبب

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٩٥.
(٢) الصواعق المرسلة ١/ ١٥١.
(٣) مدارج السالكين ٣/ ١٧.
(٤) فتاوى شيخ الإسلام ٢٨/ ٣١.

....

لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كمال الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثار الحق على الباطل، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله في الدنيا والآخرة، إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين»(١).

ومعرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دين الإسلام، أول ما يسأل عنها العبد في القبر، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً وفيه: «فيأتيه ـ أي: المؤمن ـ مَلَكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ» رواه أحمد(٢).

ومن كان يعرف هذه الأصول بأدلتها حري به أن يثبت عند سؤال الملكين في قبره، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن بعض الناس يقول: «هاه، هاه، لا أدري» رواه أحمد(٣).

وإذا كان العامي يعتقد وحدانية الله، ويعتقد بطلان ما يعبد من دون الله فهو مسلم، وإن لم يعلم الدليل، قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين ـ رحمه الله ـ: «فرض على كل أحد، معرفة التوحيد وأركان الإسلام بالدليل، ولا يجوز التقليد في ذلك، لكن العامي الذي لا يعرف الأدلة إذا كان يعتقد وحدانية الرَّبّ سبحانه ورسالة محمد ﷺ ويؤمن بالبعث بعد الموت، والجنة والنار، ويعتقد أن هذه الأمور الشركية التي تفعل عند هذه المشاهد باطلة وضلال، فإذا كان يعتقد ذلك اعتقاداً جازماً لا شك فيه فهو مسلم، وإن لم يترجم بالدليل، لأن عامة المسلمين ولو لقنوا الدليل، فإنهم لا يفهمون المعنى غالباً»(٤) *.

---

(١) الجواب الكافي ص ٩٩.

(٢) المسند رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) المسند رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) الدرر السنية ٤/ ٣٣٩.

والسعي في طلب العلم، لمعرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة الدين، من أجلّ العبادات وأفضل من نوافلها، قال الزهري ـ رحمه الله ـ: «ما عبد الله بشيء أفضل من العلم»[(١)].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته»[(٢)]. والعلم هو الميراث النبوي ونور القلوب، وأهله هم أهل الله وحزبه، وأولى الناس به وأقربهم إليه، وأخشاهم له، وأرفعهم درجات.

وهو من أجل الأعمال، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «العلم لا يعدله شيء»[(٣)]، وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وهو ـ أي: العلم الشرعي ـ حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه»[(٤)].

وحاجة الناس إلى العلم أشد من حاجتهم إلى المأكل والمشرب، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «الناس إلى العلم، أحوج منهم إلى الطعام

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٣٦٥.

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/ ٢٣٦.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٤٥.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٤٦٩.

....

والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه»[١].

وطلب العلم مفضل على الجهاد في سبيل الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الغدو والرواح في تعلم العلم، أفضل عند الله من الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل»[٢].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «تعلم العلم، وتعليمه أفضل من الجهاد وغيره»[٣]. وقال الإمام أبو حنيفة ومالك ـ رحمهما الله ـ: «أفضل ما تطوع به، العلم وتعليمه»[٤]. وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لا يعدل مداد العلماء، إلا دم الشهداء»[٥] *.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٠.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب رقم (٤٣٠٣) ٣/ ١٠٩.

(٣) الإنصاف للمرداوي ٢/ ١٦٢.

(٤) منهاج السنة ٦/ ٧٥.

(٥) الفروسية لابن القيم ص١٥٧.

....

والعلم أفضل ما عمرت به الأوقات، وخير ما أنفقت فيه الأنفاس، وبذلت فيه المهج، قال النووي ـ رحمه الله ـ: «اتفق جماعات السلف على أن الاشتغال بالعلم، أفضل من الاشتغال بنوافل الصلاة، والصوم، والتسبيح، ونحو ذلك من أعمال البدن»[١]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فعش بعلم ولا تبغي له بدلا   الناس موتى وأهل العلم أحياء[٢]

بماذا ينصح العلماء؟

ونصيحة العلماء هي التزود من العلم، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «وما أزال أحرص الناس على العلم؛ لأنه النور الذي يهتدى به»[٣]. والسعادة إنما هي في العلم قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «السعادة كلها في العلم وما يقتضيه، والله يوفق من يشاء لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وُعُورَة طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا على جد من التعب، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض»[٤]، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم التزود من العلم، فقال عزَّ وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ومن أراد الله به خيراً فقهه في الدين، قال صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» متفق عليه[٥].

ومن علم أن الدنيا دار سباق وتحصيل للفضائل، وأنه كلما علت مرتبته في العلم والعمل، زادت المرتبة في دار الجزاء، انتهب الزمان ولم يضيع منه لحظة، ولم يترك فضيلة تمكنه إلا حصلها، ومن وفق لهذا، فليبتكر زمانه بالعلم، وليصابر كل محنة وفقر، إلى أن يحصل له ما يريد، فالراحة لا تنال

(١) المجموع ٤/ ٦.

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ١٥١.

(٣) أحكام النساء لابن الجوزي ص٨.

(٤) مفتاح دار السعادة ١/ ١١١.

(٥) البخاري رقم (٧١) ١/ ٢٤، ومسلم رقم (١٠٣٧) ٢/ ٧١٧ من حديث معاوية رضي الله عنه.

....

بالراحة، قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ:

اعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران في العمل[1]

وليكن مخلصاً في طلب العلم عاملاً به، حافظاً له، ومن فاته الإخلاص، فذلك تضييع زمان وخسران جزاء، ومن فاته العمل به، فذاك يقوي الحجة عليه والعقاب له.

العلم الشرعي هو الممدوح في النصوص

والمراد من العلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفته ما يجب على المكلف من أمر دينه، الذي لا حياة له إلا به، إذ هو الجالب لخشية الله قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولا عبد الله وحده وحمد، وأثني عليه ومجد إلا بالعلم، ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم، ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم، ولا فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم»[2].

ولا دليل إلى الله والجنة، إلا الكتاب والسنة، ولا صلاح للعباد في معاشهم ومعادهم، إلا بالعلم بالله، وفي الجهل والغفلة عن العلم، زوال النعم وحلول النقم؛ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فما خراب العالم إلا بالجهل، ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قلَّ الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد»[3]، فعلى العاقل أن لا يضيع أوقات عمره وساعات دهره، إلا في طلب العلم النافع *.

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٨/ ٤٥١.
(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٤.
(٣) إعلام الموقعين ٢/ ٢٥٧.

المسألة الثانية: العمل بالعلم

المسألة **(الثانية)** الواجب علينا تعلمها **(العمل به)** أي: بالعلم، إذ هو ثمرة العلم ومن أسباب رسوخه، قال بعض السلف: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»[1]. ومن عمل بما علم حفظ الله عليه علمه وأثابه علماً آخر لا يعلمه، كما أن العمل به من أسباب زيادة الإيمان قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، قال الشوكاني رحمه الله: «زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين»[2]، والسعيد من حقق العلم والعمل قال النووي ـ رحمه الله ـ: «الحكمة: العلم المشتمل على المعرفة بالله، مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس. وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده. والحكيم من حاز ذلك»[3].

فإذا عمل الإنسان بعلمه بأن حافظ على فرائض الله، ولازم النوافل كالسنن الرواتب والوتر، وتلاوة القرآن والاستغفار بالأسحار، وألزم نفسه ساعة يجلسها في المسجد للذكر ـ وأحسن ما يكون بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ـ، واجتنب مجالس اللغو والغفلة، وابتعد عن مجالس أهل الغيبة وساقط الكلام، وحفظ لسانه مما لا يعنيه، فقد تسبب للعمل بعلمه، ومن لم يعمل بما علم حرم لذة العلم والخشية، وأوشك الله أن يسلبه ما علم وكان في عداد الجاهلين قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «لا يزال العالم جاهلاً حتى يعمل بعلمه، فإذا عمل به كان عالماً»[4]. ومن لم يعمل بعلمه فعلمه حسرة عليه يوم الحساب، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ٩٠.
(٢) فتح القدير ٥/ ٣٥.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٣٣.
(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٨/ ٤٢٧.

....

ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» رواه الترمذي[١].

والذي معه علم ولا يعمل به شر من الجاهل، وهو أحد الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة[٢]، وفي ذلك يقول ابن رسلان ـ رحمه الله ـ:

وعـالـم بـعـلـمـه لـم يـعـمـلـن مـعـذب مـن قـبـل عـبـاد الـوثـن[٣]

ومن علم مسألة من المسائل قامت عليه الحجة فيها ولو لم يكن من العلماء، قال عليه الصلاة والسلام: «والقرآن حجة لك أو عليك» رواه مسلم[٤]. ومن عمل بلا علم فقد شابه النصارى، ومن علم ولم يعمل فقد شابه اليهود، والعالم من عمل بعلمه وإن كان قليل العلم، ومقصود الشريعة في تحصيل العلم هو العمل به، مما يجلب خشية الله ويقرب من الخالق *.

(١) سنن الترمذي رقم (٢٤١٧) ٤/ ٦١٢ من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) وهم المقاتل، ومتعلم العلم، والمنفق ماله، الذين لم يكن قصدهم وجه الله إنما قصدهم ثناء الناس عليهم كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه رقم (١٩٠٥) ٣/ ١٥١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الزبد لابن رسلان ص ١.

(٤) صحيح مسلم رقم (٢٢٣) ١/ ٢٠٣ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها».

المسألة الثالثة: الدعوة إلى الله

المسألة **(الثالثة)** الواجب علينا تعلمها، والعمل بها: **(الدعوة إليه)** ـ جلَّ وعلا ـ، وتعليم الناس، وإرشادهم، ونصيحتهم.

والدعوة إليه سبحانه من أجل الأعمال، وهي طريقة الرسل قال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي»[1].

وقول الداعية: أحسن الأقوال وأزكاها عند الله، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. والمسلم إذا عرف معبوده ونبيه ﷺ ودينه ومنَّ الله عليه بالتوفيق لذلك، فإن عليه السعي إلى إنقاذ غيره بدعوته إلى الله تعالى، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «مقصود الدعوة النبوية، بل المقصود بخلق الخلق وإنزال الكتب وإرسال الرسل، أن يكون الدين كله لله، وهو دعوة الخلائق إلى خالقهم»[2].

أعلى مراتب الدعوة

وأعلى مراتب الدعوة: الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك، فإنه ما من نبي بعث إلى قومه إلا ودعاهم إلى طاعة الله وإفراده بالعبادة، ونهاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه، ثم يبدأ الداعية بعد ذلك بالأهم فالأهم من شرائع الإسلام، مصطحباً الحكمة معه في كل قول وعمل ممتثلاً قول الله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٧٦٦.

(٢) الفتاوى ٢/ ٤٦٤.

ومن قام بالدعوة إلى الله مخلصاً لله متبعاً هدي النبي ﷺ كان من أتباع الرسل حقاً، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء، هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسهاوزكى الناس بها»[١].

وأجور الداعي إلى الله متواصلة عبر الدهور، يقول النبي ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» رواه مسلم[٢]. والسعي إلى هداية الخلق خير من زخرف الحياة يقول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» متفق عليه[٣].

حاجة الناس إلى الدعوة

ومقصود الأنبياء إرشاد الناس إلى معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالعلماء ورثة الأنبياء عليهم بيان ما جاء به الرسول ﷺ ورد ما يخالفه»[٤]، وحاجة العباد إلى الدعوة والبصيرة في الدين أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ﷺ واتباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب»[٥].

والدعوة ذات مجالات واسعة، فالتعليم وإرشاد العاصي وتنبيه الغافل

(١) الفتاوى ٤/ ٩٢.

(٢) رقم (٢٦٧٤) ٤/ ٢٠٦٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري رقم (٢٧٨٣) ٣/ ١٠٧٧، ومسلم رقم (٢٤٠٦) ٤/ ١٨٧٢ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) الفتاوى ٢٧/ ٣١٦.

(٥) الفتاوى ١/ ٥.

....

وإسداء النصيحة والتوجيه للخير، كل ذلك من الدعوة إلى الله، يقول النبي ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» رواه مسلم[1]، ومن أعرض عن تعليم الآخرين وإرشادهم وتعليمهم أمر دينهم، فقد عرض نفسه للوعيد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما أن يموت فيذهب علمه، أو ينساه، أو يتبع السلطان ـ أي: إذا دعا إلى باطل ـ»[2].

فواجب على كل مسلم الدعوة إلى الله، ونصح المقصر، والسعي إلى إصلاح المجتمع كلٌّ بحسبه *.

---

(١) رقم (١٨٩٣) ٣/ ١٥٠٦ من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي رقم (٥٨٦) ص٣٥٠.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

المسألة الرابعة: الصبر على أذية الناس في الدعوة

المسألة: **(الرابعة)** من المسائل الواجب علينا معرفتها والعمل بها **(الصبر على الأذى فيه)** أي: في جنب الله عزَّ وجل.

فإن ميدان الداعية صدور الرجال وهي متباينة ومختلفة كاختلاف صورهم وأشكالهم، ومن قام بدين الإسلام، ودعا الناس إليه، فقد تحمَّل أمراً عظيماً وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله، والداعي يحول بين الناس وبين شهواتهم وأهوائهم واعتقاداتهم الباطلة، وقد يؤذونه فعليه أن يصبر ويحتسب، قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء»[1].

والصبر: ثبات القلب عند موارد الاضطراب، والدين كله يحتاج إلى صبر، وأصل هذه الكلمة هو: المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوها، وأما حقيقته: فهو خلق فاضل يمنع من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «لا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر»[2]. وبالصبر واليقين اللذين هما أصل التوكل تُنال الإمامة في الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فمن أعطي الصبر واليقين جعله الله إماماً في الدين»[3].

كيف تنال الإمامة في الدين؟

فكن سائراً في الدعوة إلى دين الله وإن أوذيت فأذية الداعي إلى الخير من طبيعة البشر، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، والرسل أوذوا بالقول والفعل، قال الله

(١) الفتاوى ٤/ ٥٠.
(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٠.
(٣) الفتاوى ٦/ ٢١٥.

....

عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

ولا مناص من ابتلاء الداعية إلى الله «سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله أيهما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكَّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكَّنهم فلا يظن أحداً أن يخلص من الألم البتة»(١).

ومن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عزَّ عليه الصبر طمع فيه عدوه. فليوطن المسلم نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فإنه من وثق بالثواب لم يضره مس الأذى، والمؤمن همَّته فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، والإنسان إذا لم يصبر وقع فيما حرم الله عليه أو ترك ما أوجب الله عليه*.

(١) الفوائد ص٤٠٧.

....

عاقبة الصبر

والصبر من أهم المهمات لمن علم فعمل فدعا، فإن لم يصبر استخفه الذين لا يوقنون قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، وقد أمر الله الرسل بالتحلي بالصبر قال جلَّ وعلا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، ومن الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ومن أسباب الفلاح الصبر على تعليم الآخرين، وبذل المجهود في الإخلاص لنفعهم، وكلما قويت الأذية قرب النصر، قال عليه الصلاة والسلام: «وإن النصر مع الصبر» رواه أحمد[(١)]. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو»[(٢)].

وليس النصر مختصاً بأن ينصر الإنسان في حياته ويرى أثر دعوته قد تحقق؛ بل النصر يكون ولو بعد موته بأن يجعل الله في قلوب الخلق قبولاً لما دعا إليه، وأخذاً وتمسكاً به، والصابر ظافر بعزِّ الدنيا والآخرة؛ لأنه نال من الله معيته قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه، وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل»[(٣)].

والفلاح معلق بالصبر والتقوى، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد بشر الله الصابرين بثلاث كلٌّ منها خير مما يتنافس عليه أهل الدنيا قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾،

---

(١) المسند رقم (٢٨٠٤) ١/ ٣٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) محاضرات الأدباء لأبي القاسم الأصبهاني ٢/ ٥٢٤.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص٧٨.

....

والفوز بالجنة لا يحظى به إلا الصابرون قال عزَّ وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

وتحقيق هذه المسائل الأربع ـ العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر ـ من أعظم مجاهدة النفس لإصلاحها وصلاح غيرها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين»[١] *.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١٠.

والدليل قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟

دليل المسائل الأربع

(والدليل) على أنه يجب علينا تعلم الأربع مسائل وهي العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه.

(قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم) أتى بالبسملة مستفتحاً بها السورة.

(﴿وَٱلْعَصْرِ﴾) أقسم تعالى بالعصر، وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل الأرباح والأعمال الصالحة للمؤمنين، وزمن الشقاء للمعرضين، لأنه وعاء يودع فيه العباد أعمالهم، ولما فيه من العبر والعجائب، والله سبحانه وتعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه، وهو سبحانه الصادق وإن لم يقسم ولكنه أقسم لتأكيد المقام.

(﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾) أي: جنس الإنسان في هذه الحياة.

(﴿لَفِى خُسْرٍ﴾) أي: في خسران وهلاك ونقصان، والخاسر: ضد الرابح، والخسران مراتب متعددة متفاوتة، فقد يكون خساراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم، وقد يكون خساراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسران لكل إنسان.

(﴿إِلَّا﴾) من استثنى الله في هذه السورة ممن اتصف بأربع صفات، وهي الإيمان بالله حيث قال سبحانه: (﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾) فوقر الإيمان في قلوبهم، ولا يكون الإيمان بدون العلم فهو فرع منه لا يتم إلا به.

(﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) بجوارحهم مكثرين منها مصطحبين فيها الإخلاص مقتفين هدي النبي ﷺ، وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

(﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾) أي: أمر ووصَّى وحضَّ بعضهم بعضاً.

بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

(﴿بِٱلْحَقِّ﴾) الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك ويحثه عليه ويرغبه فيه.

(﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾) أي: ذكَّر بعضهم بعضاً (﴿بِٱلصَّبْرِ﴾) على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، فصبروا على ما نالهم من أذى، وصبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله.

ومن قام بهذه الخصال فقد جانب الخسران، وكان من عباد الله المفلحين، فبالأمرين الأولين وهما الإيمان والعمل الصالح يكمِّل العبد نفسه، وبالأمرين الأخيرين وهما التواصي بالحق والصبر يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم.

والدين كله إيمان وعمل ودعوة وصبر، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السموات»(١) *.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١٠.

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».

منزلة سورة العصر

فسورة العصر تنبيه على أن جنس الإنسان كله في خسارة إلا من استثنى الله وهو من كمَّل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالطاعات، فهذا كماله في نفسه، ثم كمَّل غيره بوصيته له بذلك وأمره به، وملاك ذلك الصبر وهذا غاية الكمال، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «قالت العقلاء قاطبة: النعيم لا يدرك بالنعيم، والراحة لا تنال بالراحة، وأن من آثر اللذات فاتته اللذات»[(١)].

والعاقل البصير إذا سمع هذه السورة أو قرأها سعى إلى تخليص نفسه من الخسران وذلك باتصافه بهذه الصفات الأربع، فهي سورة عظيمة جمعت أربع قواعد يَسيرُ عليها المسلم في حياته.

(قال) الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس **(الشافعي ـ رحمه الله ـ)**[(٢)] عن هذه السورة:

(لو ما أنزل الله) من القرآن **(حجة)** وإعذاراً وإنذاراً وبرهاناً **(على خلقه)** المكلفين **(إلا هذه السورة)** العظيمة الجامعة **(لكفتهم)**[(٣)] في إلزامهم بالتمسك بالدين، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الكمال: أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكمِّلاً لغيره، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره»[(٤)].

---

(١) شفاء العليل ص٢٥٠.

(٢) المتوفى سنة ٢٠٤هـ.

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره: ١/٦٣ عن الشافعي نحوه بلفظ «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم». وذكره ابن القيم في التبيان ص٥٣ وفي مفتاح دار السعادة ١/٥٨، وفي الاستقامة ٢/٢٥٩، وفي عدة الصابرين ص٦٠ عن الشافعي أيضاً بلفظ «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم».

(٤) مفتاح دار السعادة ١/٥٨.

وقال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ: «بابٌ العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، فبدأ بالعلم» قبل القول والعمل.

فهذه السورة من المبشرات المنذرات للعبد، فليقف العبد عندها وليزن بها نفسه، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: « هذه السورة ميزان للأعمال يزن المؤمن بها نفسه، فيبين له بها ربحه من خسرانه»[1]. فهي سورة حقيقة بأن يقال فيها ما قاله الأئمة عنها لعظيم شأنها.

العلم قبل العمل

(و) لأهمية طلب العلم قبل العمل لئلا يعبد الإنسان ربه على ضلالة، **(قال)** الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل **(البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ)**[2] في صحيحه[3]:

(بابٌ) أي: هذا بابٌ فيه أن **(العلم)** الشرعي وطلبه **(قبل القول)** دعوةً إليه، وقبل **(العمل)** به.

(والدليل) على هذه المسألة **(قوله تعالى:** ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾) أيها الرسول (﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾) معبودَ بحقٍّ (﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾) وحده لا شريك له، (﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾) بسؤال المغفرة وفعل أسبابها.

قال البخاري ـ رحمه الله ـ: **(فـ)** في هذه الآية **(بدأ)** الله **(بالعلم)**، قال المصنف ـ رحمه الله ـ: وذلك **(قبل القول والعمل)**، فإذا علم عمل على بصيرة وهدى، وكل عمل لا يقوده العلم فهو ضرر على صاحبه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به، فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة

---

(١) لطائف المعارف ص٣١٣.

(٢) المتوفى سنة ٢٥٦هـ.

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل رقم (٥) ١/ ٣٧.

....

عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[1].

فمرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، والعلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتد بهما إلا به، فهو مقدم عليهما، لأنه مصحح النية المصححة للعمل*.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٨٥.

اعلم[1] رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل والعمل بهن:

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا

لما فرغ المصنف ـ رحمه الله ـ من ذكر أربع مسائل يجب علينا تعلمها، أُتْبِعت بثلاث مسائل للمصنف يجب علينا تعلمها والعمل بها، قال فيها:

(اعلم رحمك الله) أي: أدعو لك بأن يرحمك الله وينزل عليك من فضله، وأطلب منك أن تعلم يقيناً.

ثلاث مسائل يجب تعلمها والعمل بها

(أنه يجب) وجوباً عينياً **(على كل مسلم)** مكلف ذكر، وعلى كل **(مسلمة)** مكلفة **(تعلُّم)** واعتقاد **(ثلاث هذه المسائل)**:

الأولى: في توحيد الربوبية، والثانية: في توحيد الألوهية، والثالثة: في الولاء والبراء، قال عنها المصنف ـ رحمه الله ـ: «وهذا هو حقيقة دين الإسلام، ولكن قف عند هذه الألفاظ، واطلب ما تضمنت من العلم والعمل، ولا يمكن في العلم إلا أنك تقف على كل مسمى منها»[2].

(والعمل بهن) وبما دللن عليه؛ لأنهن قاعدة الدين وأساس الاعتقاد.

المسألة الأولى: في توحيد الربوبية

المسألة **(الأولى)** في توحيد الربوبية، وهي من المسائل الثلاث الواجب علينا تعلمها وهي **(أن الله)** عزَّ وجل **(خلقنا)** من عدم كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾، ثم صورنا أحسن صورة كما قال جلَّ وعلا: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾.

(ورزقنا) النعم، فلم يتركنا سبحانه عراة أو جياعاً، بل رزق كلّ مخلوقٍ وتكفل بذلك، قال عزَّ وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾،

---

(١) هذه هي الرسالة الثانية من الرسائل الثلاث التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) الدرر السنية ١/ ١١٧.

ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار،

فسبحانه أوجدنا من العدم ورزقنا النعم لنعبده وحده، قال عزَّ وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

(**ولم يتركنا هملاً**) سدى مهملين، لا نؤمر ولا ننهى قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، ولم يتركنا سبحانه حيارى لا نعلم الحق؟ ولا أين هو؟ وكيف نصل إليه؟ وكيف نتحصل عليه؟

(**بل أرسل إلينا رسولاً**) معه الحق سهلاً ميسراً يهدي إليه، لنستقيم على ما فيه من الهدى، ونعمل بما فيه من الأوامر.

(**فمن أطاعه دخل الجنة**)؛ لأن طاعته طاعة لله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وأفضل الخلق وأعلاهم وأقربهم إلى الله، أتمهم لله عبودية، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله ﷺ باطناً وظاهراً»[١]، فالغاية من إرسال الرسل طاعتهم واتباعهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى.

(**و**) شقاء المخلوق في عصيان الرسول ﷺ؛ لأن (**من عصاه دخل النار**)، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، فقيل: ومن

---

(١) الفتاوى ١٠/٥٤٦.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري[1].

(**والدليل**) على التحذير من عصيانه (**قوله تعالى**: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾) يا أمة محمد (﴿رَسُولًا﴾) وهو خاتم المرسلين محمد ﷺ (﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾) بأعمالكم (﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾) موسى عليه السلام ـ كليم الرحمن ـ (﴿إِلَىٰ﴾) الطاغية (﴿فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾) من أفضل الرسل، (﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾) الذي أرسل إليه وإلى قومه وهو موسى عليه السلام (﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾) أي: فرعون (﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾) أي: شديداً، وذلك بإغراقه وجنوده في البحر فلم يفلت منهم أحد، ثم بعد ذلك في عذاب القبر إلى يوم القيامة، ثم عذاب النار قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: في القبر، يعذبون بها ﴿غُدُوًّا﴾، أي: أول النهار، ﴿وَعَشِيًّا﴾، أي: آخره ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فهذه عاقبة العاصين للرسل، وجزاء المخالفين لأمرهم.

فلتحذر أمة محمد ﷺ من تكذيب رسولها، فيصيبها ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيزٍ مقتدر، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران»[2].

فالخير في طاعة الرسل، والبؤس في عصيانهم قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإيمان بالله ورسوله، هو جماع السعادة وأصلها»[3] *.

---

(١) رقم (٦٨٥١) ٦/ ٢٦٥٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن لابن كثير ٤/ ٣٩٥.

(٣) الفتاوى ٢٠/ ١٩٣.

الثانية: أنَّ الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته، لا مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل،

المسألة الثانية: في توحيد الألوهية

ولكون المسألة الأولى في توحيد الربوبية، ولأن توحيد الربوبية دال على توحيد الألوهية ومستلزم له، ذكر تحقيق ذلك في المسألة (**الثانية**) وهي في توحيد الألوهية، وهي من المسائل الثلاث الواجب علينا تعلمها ومعرفتها واعتقادها، فكما أنه الخالق الرازق الذي خلقك وأعطاك النعم فاعلم (**أنَّ الله لا يرضى**) بل يمقت أشد المقت (**أن يُشرك**) ويساوى (**معه**) أيّ (**أحد**) به في عبادته وطاعته (**لا مَلَكٌ**) من الملائكة (**مقرب**) عنده، (**ولا نبي مرسل**) من البشر أرسله، فضلاً عن غيرهم من سائر المخلوقات؛ لأنهم لا يستحقون العبادة، قال ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» رواه مسلم[(١)]، وأخبر تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾، وأخبر أنه يرضى لعباده الإسلام، وهو عبادة الله مخلصاً له الدين قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

فإذا لم يرض سبحانه بعبادة من كان قريباً منه، كالملائكة، أو الأنبياء والمرسلين، وهم أفضل الخلق، فغيرهم بطريق الأولى؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، فكما أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، فهو المستحق للعبادة وحده دون من سواه، فالمسلم يجمع بين أمرين، يؤمن بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، ويؤمن بأنه سبحانه هو المستحق وحده للعبادة، من ذبح وصلاة و نذر وحلف وغيرها، وأن عبادة من سوى الله باطلة.

---

(١) رقم (١٧١٥) ٣/ ١٣٤٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

(**والدليل**) على أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته كائناً من كان (**قوله تعالى**: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾) أي: أماكن الصلوات أو أعضاء السجود (﴿لِلَّهِ﴾) لا لأحد سواه، (﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ﴾) لا تسجدوا فيها ولا بها لغيره (﴿أَحَدًا﴾) لا ملكاً من الملائكة، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيرهم، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، فدعاؤهم من دون الله هو الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فهو سبحانه المتفرد بالوحدانية، وهو القاهر فوق عباده القوي المتين، لا يرضى أن تصرف العبادة لغيره، أو أن يجعل المخلوق الضعيف شريكاً له في العبادة *.

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ

المسألة الثالثة: في الولاء والبراء

المسألة **(الثالثة)** في الولاء والبراء، وهي من المسائل التي يجب على المكلف معرفتها، واعتقادها، والعمل بها وذلك **(أن من أطاع الرسول)** فيما أمر به، واجتنب ما نهى عنه **(ووحد الله)** في عبادته لا يوالي من حادَّ الله، وهذا فيه شحذ الهمم للعمل بهذه المسألة وفق النصوص الشرعية، فكأنه يقول لك: أنت وحّدت ربك وعبدته دون سواه وأطعت رسوله ﷺ فاعمل بهذه المسألة العظيمة، وهي أنه **(لا يجوز له)** أي: للموحد المطيع للرسول ﷺ **(موالاة)** ومحبة **(من حاد)** وعادى **(الله ورسوله)** بل يجب عليه أن يقاطعهم ويعاديهم **(ولو كان)** من حاد الله ورسوله **(أقرب قريب)** سواء كان أباك، أو ابنك أو أخاك، فإن الله قطع التواصل والتواد، والقرب حقيقةً إنما هو قرب الدين لا قرب النسب، فالمسلم ولو كان بعيد الدار فهو أخوك في الله، والكافر ولو كان أخاك في النسب فهو عدوك في الدين.

دليل الولاء والبراء

(والدليل) على أنه لا تجوز موالاة من حاد الله ورسوله **(قوله تعالى:** ﴿لَا تَجِدُ﴾) يا أيها النبي (﴿قَوْمًا﴾) أي: طائفة، والحكم أيضاً يسري على الأفراد (﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾) إيماناً حقيقياً (﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾) وبما أعد الله فيه من الثواب والعقاب.

(﴿يُوَآدُّونَ﴾) يوالون ويحبون (﴿مَنْ حَآدَّ﴾) أي: عادى (﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾) بالكفر والعصيان، أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً بمقتضى إيمانه ولوازمه، ومن ذلك محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته.

(﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟﴾) هؤلاء (﴿ءَابَآءَهُمْ﴾) الذين أخرجهم الله من

أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أصلابهم، (﴿أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾) الذين هم هبة من الله لآبائهم، (﴿أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ﴾) في النسب، (﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾) الأقربين منهم.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾) الذين حققوا الولاء والبراء.

(﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾) أي: أوجد في قلوبهم الإيمان وثبّته فلا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، فهي موقنة مخلصة.

(﴿وَأَيَّدَهُم﴾) الله وقوّاهم (﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾) أي: بوحيه ومدده الإلهي، وإحسانه الرباني، وكتب لهم السعادة، وزين الإيمان في بصائرهم، وسمى الله نصره إياهم روحاً، لأنه به حياتهم.

(﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾) في دار القرار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾) زيادة في نعيمهم، (﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾) منعمين أبد الآباد.

وزادهم بأن (﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾) فأحل عليهم رضوانه، (﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾) وأحبوه وشكروا إنعامه وأفضاله، فإنهم لمّا أسخطوا القرائب والعشائر في الله، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾) أي: عباد الله وأهل كرامته، وأولياؤه المقربون، وأنصاره في أرضه.

(﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾) الفائزون بالظفر والسعادة في الدنيا والآخرة.

....

جزاء من حقق الولاء والبراء

فمن حقق البراء فقد أخبر الله أنه يجازيه بأمور:

١ ـ جمع الإيمان في قلبه وثباته فيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

٢ ـ تأييد الله له بالنور والهدى ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾، وسماه روحاً، لأنه سبب الحياة الطيبة. وهذا الأمر مع الذي قبله من الثواب في الدنيا.

٣ ـ دخول الجنة ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

٤ ـ رضا الرب سبحانه عنه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، وهذا من الزيادة في النعيم كما قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

٥ ـ رضا العبد في الآخرة بدخوله الجنة وما فيها من الكرامة ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

٦ ـ إكرام الله لهم، بأن جعلهم من خاصته وحزبه المفلحين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

قال في تيسير الكريم الرحمن: «وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك مواد لأعداء الله، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره، فإن هذا الإيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان تصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها»[١] *.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٧٨٧.

....

أهمية الولاء والبراء

والولاء والبراء أصل عظيم من أصول الدين قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «لا يستقيم للإنسان إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء»[1]. وهو معنى كلمة التوحيد، وهو من الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والبراءة ضد الولاية، وأصل البراءة البغض، وأصل الولاية الحب، وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا يحب إلا الله ويحب ما يحبه الله لله، فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله»[2].

والمسلم يحب من يحب الله ويعادي من عاداه الله، والله يبغض الكافر قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والكافر عدو لله وللمؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، والولاء والبراء من تمام محبة الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «من تمام محبة الله ورسوله، بغض من حاد الله ورسوله، والجهاد في سبيله»[3].

وإذا قوي الإيمان في القلب قوي جانب الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «إذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله، أوجب بغض أعداء الله»[4]، وإذا أخل العبد بجانب الولاء والبراء استحق العقاب قال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: أصدقاء وأحباباً ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والموادة من

---

(١) الدرر السنية ٨/ ٣٣١.
(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٦٥.
(٣) الفتاوى ٨/ ٣٦١.
(٤) الفتاوى ٧/ ٥٢٢.

....

أعمال القلوب، فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض موادة من حاد الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم الذم والعقاب، لأجل عدم الإيمان»[1].

والإعراض عن المشركين بالجسد لا يكفي في البراء، بل يجب مع ذلك البغض بالقلب، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «براءة الخليل من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركاً محضاً، بل صادراً عن بغض وعداوة»[2].

ومع بغضهم وعداوتهم والبراءة منهم ومن معبوداتهم، فإن الإسلام حرم قتل الكافر المعصوم، وهو الذمي والمعاهد والمستأمن[3] وحرم سلب ماله، أو ظلمه، أو الاعتداء عليه، قال النبي ﷺ: «من قتل معاهداً، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً» رواه البخاري[4]. بل يجب مع بغضه دعوته إلى الله بالحكمة والبصيرة، كما فعل النبي ﷺ مع المشركين، ودين الإسلام وسط في معتقد الولاء والبراء، لا إفراط فيه بقتل الكفار المعصومين، ولا تفريط فيه بالموالاة المحرمة أو التولي المخرج من الملة، ويجب على المسلم أن يكون عدلاً في أداء تلك العبادة العظيمة بين الإفراط والتفريط، وأن يكون عمله بها منوطاً بالعلم بها على ضوء ما جاءت به الشريعة *.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٧٥٣.

(٢) الفتاوى ١٤/ ٢٢٤.

(٣) الذمي: هو الكافر الذي أقر في دار الإسلام على كفره بالتزام الجزية ونفوذ أحكام الإسلام فيه.
والمعاهد: هو الرجل من أهل الحرب يدخل إلى دار الإسلام بأمان.
والمستأمن: هو الكافر يدخل ديار المسلمين بأمان.
مجمع الأنهر ١/ ٦٥٥، رد المحتار ١/ ١٦٦، نيل الأوطار ٧/ ١٨، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ١/ ٢٣٨.

(٤) رقم (٣١٦٦) ٢/ ٤٠٩ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

....

واعلم أن الولاء والبراء مع المشركين ينقسم إلى قسمين:

محبة المشركين تنقسم إلى قسمين

التولي

١ ـ التولي، ومعناه: محبة الشرك وأهله، أو نصرة الكفار على المؤمنين، أو الفرح بذلك، أو مظاهرتهم ومعونتهم على المسلمين، وهذا كفر أكبر قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «إيمان المؤمن يفسد بموادة الكفار»[١]. وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ أن هذا من نواقض الإسلام قال ـ رحمه الله ـ: «الثامن ـ أي: من نواقض الإسلام ـ مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾»[٢].

الموالاة

٢ ـ الموالاة وهي: الموادة والصداقة، ضد المعاداة والمحادة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فإن الولاية ضد العداوة، والولاية تتضمن المحبة والموافقة، والعداوة تتضمن البغض والمخالفة»[٣].

وضابطها: أن تكون محبة أهل الشرك لأجل الدنيا، ولا تكون معها نصرة، وهذا كبيرة من الكبائر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة»[٤].

الفرق بين الموالاة والتولي

والفرق بين التولي والموالاة: أن التولي كفر أكبر يخرج من الملة، والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب، وقد سئل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٢.

(٢) رسالة نواقض الإسلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ.

(٣) الفتاوى ٥/ ٥١٠.

(٤) الفتاوى ٧/ ٥٢٣.

....

ـ رحمه الله ـ[1] عن الفرق بين الموالاة والتولي؟ فأجاب: «التولي كفر يخرج من الملة، وهو كالذب عنهم وإعانتهم بالمال والبدن والرأي، والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب، كبلِّ الدواة[2]، أو بري القلم، أو التبشش لهم، أو رفع السوط لهم»[3] *.

(١) هو عم الشيخ محمد بن إبراهيم ومفتي الديار في زمانه.
(٢) الدواة هي المحبرة.
(٣) الدرر السنية ٨/ ٤٢٢.

....

صور من موالاة وتولي المشركين

وللموالاة والتولي صور عديدة ذكرها الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ بقوله: «قد نهى الله سبحانه عن موالاة الكفار وشدد في ذلك، وأخبر أن من تولاهم فهو منهم، وكذلك جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ وأخبر النبي ﷺ أن «من أحب قوماً حشر معهم» رواه الحاكم والبيهقي[١]، ويفهم مما ذكرنا من الكتاب والسنة والآثار عن السلف[٢] أمور من فعلها دخل في تلك الآيات، وتعرض للوعيد بمسيس النار، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه: **(أحدها)** التولي العام، **(الثاني)** المودة والمحبة الخاصة، **(الثالث)** الركون القليل قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾، فإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلوات الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟!، **(الرابع)** مداهنتهم ومداراتهم قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾، **(الخامس)** طاعتهم فيما يتولون وفيما يشيرون كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾، **(السادس)** تقريبهم في الجلوس والدخول على أمراء الإسلام، **(السابع)** مشاورتهم في الأمور، **(الثامن)** استعمالهم في أمر من أمور المسلمين، أيُّ أمر كان، إمارة أو عمالة أو كتابة، أو غير ذلك، **(التاسع)** اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، **(العاشر)** مجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم، **(الحادي عشر)** البشاشة لهم والطلاقة، **(الثاني عشر)** الإكرام العام، **(الثالث عشر)** استئمانهم وقد خونهم الله، **(الرابع عشر)** معاونتهم في أمورهم ولو بشيء قليل، كبري القلم،

---

(١) المستدرك رقم (٤٢٩٤) ٣/ ١٨، والسنن الكبرى رقم (١٨٦٤٢) ٩/ ٢٣٤ من حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) ذكر ذلك مفصلاً في أول رسالته هذه.

....

وتقريب الدواة، ليكتبوا ظلمهم، **(الخامس عشر)** مناصحتهم[1]، **(السادس عشر)** اتباع أهوائهم، **(السابع عشر)** مصاحبتهم ومعاشرتهم، **(الثامن عشر)** الرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم، **(التاسع عشر)** ذكر ما فيه تعظيم لهم كتسميتهم سادات وحكماء، كما يقال للطواغيت: السيد فلان، أو يقال لمن يدعي علم الطب «الحكيم» ونحو ذلك، **(العشرون)** السكنى معهم في ديارهم كما قال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» رواه أبو داود[2]، إذا تبين هذا، فلا فرق في هذه الأمور بين أن يفعلها مع أقربائه منهم، أو مع غيرهم، كما في آية المجادلة»[3].

والتشبه بهم في الظاهر يورث مودتهم ومحبتهم في الباطن، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»[4].

والكافر يعامل معاملة ظاهرة بدون ميل ومحبة في القلب أو تشبه في الظاهر، فالإيمان الواجب يوجب معاداة من حاد الله ورسوله، كما أنه يستلزم محبة من يحب الله ورسوله وموالاتهم، فمن والى الكافرين فقد ترك واجباً من واجبات الإيمان، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «لا بد في الإيمان من

---

(١) أي: استشارتهم.

(٢) سنن أبي داود رقم (٢٧٨٧) ٣/ ٩٣ من حديث سمرة، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: أما بعد قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» وروى أبو داود أيضاً من حديث جرير ابن عبد الله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: لا تراءى ناراهما». سنن أبي داود رقم (٢٦٤٥) ٣/ ٤٥.

(٣) الدرر السنية ٨/ ١٥٤.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٢١.

....

محبة القلب لله ولرسوله، ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[1].

الولاء والبراء مع أهل الفسق

وكما أن الكفار يجب بغضهم فكذلك الفاسق يبغض لفسقه، ولكن يُعطى من الموالاة بقدر إيمانه، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والواجب موالاة أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبغض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق الملِّي يُعطى من الموالاة بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداة بقدر فسقه»[2].

فالواجب على المؤمن معاداة من حادَّ الله ورسوله وبُغْضُه ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته إلى الحق، فالمؤمن يحب أولياء الله ويتعاون معهم على الخير، ويكره أعداء الله ويبغضهم ويعاديهم في الله حتى وهو يدعوهم إلى الله، ومن عادى في الله من يبغضه الله، عوضه الله مودة عظيمة لغيره، فإبراهيم عليه السلام لما اعتزل أباه وقومه لكفرهم، أقر الله عينه بإسماعيل ومن ثم إسحاق، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا من سلالته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾*.

(١) الفتاوى ٧/ ١٤٧.

(٢) الفتاوى ٢٨/ ٥٧٨.

اعلم[1] أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية، ملة إبراهيم

قال المصنف ـ رحمه الله ـ: **(اعلم أرشدك الله)** وهداك ووفقك **(لطاعته)**، والدعاء بالرشاد إلى الطاعة هو من خير الأدعية وأجمعها، وقد قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا علي «قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسداد سداد السهم» رواه مسلم[2]. وإذا نال العبد طاعة الله نال الخير كله.

ما هي الحنيفية؟

ولكي تظفر بالخير اعلم **(أن الحنيفية)** هي إفراد الله بالعبادة بأن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين، فلا تصرف أي نوع من أنواع العبادة إلا لله وحده، فمن فعل ذلك فهو المسلم الحنيف المقتفي أثر المرسلين.

والحنيف: مشتق من الحنف وهو الميل، فالحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد، والحنيف المستقيم المستمسك بالإسلام، المقبل على الله، المعرض عن كل ما سواه، وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام فهو حنيف، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالدين الحنيف، هو الإقبال على الله وحده، والإعراض عمَّا سواه»[3].

والحنيفية: هي **(ملة)** إمام الحنفاء **(إبراهيم)** عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهي أيضاً ملة ودين جميع المرسلين قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يأت نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا من نسله، لذا قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ فهو أبو الأنبياء عليهم السلام، ودين جميع الأنبياء هو الإسلام قال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾، وكل دين سوى الإسلام فهو

---

(١) هذه هي الرسالة الثالثة من الرسائل الثلاث التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٧٢٥) ٤/ ٢٠٩٠.

(٣) الفتاوى ٩/ ٣١٩.

أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ومعنى يعبدون: يوحدون.

باطل قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ودين الحنفاء **(أن تعبد الله)** وتوحده **(مخلصاً)** أي: مفرداً **(له)** القصد في **(الدين)** أي: العبادة، ومتبرءاً من عبادة من سواه ومعتقداً بطلانها، وبذلك أمر الأنبياء، قال الله لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وأمر به جميع الناس قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

ولا صلاح للنفس في دنياها وآخرتها إلا بالتوحيد والإخلاص، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك»[1].

الأمر الواجب على جميع الناس

(وبذلك) أي: بالعبادة الخالصة لله **(أمر الله جميع الناس)** من ذكر وأنثى **(وخلقهم لها)** أي: للحنيفية ملة إبراهيم، وهي الأمر بإخلاص العبادة لله وحده **(كما قال تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**)** أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، **(ومعنى يعبدون)** أي: **(يوحدون)** بأن يوحدوا ويفردوا قصد القلب في الأعمال لله.

والقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يطيب ولا يطمئن، إلا بالإخلاص في عبادة الله، ولو حصل له كل ما تلتذ به المخلوقات، وإذا قوي إخلاص دين العبد لله كملت عبوديته واستغناؤه عن الخلق، وعبادته سبحانه تكون بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ومن تدبر أحوال

---

(١) الفتاوى ١٠/٦٥٢.

....

العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عموماً وخصوصاً»[1]، ولن يستغني القلب عن الخلق إلا بأن يكون الله هو مولاه، فلا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه *.

(١) الفتاوى ١٥/ ٢٥.

أعظم أمر من السماء

(وأعظم ما أمر الله به) في كتابه، وأعظم ما أمر به رسله أممهم هو **(التوحيد)** بإخلاص الدين لله وحده، وهو أعظم فريضة فرضها الله على العباد، علماً وعملاً، ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه تكفر الذنوب، وتستحق الجنة، وبه النجاة من النار، ومن لم يمتثل لهذا الأمر العظيم فجميع أعماله لا تقبل عند الله قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

أهمية التوحيد

ولأهمية التوحيد جاء القرآن كله متضمناً له قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «غالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن، فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد»[1].

أقسام التوحيد

والتوحيد هو الأصل الذي يبنى عليه الدين كله، وهو أعظم سبب لانشراح الصدر، وهو ملجأ الطالبين، ومفزع الهاربين، ونجاة المكروبين،

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٤٩.

وهو إفراد الله بالعبادة.

وغياث الملهوفين، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد، فلا يلقي في الكُرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها»[1].

والتوحيد الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وأقوامهم هو توحيد الألوهية، **(و)** تعريفه: **(هو إفراد الله بالعبادة)** كالذبح والنذر والدعاء فلا تصرف أي نوع من أنواعها لغير الله.

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ توحيد الربوبية، وهو إفراد الله بأفعاله.

٢ ـ توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بأفعال العباد.

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ.

ومن حقق التوحيد بأقسامه الثلاثة فهو الموحد حقاً *.

---

(١) الفوائد ص٩٥.

وأعظم ما نهى عنه الشرك، وهو دعوة غيره معه،

أعظم ذنب في الأرض

وعلى العبد أن يعلم أن **(أعظم ما نهى)** الله **(عنه)** في كتابه، وأعظم ما نهت عنه الرسل هو **(الشرك)**، وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله.

والشرك بالله أعظم من قتل النفس ومن قطع الطريق والسرقة وهو أعظم الفساد في الأرض، ولا نجاة للعباد إلا بتوحيد الله وإفراده بالعبادة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وبالجملة، فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ»[1].

وأعظم ذنب عصي الله به هو الشرك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾. وسئل النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» متفق عليه[2]، وقال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» متفق عليه[3].

والشرك هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي، لأنه تسوية للمخلوق الناقص بالخالق الكامل في صفاته جلَّ وعلا. ومن أشرك في توحيد الألوهية فهو مشرك وإن أقر بتوحيد الربوبية، فلو فرض أن رجلاً يقر إقراراً كاملاً بتوحيد الربوبية، ولكنه يذهب إلى القبر فيدعو صاحبه من دون الله، أو ينذر له قرباناً يتقرب به إليه، فإن هذا قد وقع في الشرك الأكبر.

تعريف الشرك

(و) تعريف الشرك: **(هو دعوة غيره معه)** أي: دعوة غير الله معه

---

(١) الفتاوى ١٥/ ٢٤.

(٢) البخاري رقم (٤٢٠٧) ٤/ ١٦٢٦، ومسلم رقم (٨٦) ١/ ٩٠ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري رقم (٥٦٣١) ٥/ ٢٢٢٩، ومسلم رقم (٨٧) ١/ ٩١ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾.

سبحانه، بأن يطلب مع الله غيره، أو يسأل مع الله آخر، أو يجعل أحداً واسطة بينه وبين الله، من قبر أو ولي، بالدعاء أو الاستعانة والتوجه إليه، وغير ذلك من أنواع العبادة، وإن شئت قلت الشرك: هو مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

ومن مات على الشرك، استحق دخول النار وحرم دخول الجنة قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، وقال عليه الصلاة السلام: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً، دخل النار» رواه البخاري[1]، **(والدليل)** على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأنَّ أعظم ما نهى الله عنه هو الشرك **(قوله تعالى**: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾) أي: أفردوه جلَّ وعلا بالعبادة، (﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾) فلا تجعلوا معه أنداداً ولا نظراء ولا أشباه لا في قليل الشرك ولا في كثيره، واحذروا الشرك وغوائله وأسبابه.

فعلى العبد أن يحقق الإيمان به سبحانه، وأن يكفر بضده من الأنداد والشركاء، فأول أمر أُمر به العباد الأمر بعبادته وتوحيده، وأول نهي هو النهي عن ضده ثم أعقب تعالى ببقية الواجبات فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ﴾، وتصدير الآية بالتوحيد والنهي عن الشرك، يدل على عظمة التوحيد وقبح الشرك*.

---

(١) رقم (٤٢٢٧) ٤/١٦٣٦ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة[1] التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ.

الأصول الثلاثة التي يجب معرفتها

يجب على كل مكلف من ذكر أو أنثى، أن يعرف ثلاثة أصول عظيمة، هي أول ما يسأل عنها العبد في قبره، فإن ثبت على السؤال كان من الناجين، وإن ضل عن جواب تلك الأصول كان من الهالكين.

(**فإذا**) سئلت عنها و(**قيل لك**): (**ما**) هي (**الأصول الثلاثة التي يجب على**) كل (**إنسان**) مكلف (**معرفتها**) والعمل بمقتضاها؟

(**فقل**) له: الأصل الأول: (**معرفة العبد ربه**) وهذا أصل الأصول، لتعبده على بصيرة ويقين، فتعرفه سبحانه بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، من وحدانيته وأفعاله وأسمائه وصفاته.

(**و**) قل له: الأصل الثاني: معرفة العبد (**دينه**) الذي تعبدنا به، وهو فعل ما أوجب علينا فعله واجتناب ما أوجب علينا تركه.

(**و**) قل له: الأصل الثالث الواجب علينا معرفته هو: معرفة العبد (**نبيه محمداً ﷺ**)، فإنه الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ الرسالة، ولا طريق لنا إلى ما تعبدنا به سبحانه إلا بما جاء به النبي ﷺ.

وذكر المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الأصول الثلاثة مجملة، ثم ذكرها بَعْدُ مفصلة أصلاً أصلاً، تتميماً للفائدة، وتنشيطاً للقاريء، فإنه إذا عرفها مجملة وعرف ألفاظها وأتقنها، بقي متشوفاً إلى معرفة معانيها.

أهميتها

وهذه الأصول الثلاثة تجمع الدين كله، من ربك؟ وما دينك؟ ومن هو نبيك؟ وهي التي يُسأل عنها العبد في قبره، ومعرفتها فقط دون اعتقادها

---

(١) هذه بداية رسالة ثلاثة الأصول وما سبقها هي: رسائل متفرقة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وضعها بعض تلامذته قبل ثلاثة الأصول كالتقدمة لها كما حدثني بذلك الوالد والشيخ صالح بن غصون ـ رحمهما الله ـ.

....

والعمل بما دلت عليه لا تنجي العبد من العذاب، وإنما ينجيه معرفتها واعتقادها مع العمل بما دلت عليه، ولا يثبت الإنسان عند السؤال في قبره إلا بذلك. وهذه الأصول الثلاثة ورد ذكرها مجتمعة في حديث العباس بن عبد المطلب ﵁ أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» رواه مسلم[١]. ومن رضي بهذه الأصول الثلاثة وقالها عن يقين بعد قول المؤذن «أشهد أن محمداً رسول الله»، غفر له ما تقدم من ذنبه، يقول النبي ﷺ: «من قال: حين يسمع المؤذن، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً غفر له ذنبه» رواه مسلم[٢].

قال الشيخ عبد اللطيف[٣] بن عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: «الرضا بهذه الأصول الثلاثة، قطب رحى الدين، وعليه تدور حقائق العلم واليقين»[٤] *.

---

(١) رقم (٣٤) ١/ ٦٢ من حديث العباس بن عبد المطلب ﵁.

(٢) رقم (٣٨٦) ١/ ٢٩٠ من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁.

(٣) هو جد الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمهما الله ـ.

(٤) الدرر السنية ٨/ ٣٥٥.

فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه،

الأصل الأول: معرفة العبد ربه

ثم شرع المصنف ـ رحمه الله ـ في تفصيل هذه الأصول الثلاثة أصلاً أصلاً، وبدأ بالأصل الأول، وهو معرفة العبد ربه، فقال لك:

(إذا) سئلت و **(قيل لك)**: **(من ربك؟)** أي: من معبودك وخالقك ورازقك الذي ليس لك معبود سواه؟

(فقل) له: **(ربي)** ومعبودي هو **(الله)** لا أعبد إلا إياه، ولا أصرف شيئاً من أنواع العبادة لغيره، فلا أركع، ولا أنحر، ولا أنذر، ولا أطوف إلا لله، كيف أكفر به وأعبد غيره.

وهو **(الذي)** أوجدني من العدم؟ و**(رباني)** بالنعم الظاهرة والباطنة؟ وفرج كروبي؟ وأغدق عليَّ النعم؟ وأسبغ عليَّ الخيرات؟ قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

بل **(وربَّى جميع العالمين بنعمه)** وأغدق عليهم جزيل آلائه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والرب هو: المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة»[1]، وقد مضى على الإنسان زمن طويل من العصور والدهور لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: موجوداً، بل كان معدوماً غير موجود ثم أوجده الله من العدم ورزقه النعم ليعبده وحده.

(وهو معبودي) الذي أصرف إليه جميع أنواع العبادة، **(ليس لي معبود سواه)** أتذلل له أو أصرف له شيئاً من العبادات، فكفى بربي معبوداً فهو المستحق للعبادة.

---

(١) الفتاوى ١٤/ ١٣.

والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**، وكل ما سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم.**

(والدليل) على أن الله أغدق عليك وعلى جميع الخلق بالنعم **(قوله تعالى)** في أول آية في كتابه العظيم:

(﴿ٱلْحَمْدُ﴾) وهو الثناء على المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، والألف واللام في الحمد للاستغراق أي: جميع المحامد (﴿لِلَّهِ﴾) المألوه المعبود بحق، فجميع المحامد له لا لغيره (﴿رَبِّ﴾) وخالق ورازق ومالك ومدبر جميع (﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) من إنسٍ وجنٍّ وملائكةٍ وغيرهم.

(وكل ما سوى الله) مما في الكون من الجن والإنس والجبال والأشجار فهو **(عالَم)** والله هو الخالق، وسمي العالَم عالَماً؛ لأنه علامة على خالقه وموجده ومالكه.

(وأنا) وأنت وجميع الخلق **(واحد من)** جملة **(ذلك العالم)** وتلك المخلوقات العظيمة، وكلنا محتاجون إلى الله في قضاء حاجاتنا وتفريج كرباتنا، فهو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، وهو المستحق بأن يعبد وحده دون من سواه وهذا مدلول كلمة الإخلاص *.

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر،

الدلائل التي تعرف بها ربك

(فإذا) سُئلت و**(قيل لك)**: ما الأدلة التي **(عرفت)** بها **(ربك)** وخالقك الذي تعبده.

(فقل) له: عرفته **(بآياته)** أي: علاماته ودلائله التي نصبها دلالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والألوهية.

وعرفته **(بمخلوقاته)** الباهرة التي أوجدها بعد العدم وجعلها دالة عليه، فكل شيء في الكون وإن دق فهو دال على وحدانيته.

تـأمَّـل سـطـورَ الـكـائـنـات فـإنـهـا ... من الـمَلِكِ الأعلى إليك رسائلُ

وقد خُطَّ فيـهـا لـو تـأملـتَ خطَّهـا ... ألا كـلُّ شـيءٍ مـا خـلا الله بـاطـلُ

والتفكر في الكون يزيد الإيمان ويعلق القلب بالله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس، التفكر في آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به، دون شيء من مخلوقاته»[1].

(ومن) أعظم **(آياته)** المشاهدة بالأبصار الدالة على وحدانيته: إقبال **(الليل)** وإدبار **(النهار)** وعدم اجتماعهما في زمن واحد، بل كل منهما يطلب الآخر، طلباً سريعاً لا يفصل بينهما شيء، هذا يقبل وذاك يدبر، وهما يتعاقبان علينا تسخيراً لنا.

ومن الآيات الباهرات الدالة على وحدانية الله وتدبيره **(الشمس)** المشرقة وهي سراج الكون، **(والقمر)** المضيء في الدهماء، آيتان تجريان على مسار دقيق بهر الخلق، هذه تشرق وذاك يغرب، ووقفوا أمام سيرهما مندهشين، جري منظم، وسير متقن، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يدرك أحدهما الآخر قال

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٢١.

الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ولا يتغير مسار أحدهما إلى غير ما قدّر الله ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وهذه الشمس على كبر حجمها إذا غربت تسجد تحت العرش، يقول أبو ذر رضي الله عنه: «كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال: يا أبا ذر، أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾» رواه البخاري[1]، وتستأذن ربها في الإشراق مرة أخرى يقول أبو ذر رضي الله عنه: «دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس فلما غربت الشمس قال: يا أبا ذر، هل تدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب تستأذن في السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها» رواه البخاري[2]، وفي الآخرة تكور وتجمع قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: «﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها»[3].

(ومن مخلوقاته) العظيمة: **(السموات السبع)** وسعتها وارتفاعها، **(والأرضون السبع)** وامتدادها، وسعة أرجائها، وتقدير أقواتها.

(وما فيهن) أي: ما في السموات السبع من الكواكب الزاهرات، والآيات الباهرات، وما في الأرضين السبع من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات من الحيوانات والنباتات، وسائر الموجودات.

(وما بينهما) أي: ما بين السموات والأرض من الهواء وغيره، وما بدا

(١) البخاري رقم (٣٠٢٧) ٣/ ١١٧٠.
(٢) البخاري رقم (٦٩٨٨) ٦/ ٢٧٠٠.
(٣) تفسير الطبري ٣٠/ ٦٥.

....

لهم من سيرهم من موطنٍ إلى موطنٍ في جوِّ السماء، وما ظهر لهم من منافع من نقل ما يتحدثون به وهم في بلدٍ، وغيرهم في بلد آخر، فسبحان الله ربِّ العرش العظيم، فحري بكل مسلم التفكر في آيات الله ومخلوقاته. قال ابن جزي المالكي ـ رحمه الله ـ: «التفكر هو ينبوع كل حال ومقام، فمن تفكر في عظمة الله اكتسب التعظيم، ومن تفكر في قدرته استفاد التوكل، ومن تفكر في عذابه استفاد الخوف، ومن تفكر في رحمته استفاد الرجاء، ومن تفكر في الموت وما بعده استفاد قصر الأمل، ومن تفكر في ذنوبه اشتد خوفه، وصغرت عنده نفسه»[1] *.

---

(١) القوانين الفقهية ص٢٨٤.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ

الدليل على بعض آيات الله

(**والدليل**) على أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله:

(**قوله تعالى:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾) الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده: (﴿ٱلَّيْلُ﴾) بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه (﴿وَٱلنَّهَارُ﴾) بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه (﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾) اللذان لا تستقيم معايش العباد إلا بهما.

(﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾) فإنهما مدبَّران مسخَّران مخلوقان، لا يستحقان أن يسجد لهما.

(﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾) لا لغيره ووحدوه فهو (﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾) فإنهما وإن كبر حجمهما فإن ذلك ليس منهما وإنما هو من خالقها.

(﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾) وحده جلَّ وعلا (﴿تَعْبُدُونَ﴾) فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين.

(**و**) الدليل على أن السموات السبع، والأرضين السبع، من مخلوقات الله الدالة عليه جلَّ وعلا:

(**قوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾) وما فيهما والذي أتقن خلقهما وأحكم بنيانهما (﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة (﴿ثُمَّ﴾) لما قضاها وأودع فيها من أمره ما أودع (﴿ٱسْتَوَىٰ﴾) جلَّ وعلا (﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾) العظيم الذي وسع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهو سبحانه (﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾) أي: يجعل الليل المظلم يغطي (﴿ٱلنَّهَارَ﴾) المضيء، فيعم الظلامُ وجهَ الأرض ويبقى كل من عليها في ظلام، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها.

(﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾) أي: سريعاً، كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل، طلباً لا فتور فيه ولا تأخير، حتى يطوي الله هذا العالم وينتقل العباد إلى دار القرار.

(﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾) الثابتة والسائرة (﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾) وتدبيره، وعلمه وحكمته.

(﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾)؟ بلى إن له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات، ويتضمن أحكامه الكونية القدرية.

(﴿وَ﴾) ألا له (﴿ٱلْأَمْرُ﴾)؟ بلى إن له الأمر المتضمن للشرائع والنبوات، وهذا يتضمن جميع أحكامه الدينية الشرعية.

(﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾) أي: بلغ في البركة النهاية، وهي صيغة لا تصلح إلا لله، فهو سبحانه عظم وتعالى وكثر خيره، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، وهو سبحانه (﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) المنعم عليهم بخيراته وسابغ فضله*.

والربُّ هو المعبود والدليل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾،

الربُّ هو المعبود وحده دون من سواه

(**والربُّ**) الخالق لتلك المخلوقات العظيمة، من السموات السبع، وما فيهن وما بينهما، هو المالك المتصرف بصفات الكمال و(**هو المعبود**) المستحق للعبادة وحده دون من سواه، وما سواه مخلوق مربوب ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

(**والدليل**) على أن الربَّ هو المعبود (**قوله تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾) من ذكر وأنثى (﴿ٱعۡبُدُواْ﴾) ووحدوا (﴿رَبَّكُمُ﴾) فهو المنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو (﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾)، وأوجدكم من العدم، (﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾) كذلك خلقهم الله بعد أن لم يكونوا شيئاً، وذكَّركم الله بهذه النعمة العظيمة (﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾) خالقكم وتأتمرون بأوامره وتجتنبون نواهيه فهو (﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾) بساطاً ممهداً لكم تستقرون عليها، وتقضون عليها معايشكم.

(﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾) جعلها (﴿بِنَآءٗ﴾) لكم وقبة مضروبة عليكم، وسقفاً محفوظاً مزيناً بالمصابيح والعلامات التي تهتدون بها في ظلمات البر والبحر، أرضٌ تقلكم وسماء تظلكم، لا غنى لكم عن إحداهما.

(﴿وَأَنزَلَ مِنَ﴾) السحاب الذي في (﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾) عذباً مباركاً (﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾) المتنوعة من نخيلٍ وفواكهَ وزروع وغيرها (﴿رِزۡقٗا﴾) طيباً (﴿لَّكُمۡۖ﴾) لتستمتعوا بالطيبات، وتستعينوا بها على طاعة الله.

ومن كانت هذه نعمه فهو المستحق أن يعبد وحده، فاشكروا نعمه، ومن شُكْرِهَا: (﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾) وشركاء ونظائر معه في العبادة (﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾) بطلان ذلك وأنها لا تستحق العبادة فكيف تعبدون مع الله

قال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله ـ: «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة».

آلهة أخرى مع علمكم ببطلان ذلك؟! وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الله وبطلان الشرك.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وقد احتج عليهم تعالى في هذه الآية بما أقروا به وعلموه من توحيد الربوبية، على ما جحدوه وأنكروه من توحيد الألوهية، فإنه تعالى كثيراً ما يقرر في كتابه توحيد ألوهيته بتوحيد ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل الأوضح والبرهان الأعظم على توحيد الألوهية.

وفعل العبادة من غير توحيد ليست بعبادة، فمن عبد الله تارة وأشرك معه غيره فليس بعابد لله، يدل لذلك أن الله سمى الذين يخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار وتلاطم الأمواج يفزعون ويلجئون إليه وحده، ويعرفون في كربتهم أن تلك الآلهة ليست شيئاً وأنها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كله سمَّاهم الله مشركين بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. فالتوحيد لا يسمى توحيداً إلا بإفراد الله بجميع أنواع العبادات، فمن أطاعه في جميع ما أمره به منها ولم يصرف أي شيء منها لغيره، فقد وحده وإلا فلا.

(قال) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر **(بن كثيرٍ)**، صاحب التفسير، **(ـ رحمه الله ـ)** وأسكنه جناته: **(الخالق)** الموجد **(لهذه الأشياء)** من العدم، من خلق الإنسان والأرض والسماء، وما فيهما من الخيرات والثمار **(هو المستحق للعبادة)**[1]، وغيره مخلوق ضعيف لا يستحقها قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٨٨ ونصه «ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به غيره».

....

دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً، والمعبود لا بد وأن يكون مالكاً للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً»[1] *.

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١.

وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل: الإسلام والإيمان والإحسان،

فضل تنوع العبادات

ومن فضل الله على عباده أن شرع لهم أنواعاً عديدة من العبادات يتقربون بها إليه، والمرء لا يعلم بأيها يدخل الجنة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار، وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها والالتذاذ هناك، على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها في هذه الدار، وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة، أثراً وجزاءً ولذةً وألماً يخصه لا يشبه أثر الآخر وجزاءه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار، وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته، كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه»(١).

والعبد تعلو درجته عند ربه إذا ازدادت عبوديته له، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته»(٢).

أجل أنواع العبادات

ولما بين المؤلف أن الواجب أن نعبد الله وحده ذكر شيئاً من أنواع العبادة فقال: **(وأنواع)** وأصناف **(العبادة التي أمر الله بها)** عباده وتعبدهم بها كثيرة جداً، ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ منها سبعة عشر مثالاً لأنواعها، فقال:

(مثل الإسلام والإيمان والإحسان)، وهذه الثلاثة أعلى مراتب الدين، وأهم أنواع العبادة، لذلك بدأ المصنف بها، فالإسلام بأركانه من صلاة وصيام عبادة، وهكذا الإيمان بأعماله الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٧٧.

(٢) الفتاوى ١٠/١٧٦.

ومنه: الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها

واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وكذلك الخوف والمحبة والرجاء، إلى غير ذلك، فكل ما يتعلق بالقلوب داخل في العبادة، بل هو أعلى أنواع العبادة وأعظمها، ومرتبة الإسلام هي أوسع دوائر الدين، يليها مرتبة الإيمان وهي أضيق من دائرة الإسلام، ثم دائرة الإحسان وهي أضيق تلك الدوائر، والداخلون في دائرة الإحسان هم الأقل من عباد الله، وهي مرتبة زاكية عالية لا ينالها إلا من اصطفاهم الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «أحوال القلوب وأعمالها، مثل محبة الله ورسوله ﷺ وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر له، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، مما يتفاضل الناس فيه تفاضلاً، لا يعرف قدره إلا الله عزَّ وجل»[1].

أنواع من العبادات

(ومنه): أي: ومن أنواع العبادات أيضاً التي أمر الله بها **(الدعاء)** وإنزال الحوائج به سبحانه، **(والخوف)** منه جلَّ وعلا، **(والرجاء)** والطمع بما عند الله، **(والتوكل)** وتفويض الأمور إليه، **(والرغبة)** فيما عند الله، **(والرهبة)** منه جلَّ وعلا، **(والخشوع)** لله، **(والخشية)** منه، **(والإنابة)** إلى الله والرجوع إليه، **(والاستعانة)** به سبحانه، **(والاستعاذة)** باللجوء إليه **(والاستغاثة)** به جلَّ وعلا، **(والذبح)** له وحده، **(و)** كذلك **(النذر)** لا يكون إلا له وحده.

(وغير ذلك من أنواع العبادة) المتنوعة **(التي أمر الله بها)** كبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، وحسن الخلق، وكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو عبادة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة

---

(١) الفتاوى ٧/ ٤٠٩.

....

والظاهرة»[١]، فالعبادة تشمل جميع أنواع الطاعات، وتتضمن كمال الحب، وكمال التعظيم، وكمال الرجاء والخشية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العبودية تجمع كمال الحب، في كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره، فهي الغاية التي ليس فوقها غاية»[٢] * .

---

(١) الفتاوى ١٠/١٤٩.

(٢) مدارج السالكين ٣/٤٤١.

كلُّها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ **. فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر،**

وجميع أنواع العبادة **(كلُّها لله تعالى)** لا يصلح منها شيء لغير الله، **(والدليل)** على ذلك **(قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾) أي: أماكن الصلوات أو أعضاء السجود كلها ملك (﴿لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ﴾) ولا تسجدوا بها لغيره، ولا تشركوا في الأرض (﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾) كائناً من كان، فإن الأرض جميعها ملك لله وحده، فأفردوه فيها بالعبادة.

حكم من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله

(فمن صرف منها) أي: من أنواع العبادة التي ذكرها المصنف أو غيرها، ولو **(شيئاً)** يسيراً **(لغير الله)** مثل لو دعا غير الله ـ من الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو من الأموات أو الغائبين أو الأصنام أو الأشجار ـ أو رجاهم، أو خافهم، أو سألهم قضاء الحاجات، أو تفريج الكربات أو غير ذلك **(فهو مشرك كافر)** أي: الشرك الأكبر، والكفر المخرج عن الملة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام، أن العبد لا يجوز له أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله، وأن من عبد ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، أو دعاه، أو استغاث به فهو مشرك»[(١)].

والفرق بين الشرك والكفر: أن الكفر أعمُّ، فكل مشرك كافر ولا عكس، فمن طاف على قبر، أو دعاه من دون الله، فهو مشرك ويسمى كافراً، ومن استهزأ بشيء من الدين فهو كافر ولا يسمَّى مشركاً، لأنه لم يشرك مع الله أحداً في ذلك بل استهزاؤه كفر، وأما في الآخرة فمآل الكافر والمشرك سواء، فكلاهما مخلد في النار ـ والعياذ بالله ـ، قال تعالى في حق الكافر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، وقال في حق المشرك: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

---

(١) الفتاوى ٣/ ٢٧٢.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

الدليل على كفره

(والدليل) على أن من صرف شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر، **(قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَدۡعُ﴾) ومن يصرف أيَّ نوع من أنواع العبادة لغير الله كَأَنْ يَدْعُوَ (﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾) من الأمواتِ، أو الأوثَان، أو الأحجار، أو غيرها (﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ﴾) أي: لا حجة ولا دليل له (﴿بِهِۦ﴾) أي: بتلك العبادة التي أشرك فيها مع الله، وهذا القيد لا يفهم منه أن هناك من يعبد غير الله بحجة وإنما أُتي به ليبين لهم أنه لا حجة لأحد في دعوى الشرك، فليست عبادتهم عن دليل إنما عن ضلالة وأهواء، لا عن هداية ووحي، فمن فعل ذلك فقد توعده الله بقوله: (﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾) وعقابه (﴿عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾) يوم القيامة بخلوده في النار، (﴿إِنَّهُۥ﴾) أي: من أشرك معه غيره (﴿لَا يُفۡلِحُ﴾) لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأولئك هم (﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾) الخارجون عن ملة الإسلام، وفي الآية أوضح برهان على كفر من دعا مع الله غيره، سواء كان المدعو ملكاً، أو نبياً، أو قبراً، أو غير ذلك *.

وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة»، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

الدعاء: عبادة

لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ أنواعاً من العبادة مجملة، شرع في ذكر أدلتها، أما الإسلام والإيمان والإحسان فسيذكر أدلتها مفصلة في الأصل الثاني، فبدأ بالدعاء الذي هو أصل العبادات وأساسها فقال: **(وفي الحديث)** الذي يدل على أن الدعاء من أنواع العبادة ما رواه الترمذي[١] أن النبي ﷺ قال: **(الدعاء)** وسؤال الله الحوائج **(مخ)** أي: لبُّ وخالص **(العبادة)** التي أمر الله بها الخلق، كما يفسره الحديث الآخر أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة» رواه أبو داود[٢]، فجعل الدعاء هو عين العبادة، ودعوة الرسل جاءت لتتوجه القلوب إلى سؤال الله وحده، ودعاء وسؤال غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من أنواع الشرك الأكبر المحبط لجميع الأعمال، جاء في الدرر السنية: «اتفق العلماء كلهم، على أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم، فقد كفر»[٣].

والدعاء من أكثر أنواع الشرك وقوعاً بين الخلق جاء في الدرر السنية: «من أعظم أنواعه ـ أي: الشرك ـ وأكثره وقوعاً في هذه الأزمان: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، وهذا متفق عليه أنه من الشرك الأكبر»[٤].

(والدليل) على أن الدعاء عبادة وأن صرفه لغير الله شرك **(قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾) وخالقكم (﴿ٱدْعُونِيٓ﴾) وأنزلوا بي حوائجكم (﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾) وأعطيكم سؤلكم، (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾) ويعرضون (﴿عَنْ

---

(١) رقم (٣٣٧١) ٥/٤٥٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) رقم (١٤٧٩) ٢/٧٦ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) الدرر السنية ١/١٩٦.
(٤) الدرر السنية ١/١٩٩.

عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

عِبَادَتِي﴾) ودعائي (﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾) نار (﴿جَهَنَّمَ﴾) ـ والعياذ بالله ـ (﴿دَاخِرِينَ﴾) ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، عقوبة لهم على ما تركوه من عبادة الله التي فرضها عليهم، والعاقل يعلم أن الكروب لا يكشفها إلا الله، لأنه القدير على كشفها قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، والمخلوق لا يصلح أن يُدعى أو يستغاث به من دون الله، لأنه عبد ضعيف يمرض ويموت، لا يملك لنفسه دفع ضر ولا جلب نفع، فكيف يجلبها لغيره؟! قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، فالْجأْ إلى الله وحده، وأنزل به حوائجك، وسله يعطك، واستغفره يغفر لك، وادعه بقلب خاشع خاضع يستجب لك، ومن أنزل حوائجه بالله والتجأ إليه، وتعلق قلبه بربه، وكفر بما يعبد من دون الله، فهو الموحد *.

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الخوف من الله: عبادة

منزلة الخوف من أجلِّ العبادات القلبية، وهي فرض على كل أحد، وهو ركن العبادة الأعظم، ولا يستقيم إخلاص الدين لله إلا به.

والخوف: «هو تألم القلب وحركته بسبب توقع مكروه في المستقبل»[(١)]، والخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

وهناك فرق بينه وبين الوجل والخشية والرهبة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الوجل، والخوف، والخشية، والرهبة، ألفاظ متقاربة غير مترادفة»[(٢)] أي: معانيها مختلفة.

والفرق بين الخوف والوجل: أن الخوف: تألم القلب على شيء يخاف منه في المستقبل، كرجل يخاف من مجاعة يتوقع أن تصيبه بعد شهر.

وأما الوجل: فهو رجفان القلب وحركته على شيء مخوف واقع عليه الآن، كرجل رأى أسداً فرجف قلبه من مشاهدته، فرجفان القلب حال المشاهدة يسمى وجلاً.

فتألم القلب على أمر مخوفٍ متوقعٍ في المستقبل يسمى خوفاً، وتألمه من أمر واقع عليه الآن يسمى وجلاً.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه، وعقوبته، أو لرؤيته»[(٣)].

(ودليل) أن **(الخوف)** عبادة من العبادات لا يصرف إلا لله **(قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾)** أي: المشركين فإن نواصيهم بيدي، (﴿وَخَافُونِ﴾) فأنا ربكم الذي ينصر أولياءه الخائفين منه (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾) بي.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٥١٣، بلغة السالك لأقرب المسالك للصاوي ٤/ ٤٣٨.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٥١٢.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٥١٣. وسيأتي الفرق بين الخشية والرهبة عند ذكرهما مع أدلتهما.

....

والخوف منه سبحانه من أسباب صلاح القلب، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث، فسد فساداً لا يُرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه»[(١)].

وقد كان الأنبياء أشد الخلق خوفاً من الله، قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، وقال الله لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، «وقد كان النبي ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل[(٢)] من البكاء» رواه النسائي[(٣)].

وكلما كان العبد بالله أعلم كان منه أخوف، ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد ربه، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه وحبه له، وكلما ازداد معرفةً ازداد حياءً وخوفاً وحباً، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي ﷺ: «إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» رواه البخاري[(٤)]، وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» رواه أحمد والترمذي[(٥)]. والخوف من الله عزَّ وجل هو الطريق إلى طاعته، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الخوف من الله، يستلزم العلم به، والعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته»[(٦)]، ولا صلاح للقلب إلا بالخوف من الله، قال أبو سليمان الداراني

فضل الخوف من الله

(١) الفتاوى ١٥/ ٢١.
(٢) أي: كصوت الإناء إذا غلا فيه الماء.
(٣) سنن النسائي رقم (١٢١٤) ٣/ ١٣ من حديث أبي مطرف رضي الله عنه.
(٤) صحيح البخاري رقم (٢٠/ ١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) المسند رقم (٢١٥٥٥) ٥/ ١٧٣، وسنن الترمذي رقم (٢٣١٢) ٤/ ٥٥٦ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٦) الفتاوى ٧/ ٢٤.

....

ـ رحمه الله ـ: «ما فارق الخوف قلباً إلا خرب»[1]، وهو المانع من اتباع الشهوات، قال إبراهيم بن سفيان ـ رحمه الله ـ: «إذا سكن الخوف القلوب، أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها»[2]، وإذا فارق الخوف القلب ضل عن الاستقامة، قال ذو النون ـ رحمه الله ـ: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق»[3].

والخائف من ربه يمنحه ربه التبصر في آياته ونذره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾، وفي الآخرة تُفَتَّح له الجنان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾، ومن عظم وقار الله في قلبه، عظم الله وقاره في قلوب الخلق ومنعهم أن يذلوه.

أركان العبادة

وأركان العبادة الخوف، والرجاء، والمحبة، وكل هذه الأركان الثلاثة يجب على العبد الإتيان بها جميعاً، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «قال بعض السلف: من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديقٌ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروريٌّ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن، وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه»[4]. والمحبة تجلب الخوف والرجاء قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه»[5] *.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٥١٣.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٥١٣.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٥١٣.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ١١.

(٥) مدارج السالكين ٢/ ٤٣.

....

والخوف من حيث هو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أقسام الخوف:

القسم الأول: خوف السِّر وهو أن يخاف من غير الله، من وثن، أو طاغوت، أن يصيبه بما يكره، وهذا شرك أكبر، كأن يخاف من صاحب القبر أن يضره أو يحل عليه عقوبة إذا لم يلجأ إليه، أو يخاف من صاحب القبر أن يصيبه بشيء إذا تنقص ذلك الميت، كما قال جلَّ وعلا إخباراً عن قوم هود أنهم قالوا لنبيهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ فهم خافوا الآلهة أن تصيبهم بسوء ومصيبة، وكقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهذا الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان، يخافونها ويخوّفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد، فكما أنه إذا دعا غير الله، أو سأل غير الله، انتفى عنه الإيمان، فكذلك إذا خاف غير الله قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق، في الحب له، أو الخوف منه، والرجاء له، فهو مشرك»[١].

القسم الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس، قال في فتح المجيد: «فهذا حرام، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[٢]. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن كيد عدو الله: أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائهم، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه ونهانا أن نخافه»[٣].

القسم الثالث: الخوف الطبيعي كخوف الإنسان من السبع، والنار،

---

(١) الفتاوى ٢٧/ ٣٣٩.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٩٦.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٣٠.

....

والغرق، فهذا لا يلام عليه العبد كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ونحو ذلك، فهو أعلى مراتب الإيمان.

كيف تنزع خوفك من البشر؟

والاستسلام لله وتفويض الأمور إليه مما ينزع الخوف من البشر قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والذي يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله، فإن من سلَّم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع»[1].

ومن خاف ربه في الدنيا أمن يوم الفزع في الآخرة، ومن أمن في الدنيا فزع في الآخرة، والله لا يجمع لعباده بين خوفين إما خوف في الدنيا من الله، وإما خوف في الآخرة لمن لم يخف منه في الدنيا، ومن خاف ربه لم يفزعه أحد، بل هو مطمئن القلب ساكن الجوارح.

ومن صح خوفه من الله هرب إليه، وأنْعِمْ بنفس لا تأنس إلا مع الله، ولا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً، وكل عاصٍ لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله.

فراقب ربك في أحوالك وخف من عقابه، تسعد في دنياك وأخراك، والمخلوق إذا خفته استوحشت منه، وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه *.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣١.

....

الرجاء: عبادة

الرجاء عبادة قلبية، وهو: الرغبة والطمع في الحصول على شيء مرجو، وهو يتضمن التذلل والخضوع.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

والتمني يكون مع الكسل.

والرجاء هو الحادي للأعمال قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لولا روح الرجاء، لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدِّمت صوامعُ وبيعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً»[١].

وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء معاً قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء، فيفعل ما أمر به على نور الإيمان راجياً الثواب، ويترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب»[٢].

أنواع الرجاء

والرجاء ثلاثة أنواع:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله، على نور من الله، فهو راج ثوابه، ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راجٍ مغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب»[٣].

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٢.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٥٠٢.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٣٦.

....

ومن قوي رجاؤه ازداد عمله الصالح، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كلما قوي الرجاء جدَّ صاحبه في العمل كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المَغَلِّ[1]، غَلَّقَ[2] أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه، قصر في البذر»[3].

والرجاء يحدو بالعبد في سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولولا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه[4] الخوف، ويحدوه الرجاء»[5].

محركات القلوب

والعبد يجمع بين المحبة والرجاء والخوف، ولا تحصل العبودية لله إلا بهذه الثلاثة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عزَّ وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

(١) أي: نتاج الأرض.
(٢) أي: ملأ.
(٣) الفوائد ص ١٢٩.
(٤) أي: يزجره.
(٥) مدارج السالكين ٢/ ٥٠.

....

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب؟.

قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عزَّ وجل بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً، وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو»[1].

متى يقوى الرجاء؟

ويقوى الرجاء كلما قوي العلم بالله، قال ابن القيم ـ رحمه الله: ـ «قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته»[2].

والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، فرجاء العبد ثواب الله واستسلامه لربه بانطراحه بين يديه ورضاه بمواقع حكمه فيه، ما ذاك إلا رجاءً منه أن يرحمه ويقيله عثرته ويعفو عنه ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته، فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد

(١) الفتاوى ١/ ٩٥.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٢.

....

والانطراح بالباب، ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة، فالرجاء حياة الطلب، وهو سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب شيء إلى الجواد أن يرجى ويؤمل ويسأل، وكلما قوي رجاء العبد وطمعه في فضل الله ورحمته وتيسير أموره قويت عبوديته لله فهو عبادة عظيمة *.

ودليل الرجاء، قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

دليل أن الرجاء عبادة

(**ودليل**) أن (**الرجاء**) عبادة لا تصرف لغير الله (**قوله تعالى**: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾) ويأمل (﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾) وموعوده وثوابه (﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾) وهو الموافق لشرع الله، (﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾) لا رياءً ولا سمعةً ولا يصرف العبادة لغير خالقه، بل يجعل أعماله كلها خالصة لوجه الله، فمن جمع بين الإخلاص والمتابعة نال ما يرجو ويطلب، ومن عَدِمَ ذلك فإنه خاسر، وفاته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

وقد أمر الله بتعليق الرجاء به فقال: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾. والمسلم يعلق آماله وأطماعه ورجاءه بالله، قال سبحانه: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. والطامع في رجاء الله يحدو به إلى التأسي بنبيه ﷺ قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾، ومن لم يرجُ فضل الله عرَّض نفسه للوعيد قال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

الشرك في الرجاء

ومن رجا غير الله مما لا يقدر عليه إلا الله، كمغفرة ذنوبه، أو شفاء مريضه، فقد صرف تلك العبادة لغير الله، ووقع في الشرك الأكبر، لأن هذا طمع في شيء لا يملكه إلا الله، وصرف عبادة الرجاء إلى غير الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسباباً فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع العارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى»[1].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٢٥٦.

....

ومن رجا مخلوقاً أو تعلق به، انصرف قلبه عن العبودية لله، وصار عبداً لغيره بقدر ما قام في قلبه من التعلق والرجاء فذلّ لغير الله وخضع، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله، إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾»[١]. ومن علق رجاءه بالبشر خذل قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وكل من خاف شيئاً غير الله سلط عليه، كما أن من أحب مع الله غيره عذب به، ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته، وهذه أمور تجربتها تكفي عن أدلتها»[٢].

رجاء غير الله مذلة

فيجب على العبد أن يعلق رجاءه بالله دون من سواه، فالخلق مجبولون على الضعف، عاجزون عن جلب النفع لأنفسهم ودفع الضر عنهم، وهم عن غيرهم أعجز، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه، إلا خاب ظنه فيه»[٣]. ولن يجني من ورائهم سوى الذلة والمهانة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه، إما لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصاً له الدين، أجاب دعاءه وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة»[٤].

(١) الفتاوى ١/ ٢٩.
(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٥٦.
(٣) الفتاوى ١٠/ ٢٥٧.
(٤) الفتاوى ١٠/ ٦٥٠.

....

فلا تعلق أطماعك وأملك بغير الله، فلن تجني إن فعلت سوى العدم، وذل المسألة والتفريط في عبادة جليلة، وارج كرم الله وعطاءه وجزيل مناه، واطلب منه كشف الحاجات والملمات، فذلك أرفع للدرجات، وأعز للنفس، وفيه تحقيق للمأمول، وأداء عبادة عظيمة، وهي الرجاء*.

....

التوكل: عبادة

التوكل: هو صدق التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له، وهو عبادة من العبادات، بل هو من أجل أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد، قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولذلك أمر الله به في غير آية من القرآن، أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه»[(١)]، وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها»[(٢)].

منزلة التوكل

ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «منزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة والإنابة غاية»[(٣)]. وقد جعل الله التوكل سبباً لنيل محبته قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وهو دليل على صحة إسلام المتوكل قال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

حقيقة التوكل

وحقيقته: تعلق القلب بالله والأخذ بالأسباب مع عدم الاعتماد عليها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وسر التوكل وحقيقته: هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص٤١٧.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١١٣.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٣٤.

....

إليها، كما لا ينفعه قوله: «توكلت على الله» مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء آخر»[١].

والتوكل محله السبب، وكماله بالتوكل قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل محله الأسباب، وكماله بالتوكل على الله، وهذا كتوكل الحرَّاث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقه»[٢].

ويجب فعل الأسباب مع التوكل ولكن مع عدم الركون إليها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها»[٣] *.

---

(١) الفوائد ص ١٦٤.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٦٤.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ١٢٠.

....

توكل الاضطرار وتوكل الاختيار

والتوكل من حيث نوعه ينقسم إلى قسمين: توكل اضطرار، وهذا لا يتخلف عنه الفرج بإذن الله، وتوكل اختيار، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأً ولا وَزَراً[1] إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة، وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأموراً به ذم على تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضاً فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما، وإن كان السبب محرماً حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد، ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق، وإن كان السبب مباحاً نظرت، هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرَّق عليك قلبك، وشتَّت همك، فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبَّب به، فلا تعطل حكمته»[2].

أقسام التوكل:

وينقسم التوكل إلى توكل في الأمور الدنيوية، وتوكل في الأمور الدينية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل على الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

---

(١) الوزر: الملجأ، وأصل الوزر الجبل المنيع وكل معقل وزر، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به فهو: وزر، والوزر: الحمل الثقيل، والوزر: الذنب لثقله. لسان العرب ٥/ ٢٨٢.

(٢) الفوائد ص ١٦٣.

....

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه، من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله، كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني، كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه، فأعظم التوكل عليه، التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول ﷺ وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل عليهم الصلاة والسلام وخاصة أتباعهم»[1].

متى يقوى التوكل؟

وإذا قوي توحيد العبد قوي توكله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد يكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله، أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها»[2].

التوكل عبادة قلبية لا يصرف لغير الله

فالتوكل عبادة قلبية، فإن اعتمد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فذلك هو الشرك الأكبر.

وإن اعتمد على الأحياء الحاضرين من السلاطين ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه من رزق، أو دفع أذى ونحوه، فهو نوع شرك أصغر *.

(١) الفوائد ص ١٦٣.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٢٠.

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾.

(ودليل) أن **(التوكل)** عبادة لا يصرف إلا لله **(قوله تعالى:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾) لا على غيره (﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾) وفوضوا أموركم إليه (﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾) به، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «المعلق على الشرط يُعْدم عند عدمه، وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له لا إيمان له، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة»[1].

جزاء المتوكل

ومن يعتمد على الله في أموره فهو كافيه كما في **(قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾) ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه (﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾) وكافيه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء، وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضر الذي يتشفى به منه»[2].

ومن كان الله كافيه تيسرت أموره ولم يطمع فيه أحد، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له، هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[3].

ولم يذكر تعالى للتوكل جزاء غير تولي كفاية العبد، ولم يأت في أي

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٢٩.
(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٤٦٥.
(٣) الفتاوى ١٠/ ٣٢.

....

عبادة من العبادات أن الله قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، إلا في مقام التوكل، فدل على عظم شأن التوكل وفضيلته وأنه أجل أنواع العبادة وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦٓ﴾ فلا يعجزه شيء أراده، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به، وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيـه إلى الله ويدعوه»[(١)].

التوكل الصادق

وراحة النفس في تفويض أمرها لخالقها، ويزداد تعلقها ببارئها إذا تذكرت أن الرب عليم بحالها، رحيم بأمرها، قدير على كشف ضرها، كريم يأجرها على مصيبتها ويخلف لها عوضاً خيراً مما فات عنها، وإذا صدق التوكل على الله تحققت المنى بأمر الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعن به على طاعاته»[(٢)].

فعلق قلبك بالله عند طلب السلامة من الشرور، والعافية من الفتن، وحصول الرزق، ودخول الجنة، والنجاة من النار، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وإياك والتعلق بالمخلوق، فإنه عاجز عن كشف الضر، قتور في العطاء، والمخلوق وإن كان له نوع قدرة فلا يعتمد عليه ولو فيما أقدره الله عليه، بل يعتمد على الله وحده، فإن من اعتمد على حسبه ذلَّ، ومن اعتمد على عقله ضلَّ، ومن اعتمد على ماله قلَّ، ومن اعتمد على الناس ملَّ.

(١) الفتاوى ١٠/ ٦٦٢.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١١٤.

....

فاعتمد على الله وحده فإنه كافيك جميع أمورك، وهو متوليها إن ألقيت إليه حاجاتك، وسلَّمت إليه مقاليد أمورك، وأحسن الظن به تعالى وتوكل عليه في جميع أمورك، تحقق عبادة من أجلّ العبادات، فلا ذلة ولا قلة فيمن توكل على الله *.

....

الرغبة عبادة والفرق بينها وبين الرجاء

الرغبة هي: طلب الوصول إلى الشيء المحبوب.

والفرق بين الرغبة والرجاء:

أن الرجاء طمع والرغبة طلب، فمن طمع في دخول الجنة مثلاً، فطمعه هذا يسمى رجاء.

ومن طلبها بالعمل الصالح، فإن طلبه لها هذا وسعيه إليها يسمى رغبة، فكل رغبة رجاء.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والفرق بين الرغبة والرجاء: أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف»[1].

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يرغب إليه وحده جلَّ وعلا فقال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾.

الرهبة: عبادة

والرهبة: هي الخوف والفزع المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بعمل، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه»[2].

والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر، وعبادتا الرغبة والرهبة تنحسران عن العبد بقدر ذنوبه، وتزيدان بزيادة إيمانه، والعبد ينال التوفيق بإذن الله بقدر تلك العبادة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إذا أراد بعبده خيراً، وفقه لاستفراغ

(١) مدارج السالكين ٢/ ٥٥.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٥١٢.

وسعه، وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق، فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق»[1].

الخشوع عبادة لا يصرف إلا لله

والخشوع هو: الذل لعظمة الله، ويكون في القلب والجوارح، وهو قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والخشوع: الخضوع لله تعالى، والسكون والطمأنينة إليه بالقلب والجوارح»[2].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح وهي تظهره»[3]. وكلما خشع القلب لله، كان أكمل له عبودية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأكمل الخلق عبودية، أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة»[4].

ومن فضل الله على عباده، أنَّ من رغب وطمع فيما عند الله أُجر، ومن رهب من عذاب الله أمَّنه الله، ومن خشع قلبه وجوارحه لله عاش عزيزاً في الحياة، ولم يخضع لأحد من الخلق.

دليل أن الرغبة والرهبة والخشوع عبادة

(ودليل) أن **(الرغبة)** فيما عند الله، **(والرهبة)** من عذابه، **(والخشوع)** والخضوع له وحده، وأنها من أنواع العبادة، ما ذكره الله تعالى عن الأنبياء والصالحين في معرض الثناء عليهم في **(قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ﴾) ويسابقون (﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾) والطاعات وعمل القربات،

(١) شفاء العليل ص ٢٢٦.
(٢) الفتاوى ٢٨/ ٣١.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.
(٤) مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٠٠.

﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

(﴿وَيَدۡعُونَنَا﴾) وحدنا، ويسألوننا الأمور المرغوب فيها، (﴿رَغَبٗا﴾) فيما عندنا من الثواب، (﴿وَرَهَبٗاۖ﴾) منَّا وممَّا عندنا من العقاب، (﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾) خاضعين متذللين متضرعين، وذلك لكمال معرفتهم بربهم.

فدلت الآية على أن هذه الثلاثة الأنواع، الرغبة فيما عند الله، والرهبة من الله، والخشوع لله، عبادة من أجل أنواع العبادات، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك *.

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾.

الخشية: عبادة

الخشية بمعنى الخوف إلا أن الخشية أخص من الخوف، لأن الخشية مقرونة بمعرفة الله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «خشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية»[١].

والخشية متضمنة للرجاء قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»[٢].

دليل أن الخشية عبادة لله

والخشية عبادة عظيمة لا تصرف إلا لله، **(ودليل)** أن **(الخشية)** عبادة من العبادات **(قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾) فليسوا أهلاً للخشية (﴿وَٱخْشَوْنِي﴾)؛ أمر الله بخشيته؛ لأن خشيته رأس كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب، انقطعت هذه الوُصل»[٣].

ثمرة الخشية

ومن خشي ربه رزقه الله حياة القلب وانتفع من المواعظ والعبر قال سبحانه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، وآثار الخضوع لله بادية على من يخشاه قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، والهداية إنما هي وسيلة إلى الخشية، قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وهي موجبة لمغفرة الله وفضله العميم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

---

(١) التبيان ص ٨٨.
(٢) الفتاوى ٧/ ٢١.
(٣) عدة الصابرين ص ٤٨.

وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ﴾، وموجبة لجنات النعيم قال عزَّ وجل: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، وأخشى الناس لله أعرفهم به، والعالِم حقاً هو من خشي الله قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «كل من خشي الله، فهو عالم»[1]، وحسبك بالخشية علماً قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً»[2]، وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

العالِم حقاً

العزة في الخشية

ومن خشي ربه عاش بين الخلق عزيزاً، وفي حياته سعيداً. فاجعل ربك بين ناظريك، واخش الأمن من مكره وحلول عقوبته، وأكثر من الطاعات لتنال خشيته تعالى، وهو سبحانه أهل أن يخشى وقد أمر بخشيته وحده، ونهى عن خشية من سواه قال سبحانه: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

وخشية المخلوق من المخلوق ذلٌّ وخضوع لمن لا يستحق الخضوع، فلا تخشَ إلا ربك، فالخشية عبادة عظيمة من أجلِّ العبادات، وصرفها لغير الله شرك*.

(١) الفتاوى ٧/ ١٧.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٤٥٣٢) ٧/ ١٠٤.

....

الإنابة: عبادة

وتوجه القلب إلى الله بالإنابة والرجوع إليه عبادة جليلة يثاب عليها العبد.

والإنابة: هي الرجوع إلى الله، وأصلها محبة القلب وخضوعه وذله للمحبوب المراد، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الإنابة: هي عكوف القلب على الله عزَّ وجل، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك: عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له، والمتابعة لرسوله ﷺ»[1].

الفرق بين الإنابة والتوبة

والإنابة بمعنى التوبة ولكنها أعلى من التوبة، لأن التوبة إقلاع وعزم على أن لا يعود وندم على ما مضى، فإن استمر على ما هو عليه من عباداته فهو تائب، فإذا أقبل على الطاعات بعد توبته كقراءة القرآن والصدقة فهذه إنابة إلى الله، فمن تاب من السرقة مثلاً كان تائباً، فإذا أقبل على الطاعات بعد التوبة كالاستغفار والذكر ونحوهما كان منيباً، فالإنابة تدل على التوبة، وتدل على الإقبال على الله بالعبادات.

والمصنف اقتصر على ذكر الإنابة ولم يذكر التوبة من أنواع العبادة، لأن صورة العبادة بالنسبة للإنابة أوضح من صورتها بالنسبة إلى التوبة، بسبب زيادة الإقبال على العبادة، ولأن الإنابة أعم من التوبة.

والمنيب إلى الله هو المسرع إلى مرضاته، العائد إلى الله في كل وقت، السبَّاق إلى محابِّه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إنابة أوليائه إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فالمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه، لأن لفظ الإنابة فيه معنى الإسراع والرجوع والتقدم»[2] *.

---

(١) الفوائد ص ٣٤١.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٣٤.

....

الإنابة دأب الأنبياء

والإنابة إلى الله دأب الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وقال نبينا محمد ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وأثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام لاتصافه بالإنابة إليه والرجوع إليه في كل أمر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، والبشارة لأهل الإنابة قال جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، ولا يعتبر بالآيات، ولا يتعظ بالعبر إلا المنيب إلى ربه، قال عزَّ وجل: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العبد إذا أناب إلى الله، أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدل بها على ما هي آيات له»(١). والإنابة إلى الله مانعة من عذاب الله قال عزَّ وجل: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، والجنة أعدت نزلاً للقلب الخاشع المنيب قال جلَّ وعلا: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، وأمر الله جميع الخلق بالإنابة إليه والرجوع إليه، قال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة والإنابة غاية.

ثمرات الإنابة

والإنابة من أسباب سعادة العبد في الدارين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «العبد إنما خلق لعبادة ربه، فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينيب إليه»(٢). ولكون الإنابة منزلة عالية عند الله فإن الشيطان

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٤٢.

(٢) الفتاوى ١٤/ ٣٢.

يسعى لصد العبد عنها، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه، والتقرب إليه والاتصال به»(١).

تفاوت العباد في الإنابة

والإنابة عبادة يتفاوت العباد فيها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه»(٢).

والفطرة دالة على الإنابة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه»(٣).

(ودليل) أن **(الإنابة)** عبادة عظيمة أَمْر الله تعالى عباده بها في **(قوله تعالى**: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾) بقلوبكم (﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾) بجوارحكم، فهو ظاهر في أنها عبادة وأنه يحبها شرعاً وديناً، فصرفها لغير الله شرك *.

---

(١) الفتاوى ٧/ ٢٨١.

(٢) طريق الهجرتين ص٢٩٢.

(٣) الفتاوى ٢/ ٦.

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾،

الاستعانة: عبادة

الاستعانة: طلب العون، وهي تجمع: الثقة بالله والاعتماد عليه، مع كمال الذل له، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والاستعانة بالله تتضمن ثلاثة أمور: كمال الذل له، مع الثقة به، والاعتماد عليه، ومن استعان بغير الله محققاً هذه المعاني الثلاثة فقد أشرك مع الله غيره»[1].

(ودليل) أن **(الاستعانة)** من أنواع العبادة **(قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾)** أي: نخصك وحدك بالعبادة (﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾) نفردك بالاستعانة دون خلقك، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي، فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة.

ومدار الدين على العبادة والاستعانة. والقيام بعبادة الله والاستعانة به، هما الوسيلة للسعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا به»[2]. والعبادة من مقتضيات ألوهيته، والاستعانة من مقتضيات ربوبيته، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته، من المحبة والخوف والرجاء والأمر والنهي، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية، من التوكل والتفويض والتسليم»[3].

والاستعانة تكون على أمور المستقبل، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٤.

(٢) الفتاوى ١١/ ٥٢٤.

(٣) الفتاوى ١/ ٨٩.

وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله».

«فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل، فأما ما وقع فإنما فيه الصبر والتسليم والرضا»[١].

كيفية الوصول إليها

والاستعانة عبادة عظيمة ومما يعين عليها قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يوجب الإعانة، ولهذا سنَّها النبي ﷺ إذا قال المؤذن: حي على الصلاة فيقول المجيب: «لا حول ولا قوة إلا بالله متفق عليه[٢]»[٣]، وقال أيضاً: «إن هذه الكلمة: ـ أي: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ـ كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً»[٤]. وأَجْمعُ الأدعية طلب العون على الطاعة، قال ابن القيم: «قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين»[٥].

وبالاستعانة بالله تستغني عن الاستعانة بالخلق، وكمال غنى العبد في تعلقه بربه، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً، وقد أمر الأنبياء أقوامهم بالاستعانة بالله وحده قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾، **(و)** أمر النبي ﷺ بالاستعانة بالله فقال **(في الحديث)** الذي رواه الترمذي: **(«إذا استعنت فاستعن بالله»)**[٦]، قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «بقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى

---

(١) الفتاوى ١٣/ ٣٢١.

(٢) الفتاوى ١٣/ ٣٢٢.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٨٨) ١/ ٢٢٢ من حديث معاوية رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (٣٨٥) ١/ ٢٨٩ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) الفتاوى ١٠/ ٦٨٦.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٧٨.

(٦) سنن الترمذي رقم (٢٥١٦) ٢/ ٣٨٥ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

....

بطلبه، أو بقلبه، أو بأمله، فقد أعرض عن ربه إلى من لا يضره ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله»[1].

الاستعانة بالمخلوق

ولا بأس بالاستعانة بالمخلوق الحي على أمر قادر عليه، فإن كانت على بر وخير فهي إحسان، قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، وإن كانت على إثم فهي حرام، قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وأما الاستعانة بالأموات، أو بالأحياء الغائبين، أو بالأحياء الحاضرين على أمر لا يقدرون عليه، فهذا شرك.

والعبد ضعيف بنفسه لا غنى له عن عون الرب، ومن سعى في تحقيق مطلوبه وجب عليه أن يكون مستعيناً بالله متوكلاً عليه مفتقراً إليه في حصوله، ومن فضل الله على عباده أن من تعلق به منهم أعانه الله، فالاستعانة عبادة عظيمة عليها مدار الدين، على العبد تحقيقها وعدم التفريط فيها *.

---

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ١٢٢.

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

الاستعاذة: عبادة

الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام والتحرز، وحقيقتها: الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

والاستعاذة بالله هي الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، واعتقاد كفايته، وتمام حمايته من كل شر.

وهي عبادة من العبادات التي أمر الله عباده بها كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. قال في فتح المجيد: «وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله»[1]، ولا عاصم في تفريج الكروب ورفع الخطوب سوى ربِّ العالمين، والحياة مليئة بالآفات والمكاره، ولكل مخلوق أعداء من الجن والإنس وعلى مقدمتهم إبليس ـ لعنه الله ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وأخبر الله أن لكل نبي أعداءً من الجن والإنس قال سبحانه: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا**﴾، وكذلك أتباع الرسل يتعرضون للابتلاء.

ولا غنى لأي مخلوق من الاحتماء بجناب الله والاعتصام بحماه من شرور الإنس و الجن ومن مكاره الحياة وآفاتها، ومن طلب العوذ من الله فقد رام عبادة جليلة أمر الله بها في أكثر من موضع في كتابه.

دليل أن الاستعاذة عبادة

(ودليل) أن **(الاستعاذة)** من أنواع العبادة **(قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾)** ـ يا أيها النبي متعوذاً، والخطاب أيضاً لجميع أمته ـ: (﴿أَعُوذُ﴾) أي: أَعْتَصِمُ وأَلتَجِيءُ (﴿بِرَبِّ﴾) وخالق (﴿ٱلْفَلَقِ﴾) وهو الصبح، **(و)** قوله: (﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ﴾) وخالق (﴿ٱلنَّاسِ﴾)، وقد قال النبي ﷺ عن المعوذتين لعقبة بن عامر رضي الله عنه:

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ١٨٨.

....

«ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس» رواه مسلم[1].

الاستعاذة أهم من النفس والطعام

ويجب على المسلم أن يداوم على الاستعاذة بهما في صباحه ومسائه، فهي سبب في تحصينه من الشرور والآفات يومه وليلته، وقد أوصى النبي ﷺ عقبة بن عامر رضي الله عنه أن يتعوذ بهما وقال له: «تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما» رواه أبو داود[2]، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين، أعظم من حاجته إلى النَّفس والطعام والشراب واللباس»[3].

والربُّ سبحانه متصف بالقوة والعزة، من اعتصم به لم يصله أذى أحد، وتخلف عنه الضرر ولو مع وجود أسبابه، قال عليه الصلاة والسلام: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرتحل من منزله ذلك» رواه مسلم[4]، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «هذا خبر صحيح وقول صادق، علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر، عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته فلدغني عقرب بالمهدية[5] ليلاً، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات»[6].

والمخلوق ضعيف يتعرض للأذى، لا يهنأ في حياته إلا بالاعتصام واللوذ بالله، ويجب على العبد أن يعلم أن الضرر والنفع بيد الله، وأن من سعى للإضرار بك لا يتحقق له مناه ما لم يشأ الله ذلك، قال عليه الصلاة

---

(١) صحيح مسلم رقم (٨١٤) ١/٥٥٨.
(٢) سنن أبي داود رقم (١٤٦٣) ٢/٧٣.
(٣) بدائع الفوائد ٢/١٩٩.
(٤) رقم (٢٧٠٨) ٤/٢٠٨١ من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.
(٥) المهدية: مدينة عامرة ببلاد الأندلس.
(٦) فتح المجيد ص ١٩٠.

....

والسلام: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي[1]، وقد ذكر الله ما ضرره ظاهر متحقق في رأي العبد وهو السحر، ومع ذلك فقد يتخلف عنه الضرر قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

فالاستعاذة بالله عبادة من أجل العبادات، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يستعيذ بفالق الإصباح من شر جميع المخلوقات، ومن شر الغاسق والساحر والحاسد، والقادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم، هو القادر أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه ويخشاه.

الاستعاذة بالمخلوق

ولا بأس بالاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه؛ لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها فقطعت» رواه مسلم[2]، قال في تيسير العزيز الحميد: «المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستعاذ فيه إلا بالله»[3].

أما الاستعاذة بالأموات، أو بالغائبين الأحياء، أو بالأحياء الحاضرين على أمر لا يقدرون عليه، فهذا شرك أكبر كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

فاجعل مسألتك واستعاذتك بالله وحده، فلا عاصم من المهالك سواه، ولا جالب للنفع غيره *.

(١) رقم (٢٥١٦) ٢/ ٣٨٥ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
(٢) رقم (١٦٨٩) ٣/ ١٣١٦.
(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢١١.

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

الاستغاثة: عبادة

الاستغاثة: هي طلب الإغاثة والغوث، وهو طلب الإنقاذ من الضيق والشدة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الاستغاثة لا تكون إلا بعد الذعر»[1].

الفرق بين الاستغاثة والدعاء والاستعاذة

والفرق بين الدعاء والاستغاثة:

أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب.

وأما الدعاء فهو أعم، يكون من المكروب ومن غيره، فهي أخص أنواع الدعاء، فإن دعاء المكروب يقال له: استغاثة.

والفرق بين الاستغاثة والاستعاذة:

أن الاستعاذة: تطلب منه أن يعصمك وأن يمنعك وأن يحصنك.

وأما الاستغاثة: فهي أن تطلب منه أن يزيل ما حل بك من شدة.

والاستغاثة تتضمن: كمال الافتقار إلى الله، واعتقاد كفايته، وهي من أفضل الأعمال وأكملها، والمرء في هذه الحياة عرضة للكروب والكوارث، فمن استغاث بربه في كشف ملماته فقد أدى عبادة عظيمة فزع إليها الأنبياء والصالحون عند الشدائد ففرج الله كروبهم.

(ودليل) أن **(الاستغاثة)** عبادة **(قوله تعالى: ﴿إِذْ﴾)** أي: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم فقمتم (﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾) وتطلبون منه المدد والعون والنصر (﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾) وذلك يوم بدر حين نظر النبي ﷺ إلى كثرة المشركين وجعل يهتف بربه ويناشده، ويطلب منه الغوث ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فأمده الله بالنصر على عدوه، فقتلوا وأسروا وظهر الإسلام وسمي يوم الفرقان.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٦٠.

....

فدلت الآية على أن الاستغاثة عبادة من أجل العبادات، وأن صرفها لغير الله ـ كأن يستغاث بالأصنام، أو الأموات، أو الغائبين، أو نحوهم ـ شرك به تعالى، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن أنواعه ـ أي: الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله»[(١)]، وهذه الاستغاثة لا نفع منها سوى الحسرة والندامة، وصاحبها يجري خلف سراب لن يتحقق له مُبتغاه، ففي الدنيا خاسر وفي الآخرة هالك، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «يقول أبو يزيد ـ رحمه الله ـ: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق»[(٢)].

استغاثة شركية

فمن دعا غير الله والتجأ إليه من الأموات، أو الأحياء الغائبين فلن يتحقق له مطلوبه ولو عكف على استغاثته سنين، قال سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

والاستغاثة بالأحياء الحاضرين القادرين على الإغاثة جائزة فيما يقدرون عليه، قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أما إنزال وطلب الحوائج منهم وهم غير قادرين، أو من الأموات، أو الغائبين، فهي شرك بالله.

استغاثة جائزة

فإذا حلَّت بك الخطوب، واشتدت بك الكروب، فاستغث بعلام الغيوب، فبيده مقاليد السموات والأرض قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ *.

(١) مدارج السالكين ١/٣٤٦.

(٢) الفتاوى ١٤/٢٩.

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

الذبح: عبادة

الذبح لله من أجلِّ الطاعات، ومن أفضل العبادات المالية، وأمارة على صدق الإيمان وسمو النفس لله، لأن الحيوان المذبوح محبوب لأربابه، فإذا بذله لله متقرباً به إلى الله، وسمحت نفسه بإذاقة الحيوان الموت، صار أفضل من مطلق العبادات المالية، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وما يجتمع في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن به أمر عجيب»[١] من ظهور حلاوة الإيمان على القلب.

(**ودليل**) أن (**الذبح**) عبادة عظيمة لله (**قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّ﴾) تعبدي بـ (﴿صَلَاتِي﴾) أي: صلواتي (﴿وَنُسُكِي﴾) بالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله، وخص هاتين العبادتين، لشرفهما وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله وإخلاص الدين له، فالصلاة من أجل العبادات البدنية، والنحر من أجل العبادات المالية، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله وأقواله.

(﴿وَمَحْيَايَ﴾) أي: ما آتيه في حياتي، (﴿وَمَمَاتِي﴾) أي: ما أدخره عند الله بعد مماتي.

كل ذلك (﴿لِلَّهِ﴾) وحده (﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾) ومعبودهم (﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾) في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير.

(﴿وَبِذَلِكَ﴾) أي: بإخلاص تلك الأعمال لله (﴿أُمِرْتُ﴾) أمراً حتماً يجب عليَّ امتثاله، (﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾) من هذه الأمة، فإن من سخر جسده بالتعبد لله وماله بذبح القرابين لربه فهو المسلم حقاً، وقد أمر الله رسوله ﷺ بإخلاص تلك العبادتين له لفضلهما فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: صلِّ واذبح لله لا

---

(١) الفتاوى ١٦/ ٥٣٢.

ومن السنة: «لعن الله من ذبح لغير الله».

لغيره، فكما أن الصلاة لا يجوز أن تؤدى لغير الله، فكذلك الذبح لا يجوز إلا لله وحده.

صور من الذبح الشركي

ومن هانت عليه نفسه، فصرف عبادته لغير الله، بأن ذبح للأصنام، أو للقبور، تعظيماً لها، أو خوفاً منها، أو التماساً لشفاعة أربابها، أو في طريق قدوم سلطان، أو لنحو ذلك، فقد وقع في الشرك، ولو كان المذبوح بعيراً، أو بقرة، أو شاة، أو دجاجة، أو أصغر من ذلك، **(و)** قد جاء الوعيد الشديد فيمن فعل ذلك **(من السنة)** في قوله ﷺ: «**(لعن الله)**، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله **(مَنْ ذبح)** وأراق الدماء **(لغير الله)**» رواه مسلم[1].

فمن استحوذ عليه الشيطان وقدَّم القرابين لغير خالقه، فقد كفر النعمة، وهضم جناب ربوبية الله، وتنقص ألوهيته، وعظَّم غير خالقه، وتعرَّض لوعيد الله بلعنه وطرده، لجرم ما ارتكبه من إراقة الدماء بالذبح لمخلوق لا يستحق أن يصرف له أي شيء من أنواع العبادة *.

---

(١) رقم (١٩٧٨) ٣/ ١٥٦٧ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير المنار».

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾.

النذر: عبادة

النذر: إيجاب المكلف على نفسه ما ليس واجباً عليه بأصل الشرع، وهو عبادة يجب إخلاصها لله.

(ودليل) أن **(النذر)** عبادة لا يصرف إلا لله **(قوله تعالى)** في معرض الثناء على من وفَّى بالنذر: (﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾) بما ألزموا به أنفسهم من النذور، وإذا كانوا يوفون بما هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم، ففعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى، وهو سبحانه لا يثني إلا على فاعل عبادة.

(﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾) عسيراً (﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾) أي: ما فيه من الأهوال (﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾) ومنتشراً وقاسياً على الناس إلا من رحم الله، والمسلم قلبه معلق بالله، لا يصرف أي نوع من العبادة لغير الله، بل يؤدي جميع العبادات على وجهها، وإن أوجب على نفسه شيئاً بالنذر فيما لم يوجب الشارع الحكيم عليه لم ينذر إلا لله، لقول النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» رواه البخاري[1].

النذر أعظم من الحلف

ومن صرف النذر لغير الله، فقد صرف عبادة من العبادات لغير الله، ووقع في الشرك وهو أعظم من الحلف بغير الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فمن نذر لغير الله فهو مشرك، أعظم من شرك الحلف بغير الله»[2].

ومن نذر لمخلوق لم ينعقد نذره ويحرم عليه الوفاء به قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «النذر للقبور، أو لأحد من أهل القبور ـ كالنذر لإبراهيم الخليل، أو للشيخ فلان، أو فلان، أو لبعض أهل البيت، أو غيرهم ـ

---

(١) رقم (٦٣١٨) ٦/ ٢٤٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) الفتاوى ٣٣/ ١٢٣.

....

نذر معصية لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين بل ولا يجوز الوفاء به، فإنه قد ثبت في الصحيح[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» رواه البخاري» ا.هـ[2].

وكيف تصرف العبادة لمخلوق لا يملك نفعاً ولا يدفع ضراً ؟ هذا من أعظم البهتان!! والنذر لا يصرف إلا لله، وإن نذر لله في طاعة وجب الوفاء به، وعقد النذر لله ابتداءً مكروه، وأخبر النبي ﷺ أنه «لا يقدم شيئاً، ولا يؤخره، وأنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل» متفق عليه[3]، ولكن إن نذر لا يحل له أن ينذر إلا لله فحسب، لأن النذر عبادة *.

(١) أي صحيح البخاري رقم (٦٣١٨) ٦/ ٢٤٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها كما سبق.

(٢) الفتاوى ٢٧/ ١٤٧.

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٢٣٤) ٦/ ٢٤٣٧، وصحيح مسلم رقم (١٦٣٩) ٣/ ١٢٦١ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة،

معرفة دين الإسلام بالأدلة

يجب على الإنسان معرفة ثلاثة أصول، الأصل الأول: معرفة العبد ربه، وقد بين المؤلف ـ رحمه الله ـ فيه: أن ربنا هو الله وهو معبودنا وحده، وعرفناه بآياته ومخلوقاته، وذكر بعض أنواع العبادة وأنها لا تصرف إلا لله، وأن صرف أي شيء منها لغيره شرك به تعالى.

ويذكر المصنف ـ رحمه الله ـ هنا **(الأصل الثاني)** من أصول الدين التي ينبني عليها، وهو **(معرفة دين الإسلام)** العظيم الذي خلقنا الله لندين به، وتعبدنا بالقيام به.

ويجب معرفة هذا الدين مع أصوله التي يبنى عليها **(بالأدلة)** من الكتاب والسنة، ليكون الإنسان على نورٍ وبرهانٍ وبصيرةٍ من دينه، فإن لم يكن على بصيرة من دينه، فإنه يخشى عليه في حياته وبعد مماته عند سؤال الملكين إذا سألاه في القبر أن يحصل له الشك، فيجيب بالجواب السيئ فيقول: «هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[1]، بخلاف من يعرف أدلة دينه من الكتاب و السنة، وكان على القول الثابت في الدنيا عاملاً بالدين، فإنه حري به أن يقول عند سؤال الملكين: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ[2]، فإن من أسباب الثبات عند السؤال معرفة الدين بالحجج من

(١) كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري فينادي منادٍ من السماء أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة». رواه أحمد رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧.

(٢) كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام =

وهو: الاستسلام لله بالتوحيد،

الكتاب والسُّنَّة، والعمل به.

تعريف الإسلام

(و) دين الإسلام الذي ندين الله به **(هو: الاستسلام لله)** بالذل والخضوع له تعالى، بإفراده بالربوبية والخلق والتدبير، وإفراده تعالى **(بالتوحيد)** بجميع أنواع العبادة.

وحقيقة دين الإسلام: هو أن يسلم العبد أفعاله لله لا لغيره، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «حقيقة الإسلام: أن يستسلم لله لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله»[1].

والمسلم سمِّي مسلماً، لخضوع جوارحه لطاعة ربه، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإسلام هو: الاستسلام، وهو يتضمن الخضوع لله وحده، والانقياد له، والعبودية لله وحده»[2].

= حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون يعنى بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي» رواه أحمد رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧.

(١) الفتاوى ٤/ ٢٤٥.

(٢) الفتاوى ٧/ ٢٤٧.

والانقياد له بالطاعة،

فالمستسلم لله ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر، ومن استكبر عن الحق ابتلاه الله باتباع الباطل، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل، فيكون المستكبر مشركاً كما ذكر الله»(١).

رأس الإسلام وضداه

والإسلام له رأس وهو الشهادتان، وله ضدان: الكبر والشرك، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإسلام الذي هو دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين، فيستسلم لله وحده لا شريك له، ويكون سالماً له بحيث يكون متألهاً له غير متأله لما سواه، كما بينه أفضل الكلام ورأس الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وله ضدان: الكبر والشرك، ولهذا روي أن نوحاً عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده، فلا يكون مستسلماً له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركاً به، فلا يكون سالماً له، بل يكون له فيه شرك، ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص»(٢).

الطاعة من الإسلام

(و) مع ذل العبد وخضوعه لله يجب عليه **(الانقياد)** والإذعان **(له)** جلَّ وعلا **(بالطاعة)** بفعل المأمورات وترك المنهيات امتثالاً لأمر الله قال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، وقوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم، كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» متفق عليه(٣).

---

(١) الفتاوى ٧/ ٦٢٩.

(٢) الفتاوى ٧/ ٦٢٣.

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٨٥٨) ٦/ ٢٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٣٧) ٢/ ٩٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

وأعلى المراتب كمال الانقياد، ومن لم ينقد لهذا الدين أذله الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من تواضع لله رفعه، فكذلك من تكبر على الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغره وحقره»[1].

والكبر من أعظم أسباب منع الانقياد لهذا الدين، قال ابن القيم رحمه الله ـ وهو يذكر موانع الانقياد ـ: «السبب الثالث: قيام مانع، وهو إما حسد أو كبر، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله، وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته، ومن جرى مجراهم»[2] *.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٣٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٩٩.

والبراءة من الشرك وأهله،

لا إسلام بلا براء

ومما يجب على المسلم اعتقاده وفهمه والعمل به، أن الإسلام هو إفراد الله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، **(والبراءة)** أي: أن يتبرأ المسلم **(من)** أعمال وأقوال **(الشرك)** ويعتقد بطلانها، **(و)** يتبرأ من **(أهله)** في الاعتقاد والعمل والمسكن، بل من كل خصلة من خصالهم، ومن كل نسبة من النسب إليهم، ويكون معادياً لهم غير متشبهٍ بهم في قولٍ أو فعلٍ.

فدين الإسلام يقوم على ثلاثة أسسٍ يجب على المسلم أن يأتي بها مجتمعة:

الأسس التي يقوم عليها الإسلام

١ ـ الاستسلام لله بالتوحيد.

٢ ـ الانقياد له بالطاعة.

٣ ـ البراءة من الشرك و أهله.

والبراءة من الشرك وأهله أحد ركني التوحيد الذي ينبني عليه، إذ التوحيد قائم على ركنين لا يحصل التوحيد إلا بهما، ولا يكون العبد موحداً إلا باجتماعهما معاً، وهما النفي والإثبات، ومن فقد أحدهما فقد التوحيد، فتنفي العبودية عن غير الله، وتثبت العبودية لله وحده، قال سبحانه مخبراً عن إبراهيم عليه السلام آمراً بالتأسي به: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فهذا هو الركن الأول وهو البراءة من الشرك وأهله، وقوله تعالى بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا هو الإثبات وهو الركن الثاني، وكقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذا هو البراء أي: النفي، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هذا هو الإثبات.

فكلمة التوحيد معناها: لا معبود بحق إلا الله، فمن كان يصلي ويصوم ويحج ويتصدق، ولكن يقر الشرك ويصحح معتقد المشركين فليس بمسلم، لأنه لم يتبرأ من الشرك وأهله، فيجب الجمع بين البراءة من المشركين، وبين

....

الإيمان بالله بإفراد العبودية له وحده، فالذي يصلي وهو واقع في الشرك لا تنفعه صلاته، لأنه لم يتطهر من الشرك.

وجوب محبة المسلم لدينه

ويجب على العبد مع معرفته لهذا الدين، محبته له، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «القلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقاً به، وديناً له، لكن يعرض لها ما يفسدها، ومعرفة الحق تقتضي محبته، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه، لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل، لكن قد يعرض لها ما يفسدها، إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه»[(١)].

ويجب على كل مسلم أن يعتز بدينه، فدينه هو الحق وما سواه من الأديان فهو باطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن ذلك للناس في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. فمن هداه الله لهذا الدين فليفرح بنعمة الله عليه بالهداية، وليستمسك به، فقوة العبد وعزته بالدين، وليدعو الناس إليه فهو طريق العباد إلى النعيم قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ *.

(١) الفتاوى ٧/ ٥٢٨.

وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان

مراتب الدين

(وهو) أي: الدين على **(ثلاث مراتب)** ـ أي: منازل ـ: **(الإسلام)** مرتبة، **(والإيمان)** مرتبة، **(والإحسان)** مرتبة، وأهل دين الإسلام لا يخلو حالهم من إحدى هذه المراتب، وقد ينتقل المسلم من مرتبةٍ إلى مرتبةٍ أعلى منها، أو أدنى منها على قدر طاعته لله.

العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان

وأول تلك المراتب الإسلام، وأوسطها الإيمان، وأعلاها الإحسان، ومن وصل إلى العليا فقد وصل إلى ما قبلها، فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم فلا يلزم أن يكون مؤمناً، قال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله ـ: «فأكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة»[1].

فالمرتبة الأولى: هي مرتبة الإسلام وهي أوسعها، وهي أقل مراتب الدين، وهي المرتبة الأولى التي يدخل فيها الكافر أول ما يتكلم بالإسلام ويذعن له وينقاد قال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، ولا يُخْرِج العبد عن مرتبة الإسلام إلا الكفر بالله والشرك المخرج من الملة.

والمرتبة الثانية: هي مرتبة الإيمان، وهي التي تلي مرتبة الإسلام في العلو، وهي أضيق من مرتبة الإسلام.

وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في الإسلام، قال ابن أبي شيبة ـ رحمه الله ـ: «لا يكون إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام»[2].

فما كان من الأعمال الباطنة، فوصف الإيمان عليه أغلب من وصف الإسلام، وما كان من الأعمال الدينية الظاهرة، كالشهادتين والصلاة وأنواع العبادات التي تظهر ويطلع عليها الناس فوصف الإسلام عليها أغلب من

(١) شرح النووي على مسلم ١/ ١٤٤.

(٢) تعظيم قدر الصلاة للمروزي رقم (٥٨٣) ٢/ ٥٢٨.

....

وصف الإيمان. فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، كما أن دائرة الإيمان أوسع من دائرة الإحسان.

والمرتبة الثالثة: هي مرتبة الإحسان وهي أعلى من مرتبة الإيمان، وهي أضيق المراتب، وأهلها أقل من أهل مرتبتي الإيمان والإسلام، وهي مرتبة عالية عزيزة لا يرتقي إليها إلا عباد الله المحسنون.

وهذا التفصيل لمراتب الدين أخبر به النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور(١) وجاء به أيضاً القرآن الكريم، فجعل الأمة على هذه الأوصاف الثلاث فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو ظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه، أو يعبد ربه كأن ربه يراه.

والناس يتفاضلون في التوحيد تفاضلاً عظيماً، وهم فيه على درجات بعضها أعلى من بعض، فمنهم من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ومنهم من يدخل النار وهم العصاة الذين لم يشأ الله أن يغفر لهم وعاملهم بعدله، فيمكثون فيها على قدر ذنوبهم ثم يخرجون منها، لأجل ما في قلوبهم من التوحيد والإيمان *.

(١) سيأتي في ص ١٥٩.

وكل مرتبة لها أركان، فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

أركان المرتبة الأولى

(وكل مرتبة) من مراتب الدين الثلاث **(لها أركان)** لا تقوم إلا عليها، ومراتب الدين لا تتم إلا بأركانها.

(فأركان الإسلام خمسة) أركان لا يستقيم إلا بها، ولا يثبت بدونها، وهي ما ذكره النبي ﷺ في قوله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» متفق عليه(1). قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «والمراد من هذا الحديث، أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان، وهو قائم لا ينقض بنقص ذلك، بخلاف نقص هذه الدعائم، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين»(2).

معنى الشهادة

وقدم الأهم فالأهم من أركان الإسلام، فبدأ بقطبها وهي **(شهادة)** ومعنى الشهادة: الاعتقاد الجازم، وأطلق على الاعتقاد لفظ الشهادة، لبيان أنه لا بد من الاعتقاد الجازم، حتى كأنك تشاهد الذي تعتقده، والذي تعتقده وتشهد به هو **(أن لا إله)** معبود بحق **(إلا الله)**، وتعتقد وتشهد **(أن محمداً رسول الله)** ﷺ أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً.

وهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه، فإن أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر، هو الإيمان بالوحدانية والرسالة، وهو شهادة

---

(1) صحيح البخاري رقم (8) 1/ 11 - 12، ورقم (4243) 4/ 1641، وصحيح مسلم رقم (16) 1/ 45 من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) جامع العلوم والحكم 1/ 43.

....

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أصل عقد التوحيد وإثباته، هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ»[1]، وهي مفتاح الجنة قال النبي ﷺ: «مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله»[2]. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فإن الشهادة أصل المفتاح، والصلاة وبقية الأركان أسنانه التي لا يحصل الفتح إلا بها، إذ دخول الجنة موقوف على المفتاح وأسنانه»[3]، قيل لوهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: «أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك»[4].

العلاقة بين الشهادتين

وجعلت الشهادتان ركناً واحداً ولم تجعل شهادة أن لا إله إلا الله ركناً، وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ركناً ثانياً، لأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال وقبولها، إذ لا يقبل العمل ولا يكون صحيحاً إلا بأمرين:

١ ـ الإخلاص لله.

٢ ـ المتابعة للرسول ﷺ.

فإذا وجد الإخلاص تحققت شهادة أن لا إله إلا الله، وإذا وجدت المتابعة تحققت شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ، ولأن الرسول مبلغ عن الله، فالشهادة له بالرسالة والعبودية من تمام شهادة أن لا إله إلا الله، فالثانية تكملة للأولى، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ودين الإسلام مبني على أصلين، وهما: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ»[5].

---

(١) شفاء العليل ص ٢٨٨.

(٢) رواه البزار من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه رقم (٢٦٦٠) ٧/ ١٠٣.

(٣) الصلاة وحكم تاركها ص٦٦.

(٤) رواه البخاري تعليقاً ١/ ٤١٧.

(٥) الفتاوى ١/ ٣١٠.

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

(و) الركن الثاني من أركان الإسلام: **(إقام الصلاة)** أي: أداؤها في وقتها تامة بشروطها وأركانها وواجباتها.

(و) الركن الثالث: **(إيتاء الزكاة)** أي: أداء ما افترض الله على العبد من الزكاة.

(و) الركن الرابع: **(صوم)** شهر **(رمضان)** بالإمساك عن سائر المفطرات، من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، ممن يجب عليه الصيام.

(و) الركن الخامس: **(حج بيت الله الحرام)** أي: قصد بيت الله الحرام لأداء شعيرة الحج *.

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ أركان الإسلام، شرع في ذكر دليل كلِّ ركنٍ فقال:

دليل شهادة أن لا إله إلا الله

(**فدليل الشهادة**) أي: شهادة أن لا إله إلا الله (**قوله تعالى**: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾)، وشهادته سبحانه هي أعظم شهادة في الوجود قال سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ وشهد سبحانه على أجلِّ مشهود عليه، وهو ما شهد به تعالى: (﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾) يستحق العبادة (﴿إِلَّا هُوَ﴾) سبحانه.

(﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) شهدوا بأنه لا إله إلا هو، كما شهد الله لنفسه المقدسة بذلك.

(﴿وَأُوْلُواْ﴾) أي: أصحاب (﴿ٱلْعِلْمِ﴾) شهدوا بذلك أيضاً، فجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وهذا فيه أعظم حاثٍّ على طلب العلم، فإن الله ذكر شهادته وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم، ففي هذه الشهادة رفعة لأهل العلم، حيث شهدوا على ما شهد به ربّ العالمين، وأيُّ ثناءٍ أشرف من هذا الثناء عليهم وتعديلهم، وجَعْلُهم حجة على من أنكرها، دال على فضل العلم، والمراد به العلم الشرعي، الذي هو نور القلوب وقوتها، وغيره علم نسبي إضافي، إما إلى أمور دنيوية، أو علوم حسابية وصناعية، أو غير ذلك، وأهله ليسوا من أهل العلم الذين ذكر الله شهادتهم، فلا يطلق هذا العلم إلا على العلم الشرعي الديني.

(﴿قَآئِمَۢا﴾) منصوب على الحال (﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾): بالعدل، أي: قائماً بالعدل في جميع الأحوال.

(﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾) تأكيد لما سبق، (﴿ٱلْعَزِيزُ﴾) الذي لا يرام جنابه

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، ومعناها لا معبود بحق إلا الله،

عظمةً وكبرياءً، (﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾) في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

معنى أن لا إله إلا الله

(ومعناها) أي: ومعنى كلمة التوحيد، لا إله إلا الله **(لا معبود)** يستحق العبادة **(بحق)**، ويجب أن يؤتى في بيان معناها بهذا القيد وهو كلمة «بحق»، لأن المعبودات من دون الله كثيرة ولكنها معبودات باطلة، كعبادة أهل القبور والأشجار والأصنام، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ فلا أحد منهم يستحق العبادة، بل عبادتهم باطلة، ولا يستحق العبادة **(إلا الله)** وحده.

فالله هو المعبود بحق، وكل مألوه سوى الله فإلهيته أبطل الباطل، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، نفي الإلهية عن غير الله، وإثباتها لله وحده.

وليس معناها لا موجود إلا الله، أو لا يخلق ولا يرزق إلا الله، فإن هذه المعاني لإثبات توحيد الربوبية ولا تثبت وحدانية الله الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب في تقريره وإيضاحه.

المشركون مقرون بتوحيد الربوبية

وتوحيد الربوبية قد أقر به المشركون، كأبي جهل وأضرابه، كما قال تعالى: **﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾** أي: أنه الذي يفعل ذلك، ولم ينازعوا فيه، ولا امتنعوا من الإقرار به، بل احتج تعالى عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية فقال: **﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾** أي: الشرك به في عبادته، فإنهم يعرفون معناها وأنها دلت على إفراد الله بالعبادة، ولهذا أنكروا أن يكون الله هو المعبود وحده، لأنهم عرفوا مدلولها، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل، هو إفراد الربِّ بالتأله، الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال المحبة والإنابة، وبذل الجهد في طاعته

....

ومرضاته، وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده، فهذا أصل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإليه دعوا الأمم، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو الذي أمر به رسله عليهم الصلاة والسلام، وأنزل به كتبه، ودعا إليه عباده، وخلق الله الجنة والنار دار الثواب والعقاب لأجله، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «والإله هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبةً له، وإجلالاً ومحبةً وخوفاً، ورجاءً وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عزَّ وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك»[١] *.

(١) كلمة الإخلاص ص ٢٣.

(لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه.

ركنا كلمة التوحيد

وكلمة التوحيد لا إله إلا الله، تشتمل على أمرين هما ركناها: النفي والإثبات، فـ **(لا إله)** معناها **(نافياً)** العبد **(جميع ما يعبد من دون الله)** من القبور والأشجار والأحجار وغيرها، فالموحد يعتقد ويقول: أنا لا أعبد أيَّ معبودٍ كان إلا الله فهو الذي أعبده وحده.

ومعنى **(إلا الله)** أي: **(مثبتاً العبادة لله وحده)** فلا أعبد أحداً غيره، وهو سبحانه **(لا شريك له في عبادته)** وألوهيته **(كما أنه)** جلَّ وعلا **(لا شريك له في ملكه)** وربوبيته، أي: فكما أنه سبحانه المتفرد في ملك هذا الكون لا شريك له فيه، فواجب أن يفرد في العبادة، فإن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكاً لله في الملك، شريكاً لله في العبادة ـ تعالى الله وتقدس ـ، ولهذا يحتج تعالى على من أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته.

فإن المشرك إذا أثبت الربوبية لله عزَّ وجل، لزمه من هذا، أن يثبت له الألوهية، فكيف نثبت بأنه هو المتفرد في الملك، ولا نثبت له أنه المتفرد في الوحدانية ونصرف العبادة إلى غيره!.

فتوحيد الربوبية هو الدالُّ على توحيد الألوهية ومستلزم له، ولهذا قال: «كما أنه لا شريك له في ملكه».

فلا إله إلا الله اشتملت على أمرين: هما ركناها: النفي «لا إله»، والإثبات «إلا الله».

والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض ليس بتوحيد، فلا بد من الجمع بينهما.

شروط كلمة التوحيد

ولكلمة التوحيد ثمانية شروط، يجب الإتيان بها مجتمعة مع النطق بها، ومن أخل بشيء منها فقد أخل بدينه، وهذه الشروط هي:

....

١ ـ العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل بمعانيها ومقتضياتها، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بلا إله إلا الله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما نطقت به ألسنتهم، وقال عليه الصلاة والسلام: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه مسلم(١).

٢ ـ اليقين بما دلت عليه، المنافي للشك بما تدل عليه، بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك؟! قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾، فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله، كونهم لم يرتابوا، وقال النبي ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة» رواه مسلم(٢)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة» رواه مسلم(٣).

٣ ـ القبول لمدلولات ومقتضيات هذه الكلمة بقلبه ولسانه، المنافي للرد، وقد قص الله علينا انتقامه ممن ردها وأباها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ فكان سبب عذابهم، هو استكبارهم عن قبول تلك الكلمة.

---

(١) رقم (٢٦) ١/ ٥٥ من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) رقم (٢٦) ١/ ٥٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رقم (٣١) ١/ ٥٩ - ٦٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

٤ ـ الانقياد لمعانيها ومقتضياتها من الأوامر والنواهي، المنافي للترك لما دلت عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ينقاد ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موحد ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم، حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه ابن أبي عاصم في السنة[١]. وهذا هو تمام الانقياد وغايته *.

(١) رقم (١٥) ١/١٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

....

٥ ـ الإخلاص في الإيمان بها وما تدل عليه، المنافي للشرك، كأحوال المرائين وغيرهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، ويقول النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه أو نفسه» رواه البخاري[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» متفق عليه[2].

٦ ـ الصدق في اعتقادها في الباطن، المنافي للكذب بما اعتقده فيها، كحال المنافقين الذين يكذبون في اعتقادهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقال سبحانه فيمن أخل بهذا الشرط: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار» متفق عليه[3]. فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار، أن يقولها صدقاً من قلبه، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب.

٧ ـ المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، المنافية لضدها قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، وعلامة

(١) البخاري رقم (٩٩) ١/ ٤٩.
(٢) البخاري رقم (٤١٥) ١/ ١٦٤، ومسلم رقم (٦٥٨) ١/ ٤٥٥.
(٣) البخاري رقم (١٢٨) ١/ ٥٩، ومسلم رقم (٣٢) ١/ ٦١.

....

حب العبد ربه، تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه ابن أبي عاصم في السنة[1].

٨ ـ الكفر بما سوى الله من المعبودات، والبراءة من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾، وقد جمعت هذه الشروط في قولهم:

علم يقين إخلاص وصدقك مع   محبة وانقياد والقبول لها

وزيد الشرط الثامن في قولهم:

وزيد ثامنها الكفران منك بما   سوى الإله من الأشياء قد ألها[2]

ولا يشترط حفظها وعدها، وإنما معرفتها والإتيان بمقتضاها، قال حافظ الحكمي ـ رحمه الله ـ: «معنى استكمالها: اجتماعها في العبد والتزامه إياها، بدون مناقضة منه لشيء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها لم يحسن ذلك؟ وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها؟ والتوفيق بيد الله»[3].

ومن قال لا إله إلا الله وعرف معناها، ولكنه ارتكب شيئاً من نواقض الإسلام كالشرك أو تولي المشركين أو السحر أو غير ذلك من النواقض فإنه يخرج من الدين ولو كان يقول لا إله إلا الله، إذ لا بد من العمل بمقتضاها وبما دلت عليه والبعد عن نواقضها، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(١) رقم (١٥) ١/ ١٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) الدروس المهمة لابن باز رحمه الله ص ١.

(٣) معارج القبول ١/ ٣٧٧.

....

ـ رحمه الله ـ: «العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة»[1] *.

---

(١) القواعد الأربع ص ١.

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾،

تفسير شهادة أن لا إله إلا الله

(وتفسيرها) أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله **(الذي يوضحها)** ويبينها بياناً تاماً، ما ذكره الله في كتابه في **(قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ﴾) إمام الحنفاء: (﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾) آزر (﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾) الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم، قال لهم: (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾) أي: بريء ومبغض ومجتنب ومعادي لكم يا أهل الشرك، وكذلك بريء (﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾) من دون الله من الآلهة، وهذا فيه معنى «لا إله».

وقوله: (﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) أي: ابتدأ خلقي فإني أعبده، وفيه معنى «إلا الله» فاستثنى من المعبودين ربه.

(﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾) يرشدني لدينه القويم، وصراطه المستقيم، بالهداية للعلم والعمل بالحق، كما فطرني ودبرني بما يصلح لديني ودنياي. وقد أمرنا الله أن نتأسى به في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

(﴿وَجَعَلَهَا﴾) أي: وجعل الخليل إبراهيم عليه السلام، كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وما تضمنته من إخلاص جميع أنواع العبادة لله وحده، والتبرؤ من عبادة كل ما سوى الله (﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾) ونسله وذريته (﴿لَعَلَّهُمْ﴾) إليها (﴿يَرْجِعُونَ﴾) فيقتدون بمن هداه الله من ذريته إليها. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته»[1].

فتبين أن معنى كلمة لا إله إلا الله، هي البراءة من عبادة كل ما سوى

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٨٤.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا

الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله وحده، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فإن الله أمر العباد كلهم، أن يعبدوه مخلصين له الدين، وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، فلا يقبل من أحد ديناً غيره قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»[1].

من تلفظ بالشهادة فقط لا يدخل الجنة

ولا إله إلا الله تتضمن: النفي والإثبات، ومن اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فقد أخطأ، فإن لكلمة التوحيد نواقض تخرج المرء عن الدين ولو كان يقول لا إله إلا الله ويعلم معناها.

وقد بيّن تعالى معنى لا إله إلا الله في آيات كثيرة منها قوله جلَّ وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقوله عزَّ وجل: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

(و) منها أيضاً **(قوله)** تعالى: (﴿قُلْ﴾) يا أيها الرسول: (﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾) من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم من المشركين.

(﴿تَعَالَوْا۟﴾) أقبلوا وهلموا (﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾) واحدة لا غير (﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾) أي: عدل وإنصاف لا يختلف فيها رسول ولا كتاب، نستوي نحن وأنتم في فرضيتها ووجوبها علينا وعليكم، وهي التي يدعو الرسل أقوامهم إليها وهي:

(﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾) ولا نوحد ولا نفرد العبادة لأحدٍ (﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾) وحده جلَّ وعلا، (﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾) لا وثناً ولا صنماً ولا صليباً ولا غيرها، بل

---

(١) الفتاوى ١/١٨٨.

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وقوله: (﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾) أي: لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله كما فعلت اليهود والنصارى.

(﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾) وأدبروا وأعرضوا عن الإجابة إلى إفراد الله بالعبادة (﴿فَقُولُواْ﴾) يا أمة محمد ﷺ: (﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾) مخلصون لله بالتوحيد، ثابتون على الإسلام الذي شرعه الله لنا ولو خالفتمونا، وصرحوا لهم أنكم مسلمون وأنهم كفار، وأنكم براء منهم وهم براء منكم، وهذا دال على أنه لا بد أن يبين ذلك للكفار، حتى يتفهموا ويتحققوا أنهم ليسوا على دين، وأن دين الإسلام خلاف دينهم الذي هم عليه. وأن دينهم خلاف دين الإسلام.

وهذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكاتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ بها في الركعة الثانية من سنة الفجر، لاشتمالها على الدعوة إلى دينٍ واحدٍ، فقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، وحوَت توحيد الإلهية الذي هو عبادة الله وحده، وأن يعتقدوا أن البشر وجميع الخلق لا يستحق أحد منهم شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا، وإلا فهم في ضلالهم يعمهون *.

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾،

دليل شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ

(**ودليل شهادة أن محمداً رسول الله**) من القرآن (**قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾) أي: من جنسكم، تعرفون نسبه وصدقه، ليس من الملائكة ولا من الجن، بل بشر تتمكنون من مجالسته ومؤاكلته والحديث معه، وقد نال أجل الصفات فيكم، من الأمانة والصدق والكرم وحسن الخلق، ومن كان كذلك فإن النعمة بإرساله إلى العباد تكون أكبر وأعظم.

(﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾) أي: يشق عليه كلّ أمرٍ يعنِّت أمته، أو يشقّ عليها ويدخلها في الآصار والأغلال.

(﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾) بهدايتكم وإنقاذكم من النار.

(﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) وعطوف عليهم ومحبّ لهم كل خير.

ومن الأدلة على أن محمداً رسول الله، شهادة الله له بأنه رسول من عنده قال جلَّ وعلا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وقد أيده سبحانه بالآيات الباهرة الدالة على صدقه، وأعظمها القرآن الكريم الذي أعجز أهل الأرض بفصاحته وبلاغته.

ومن البراهين على صدقه، نصر الله لمن اتبعه ولو كانوا أضعف الناس، وخذلان الله من عاداه وعقوبته في الدنيا ولو كانوا أكثر الناس وأقواهم.

وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ليس المقصود بها هو التلفظ بها فقط، بل التلفظ والعمل بما اقتضاه معناها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الشهادة

....

لرسول الله بأنه نبي، لا تدخل الإنسان في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فشهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية ديناً لم تدخله هذه الشهادة في الإسلام، ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة، من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق، ولم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً»[1] *.

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٣٨.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

معناها

(ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله):

(طاعته فيما أمر) من الواجبات والمستحبات، وقد قرن الله طاعته بطاعة الرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

(وتصديقه فيما أخبر) به من أخبار الأمم الماضية، أو الأمور المستقبلة، فأخباره حق وصدق لا كذب فيها ولا خلف، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الإيمان يرجع إلى أصلين: طاعة الرسول ﷺ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر»[1].

المتابعة للنبي ﷺ تعظم التوحيد في النفس

(واجتناب ما عنه نهى وزجر) أي: اجتناب كل ما نهى عنه وحذر منه قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم» متفق عليه[2]. ويجب أن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد، وكلما ابتعد المرء عن السيئات وعمل الصالحات كان محققاً للشهادتين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في الدين، وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك، فإذا أكثر بعده عنه، ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول ﷺ»[3].

(وأن لا يعبد الله إلا بما شرع) سبحانه في كتابه وما جاء به رسوله ﷺ،

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/ ٤٥١.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦٨٥٨) ٦/ ٢٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٣٧) ٢/ ٩٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الفتاوى ١٧/ ٤٩٨.

....

لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الزهري ـ رحمه الله ـ: «من الله الرسالة، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم»[١].

فأول ما يجب على العبد، معرفة معنى الشهادتين مع النطق بها بلسانه، وأن يعمل بما دلت عليه، ومن علم معناها وعمل بمقتضاها فهو السعيد حقاً، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «أسعد الخلق وأعظمهم نعيماً وأعلاهم درجةً، أعظمهم اتباعاً وموافقة له علماً وعملاً»[٢].

فجماع دين الإسلام، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعبده بما شرعه سبحانه وتعالى، من الواجبات والمستحبات والمندوبات، ومن سلك غير طريق المصطفى ﷺ لم يفتح له الباب، قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»[٣] *.

---

(١) صحيح البخاري تعليقاً رقم (٤٦) ٦/ ٢٧٣٨.

(٢) الفتاوى ٤/ ٢٦.

(٣) مدارج السالكين ٣/ ١٢١.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ

دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد

(**ودليل**) أن (**الصلاة**) المفروضة، (**والزكاة**) من أركان الإسلام، ودليل (**تفسير التوحيد**) الذي هو الأساس الذي لا يستقيم إسلام عبد إلا به:

(**قوله تعالى**): (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾) أي: الكفار في جميع الأزمان (﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾) وحده (﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه.

(﴿حُنَفَآءَ﴾) أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

(﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾) بأركانها وواجباتها في أوقاتها، وهي أشرف عبادات البدن.

(﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾) المفروضة، وفيها إحسان إلى الفقراء والمحاويج، وخصَّ الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: (﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾)، لفضلهما وشرفهما.

(﴿وَذَٰلِكَ﴾) أي: التوحيد والإخلاص في الدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هو (﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾) أي: الملة القائمة، والشريعة العادلة المستقيمة، المعتدلة على الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

دليل الصيام

(**ودليل**) أن (**الصيام**) في شهر رمضان المبارك أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يستقيم الإسلام إلا بها:

(**قوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾) أي: فرض، وذلك في السنة

عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الثانية من الهجرة (﴿عَلَيۡكُمُ﴾) يا أمة محمد ﷺ (﴿ٱلصِّيَامُ﴾) في شهر رمضان (﴿كَمَا كُتِبَ﴾) وفرض (﴿عَلَى﴾) الأمم (﴿ٱلَّذِينَ﴾) سلفوا (﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾).

ومن حكمة فرض الصيام على جميع الأمم: لتنال النفوس التقوى، لذلك قال: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾)، لما فيه من زكاة النفس وتطهيرها وتنقيتها من الأخلاق الرديئة، وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لها أن تنافس غيرها في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال.

دليل الحج

(ودليل) أن **(الحج)** هو الركن الخامس من أركان الإسلام: **(قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾) أي: يجب على الناس التعبد لله، ومن ذلك (﴿حِجُّ﴾) وقصد (﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾) الحرام الذي في مكة المكرمة على (﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ﴾) الوصول (﴿إِلَيۡهِ﴾) من المكلفين (﴿سَبِيلٗاۚ﴾) بالقدرة على الذهاب بنفسه، وملك الزاد والراحلة، ووجود المحرم للمرأة.

(﴿وَمَن كَفَرَ﴾) بعبادة ربه وأعرض عنها (﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ﴾) عبادة جميع (﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾) بل إنهم هم المحتاجون إليه، وهو سبحانه غني عنهم كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ *.

المرتبة الثانية: الإيمان، وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق،

المرتبة الثانية: الإيمان

(**المرتبة الثانية**): من مراتب الدين مرتبة (**الإيمان**)، والإيمان: هو قول واعتقاد وعمل، قول اللسان، واعتقاد القلب، وعمل الجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فدخل فيه جميع المأمورات من الواجبات أو المستحبات، ودخل فيه ترك جميع المنهيات، فما من خصلة من خصال الطاعات إلا وهي من الإيمان، ولا ترك محرم من المحرمات إلا وهو من الإيمان.

والإيمان (**بضع وسبعون شعبة**) هذا هو لفظ الحديث الذي رواه مسلم(١)، ورواه البخاري بلفظ «بضع وستون»(٢). وورد عند مسلم(٣) برواية أخرى بالشك «بضع وستون أو بضع وسبعون» قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «إن المعول على المتيقن وهو الأقل وهو بضع وستون»(٤).

والبضع: من الثلاثة إلى التسعة.

والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه.

شعب الإيمان

والشعبة من شعب الإيمان يدخل تحتها أفراد من الخصال، وكل خصلة من خصال الخير فهي من شعب الإيمان، (**فأعلاها**) وأجلها وأساسها كلمة التوحيد (**قول: لا إله إلا الله**) فهي كلمة الإخلاص وكلمة الإسلام، وهي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، وأساس الملة، ومفتاح الجنة.

(**وأدناها**) أي: أدنى شعب الإيمان (**إماطة**) أي: إزالة (**الأذى عن الطريق**) من شوكٍ وحجرٍ ونحو ذلك مما يتأذى المارُّ به.

---

(١) رقم (٣٥) ١/ ٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رقم (٩) ١/ ١٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) رقم (٣٥) ١/ ٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) فتح الباري ١/ ٥٢.

والحياء شعبة من الإيمان.

(والحياء شعبة من) شعب **(الإيمان)** أي: بعض منه.

والحياء: غريزة يحمل المرء على فعل ما يجمل ويزين، ويمنعه من فعل ما يدنس ويشين، وأخبر النبي ﷺ أن الحياء لا يأتي إلا بخير متفق عليه[(١)].

وإنما جعله بضعة؛ لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي؛ ولأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار وانتهاء، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان، والحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً، بل هو خاصة الإنسانية، وفي الحديث: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخاري[(٢)].

ومرتبة الإيمان أعم من مرتبة الإسلام من جهة نفسها وأخص من جهة أصحابها.

الإيمان وصف أعلى من الإسلام

وأهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، وأهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان بخلاف العكس قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ . فإن من حكمت له النصوص أنه مؤمن فإنه مسلم على كل حال، فإن الإيمان وصف أعلى من وصف الإسلام، لأنه مشتق من الأمن فهو من الأمور الباطنة الذي يؤتمن عليه ويكون خفية، والإسلام من الأمور المدركة المحسوسة في الظاهر، مشتق من التسليم، أو من المسالمة.

فإذا أطلق الإيمان في النصوص دخل فيه الإسلام، وإذا أطلق الإسلام لم يدخل فيه الإيمان، ومن أُثبت له الإيمان في النصوص فإنه ثابت له الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٥٧٦٦) ٥/ ٢٢٦٧، وصحيح مسلم رقم (٣٧) ١/ ٦٤ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) رقم (٥٧٦٩) ٥/ ٢٢٦٨ من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

....

والمسلم لا بد أن يكون معتقداً أركان الإيمان الستة ليصح إسلامه، وإلا كان منافقاً، وإذا كان المسلم معتقداً أركان الإيمان الستة وأخلَّ بغيرها من واجبات الإيمان، فإنه لا يستحق أن يثنى عليه الثناء المطلق ـ يعني: الكامل ـ؛ لأن إيمانه ناقص، جاء في الدرر السنية: «ومن تأمل النصوص تبين أن الناس يتفاضلون في التوحيد والإيمان تفاضلاً عظيماً، وذلك بحسب ما في قلوبهم من الإيمان بالله والمعرفة الصادقة والإخلاص واليقين»[1] *.

(١) الدرر السنية ١/٢٠٧.

وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته،

أركان الإيمان

(وأركانه) أي: أركان الإيمان وأصوله التي يُبنى عليها، والتي يزول بزوالها **(ستة)** أركان، ويكون بزوال الواحد من تلك الستة كافراً كفراً يخرج عن الملة، وما عداها من الشعب لا يزول بزواله، لكن منها ما يزول بزواله كمال الإيمان الواجب، ومنها ما يزول بزواله كمال الإيمان المندوب.

والركن الأول من أركان الإيمان: **(أن تؤمن بالله)**.

والإيمان بالله أعظم أركان الإيمان وأساسه، وما بعده من الأركان مندرج في هذا الركن وهو أصل الأصول، ويتضمن الإيمان بربوبية الله وبألوهيته وبأسمائه وصفاته.

والإيمان بربوبية الله: هو إفراد الله بأفعاله، من الخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة وغير ذلك من أفعاله تبارك وتعالى.

فنؤمن أنه لا يحيي ولا يميت، ولا يخلق ولا يرزق سواه، وهذا هو توحيد الربوبية.

والإيمان بتوحيد الألوهية: هو إفراد الله بأفعال العباد فلا يصرف العبد أي عبادة لغير الله جلَّ وعلا، من الطواف والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة، ونؤمن بأن عبادة من سواه عبادة باطلة.

والإيمان بتوحيد الأسماء والصفات: هو إثبات ما أثبته الله لنفسه، من الأسماء والصفات، وما أثبته له رسوله ﷺ منها، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل نؤمن بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

(و) الركن الثاني من أركان الإيمان الستة: أن تؤمن بـ **(ملائكته)**.

والإيمان بالملائكة: أن تؤمن بجميع الملائكة، وأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، نؤمن بهم إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، وتعييناً في التعيين، كما ورد في الكتاب والسنة، كجبريل

وميكائيل وإسرافيل ومالك وملك الموت، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، وهم عالم غيبي خلقوا من نور، وعددهم كثير لا يحصيهم إلا الله.

(و) الركن الثالث: أن تؤمن بـ **(كتبه)**.

والإيمان بالكتب يقتضي: الإيمان بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من السماء، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، ويفصل الإيمان بالقرآن والزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى، ونؤمن بأن الكتب السابقة كلها منسوخة بالقرآن العظيم، وهي غير موجودة الآن وما يُزعَمُ وجوده فهو محرّف، فلا يجوز العمل بشيءٍ منها ولا التحاكم إليها، فإن التحاكم والعمل لا يجوز إلا إلى القرآن العظيم وما جاء في سُنَّة النبي محمَّدٍ ﷺ قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾.

(و) الركن الرابع من أركان الإيمان: أن تؤمن بـ **(رسله)**.

والإيمان بالرسل يقتضي: الإيمان بجميع الرسل إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، فنؤمن بمن جاء تفصيلهم في الكتاب والسنة على التعيين، وأعظم ذلك الإيمان بنبينا محمد ﷺ، وممن يُؤمَنُ بهم تفصيلاً، أولوا العزم من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بغيرهم ممن سمى الله في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، ونؤمن بمن لم يسم في النصوص، ولا نفرق بين أحد منهم في الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾، والإيمان بهم فرض، وهو التصديق بأنهم رسل الله إلى عباده، صادقون فيما أخبروا به عن الله، وأنهم بلغوا عن الله رسالاته، وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وهم بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء.

(**و**) الركن الخامس: أن تؤمن بـ (**اليوم الآخر**).

والإيمان باليوم الآخر هو: التصديق بيوم القيامة وما يكون بعد الموت في القبر، من العذاب والنعيم، وما في الآخرة من الحساب والميزان، والجنة والنار، وأنهما دار ثوابِهِ وجزائِهِ للمحسنين والمسيئين، وأكبر ذلك وأعظمه الإيمان ببعث هذه الأجساد وإعادتها كما كانت أجساداً بعظامها وأعصابها، حتى يقع الثواب على هذا الجسد والروح جميعاً، على ما فعلا من طاعة الله، أو يعاقبا على المعاصي التي صدرت منهما جميعاً، فتؤمن بأن الذي أوجد هذا الجسد وانفرد بخلقه يبعثه حياً ويعيده كما كان *.

وتؤمن بالقدر خيره وشره،

(و) الركن السادس من أركان الإيمان: أن **(تؤمن بالقدر)** أي: بما قدره الله وكتبه من **(خيره)** أي: بما فيه من الخير والسرور، **(وشره)** أي: بما فيه من الشر والأحزان.

مراتب القدر

والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربع مراتب يجب اعتقادها والإيمان بها:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله بالأشياء قبل حدوثها. فإن الرب علم بعلمه السابق ما هو كائن وما سيكون كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾، وقال النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» رواه مسلم[(١)].

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يقع في ملك الله إلا ما أراده الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله أوجد جميع الخلق، وأن ما في الكون بتقدير الله وإيجاده قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وقال عزَّ وجل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

ولا يصير المرء مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء، وقد جمعها الناظم في قوله:

---

(١) رقم (٢٦٥٣) ٤/ ٢٠٤٤ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

....

عـلـمٌ كـتـابـة مـولانـا مـشـيـئـتُـه   وخـلـقـه وهـو إيـجـادٌ وتـكـويـنُ

فيجب على العبد أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» رواه أبو داود[١].

والمؤمن بالقدر يفوض أموره كلها لله، ولا يعتمد على السبب نفسه، لأن كل شيء بقدر الله، وإيمانه بذلك يثمر له الطمأنينة والراحة بما يجري عليه من أقدار الله، لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض، قال عليه الصلاة والسلام: «عجباً لأمر المؤمن، كلُّه خير» رواه مسلم[٢] *.

---

(١) رقم (٤٦٩٩) ٤/ ٢٢٥ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رقم (٢٩٩٩) ٤/ ٢٢٩٥ من حديث صهيب رضي الله عنه.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾،

أدلة أركان الإيمان

(والدليل على هذه الأركان) أي: أركان الإيمان **(الستة)** وأنه لا يستقيم إيمان العبد إلا بها جميعاً، وأنه متى انتفى واحد منها لم يكن المرء مؤمناً **(قوله تعالى:** ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾)، نزلت هذه الآية حين أمر الله المؤمنين بالتوجه أولاً إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عزَّ وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى أي جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال:

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد ﴿أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ امتثال أوامر الله، واتباع ما شرع، وأعظمه ما ذكر في هذه الآية أو هذه أنواع البر كلها وبدأ بالإيمان بقوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: ولكن البر الإيمان بالله، أو ولكن البر من آمن بالله، أو ذا البر بر من آمن بالله أي: بتفرده جلَّ وعلا بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنى والصفات العليا، إذ هو أصل الأصول.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت، من بعث الخلائق وإعادة الأجساد كما كانت، ورد الأرواح إليها، وجمع الأولين والآخرين ليوفى كل عامل ما عمل.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسوله ﷺ.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو اسم جنس يشمل جميع الكتب المنزلة من السماء

ودليل القدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾.

على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ونسخها جميعَها.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ عموماً، وخصوصاً خاتمهم محمد ﷺ.

دليل القدر

(ودليل) أن **(القدر)** ركنٌ من أركان الإيمان لا يستقيم إيمان عبد إلا به **(قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ﴾)** وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية.

(﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾) نحن لا خالق لها سوانا.

(﴿بِقَدَرٖ﴾) أي: أن ما خلقناه مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ، بما سبق به علمنا، وجرى به قلمنا، بوقته ومقداره وجميع ما اشتمل عليه من الأوصاف.

وبعض الناس لا يرضى بما قسمه الله له من خير، ويقدح بما كتب عليه من شر تسخطاً على ربه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله، يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كُمُون النَّار في الزِّناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتباً على القدر، وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟!!»(١) *.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٣٥.

المرتبة الثالثة: الإحسان

(المرتبة الثالثة) من مراتب الدين: مرتبة **(الإحسان)** وهو نهاية الإخلاص، والإخلاص إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن، وهذا هو الإحسان، ولذا يفسر الإحسان بالإخلاص.

واشتقاقه من الحسن الذي هو نهاية الإخلاص في القلب، ومن حيث الظاهر كمال المتابعة.

وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، فإن من اتصف بذلك فإنه يكمل العمل في الظاهر والباطن، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى والإقبال إليه والتوكل، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحسان»[(١)].

وقال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «حاصله: ـ أي: الإحسان ـ راجع إلى إتقان العبادات، ومراعاة حقوق الله تعالى ومراقبته، واستحضار عظمته وجلالته حال العبادات»[(٢)].

دوائر الدين

والإحسان أعلى المراتب وأعمها من جهة نفسها، وأخصها من جهة أصحابها، كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه، ولهذا يقال كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، وإذا أطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام، فإن الإسلام والإيمان والإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام، ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، كدوائر كل واحدة منها محيطة بالأخرى، ومعلوم أن من كان في

(١) الفتاوى ١٥/ ١٠.

(٢) شرح الأربعين لابن دقيق العيد ص٤٣.

....

دائرة الإحسان فهو داخل في الإسلام والإيمان، وإذا خرج عن الأول فهو داخل في الثانية وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثالثة وهي دائرة الإسلام، ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فهو خارج إلى غضب الله وعقابه، وداخل في دوائر الشيطان ـ والعياذ بالله ـ، فظهر بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول من يقول: كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، فلا يلزم من دخوله في الإسلام أن يكون داخلاً في الإحسان والإيمان، وليس المراد أن من لم يكن في الإحسان والإيمان يكون كافراً، بل يكون مسلماً ومعه من الإيمان ما يصحح إسلامه، لكن لا يكون مؤمناً الإيمان الكامل الذي يستحق أن يثنى عليه به الثناء المطلق ـ أي: الكامل ـ، أما مجرد الثناء فهو يستحقه بقدر ما معه من الإيمان، فإنه لو كان مؤمناً الإيمان الكامل لمنعه من المعاصي والمحرمات، وقد قيل للنبي ﷺ: «أعطيتهم وتركت فلاناً وهو مؤمن فقال: أو مسلماً» رواه أحمد[(١)]، وقال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» متفق عليه[(٢)]، وقال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» متفق عليه[(٣)]. فالنصوص لم تنفِ عنهم الإسلام، بل أثبتت لهم أحكام الإسلام من عصمة الدم وغيرها.

أهل الإحسان

فأهل الإحسان هم خواص أهل الإيمان، كما أن أهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، فإن أهل الإحسان كملوا عبادة الله إلى أن وصلوا إلى حد المراقبة، وأهل الإحسان هم الصفوة وهم الخلص من عباد الله المؤمنين.

---

(١) المسند رقم (١٥٧٩) ١/ ١٨٢من حديث سعد بن مالك.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦٧٧٢) ٤/ ٢٤٥، وصحيح مسلم رقم (٥٧) ١/ ٧٦ - ٧٧ من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٦٧٠) ٥/ ٢٢٤٠، وصحيح مسلم رقم (٤٦) ١/ ٦٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

ومما يعين على الوصول إلى مرتبة الإحسان كثرة ذكر الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إنه ـ أي: الذكر ـ يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت»[(١)].

ومراقبة الله هي أصل الأعمال القلبية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «المراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به»[(٢)] *.

---

(١) الوابل الصيب ص٥٢.

(٢) إعلام الموقعين ٤/ ٢٠٣.

ركن واحد وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ

ركن الإحسان

والإحسان **(ركن واحد)**.

وهو: **(أن تعبد الله)** أي: تتعبد الله بأيِّ عبادة كانت **(كأنك تراه)** أي: كأنك ترى ربَّك الذي قمت بين يديه.

(فإن لم تكن تراه) وهي درجة المراقبة، **(فإنه)** أي: فاعلم أنه **(يراك)** أي: مطلع على جميع خفاياك.

فهاتان درجتان: إحداهما أكمل من الأخرى، فإن لم تحصل عبادة الله كأنك تشاهده، فاعبده مستحضراً أنه يراك في كلِّ أعمالك، وأنه بصيرٌ عليمٌ بجميع ما تفعله.

الدليل على مرتبة الإحسان

(والدليل) على مرتبة الإحسان من القرآن **(قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾) ربهم بفعل الطاعات وترك المحرمات.

(﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾) في عبادتهم ربهم وإحسانهم للخلق، فالله مع عباده المتقين، والذين هم محسنون في العمل يحفظهم ويكلؤهم ويؤيدهم، وهذه معية خاصة.

(و) دليل ثانٍ على مرتبة الإحسان **(قوله)** تعالى: (﴿وَتَوَكَّلْ﴾) في جميع أمورك (﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾) فإنه مؤيدك وحافظك، ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والصعود إلى منزلة الإحسان فقال: (﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾) في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة (﴿حِينَ تَقُومُ﴾) إليها.

(﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾) أي: ويراك في صلاتك في حال ركوعك وسجودك وقعودك فيها، وخص الصلاة بالذكر لفضلها وشرفها، ولأن من

﴿٢١٩﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، **وقوله**: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ **الآية**.

استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله ويستعين بها على جميع أموره.

(﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾) يسمع ويعلم جميع حركاتك.

(و) دليل ثالث على مرتبة الإحسان **(قوله)** تعالى: (﴿وَمَا تَكُونُ﴾) يا أيها النبي (﴿فِي شَأۡنٖ﴾) في أيِّ عملٍ من الأعمال.

(﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾) أي: وما تتلو أيَّ آية من القرآن.

(﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾) صغيرٍ أو كبيرٍ، أنت وأمتك.

(﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾) نحن مشاهدون ومطلعون على كلِّ ذلك، وعلى جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم.

(﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾) وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به إلى حين انقضائكم منه، كل ذلك مطلعون عليه *.

والدليل من السنة حديث جبرائيل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر،

دليل مراتب الدين الثلاث من السنة

(والدليل) على مراتب الدين الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان **(من السنة)** النبوية **(حديث جبرائيل المشهور)** الذي قال عنه القرطبي ـ رحمه الله ـ: «هذا الحديث يصلح أن يقال له: أمّ السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة»[1]، وقال عنه النووي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف، بل هو أصل الإسلام»[2].

وقد أخرج هذا الحديث العظيم الإمام مسلم في صحيحه **(عن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه**)** ثاني الخلفاء الراشدين **(قال)** حاكياً تلك المحاورة بين خير المرسلين محمد ﷺ وأفضل الملائكة جبريل عليه السلام:

(بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ) وفي رواية في الصحيحين[3]: «كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس».

(إذ طلع علينا رجل) هو مَلَك في صورة رجل.

(شديد بياض الثياب) لا دنس عليها، وفيه دليل على تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك.

(شديد سواد الشعر) لا غبار على شعره، والمسافر من شأنه أن تكون عليه أمارات السفر.

ومع ذلك **(لا يرى عليه أثر السفر)** من الإعياء والتعب وأثر المشقة وتغير الحال من السفر.

---

(١) فتح الباري ١/ ١٢٥.

(٢) شرح النووي على مسلم ١/ ١٦٠.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٠) ١/ ٢٧، وصحيح مسلم رقم (٨) ١/ ٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة،

(**ولا يعرفه منا أحد**) فلا أثر للسفر عليه، ولا يعرفه الصحابة؛ لأنه ليس من المقيمين في المدينة فعجب الصحابة منه.

(**حتى جلس إلى النبي ﷺ**) قريباً منه.

(**فأسند**) جبريل (**ركبتيه إلى ركبتيه**) أي: إلى ركبتي النبي ﷺ، (**ووضع**) جبريل (**كفيه على فخذيه**) أي: على فخذي النبي ﷺ وجلس على هيئة المتعلم، وفي رواية: «ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ» رواه الدارقطني[1]، ولسليمان التيمي ـ رحمه الله ـ «فتخطى حتى برك بين يدي النبي ﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة، ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ»[2]. وصنيعه منبه للإصغاء إليه، وفيه إشارة لما ينبغي للمسئول من التواضع والصفح عما يبدو.

(**وقال**) جبريل: (**يا محمد أخبرني**) وأعلمني (**عن**) أركان (**الإسلام**)، ما هي؟

(**قال**) النبي ﷺ: (**أن تشهد**) وتقر (**أن لا إله**) معبود بحقٍّ (**إلا الله**) وحده، (**و**) أن تشهد (**أن محمداً**) هو (**رسول الله**) ﷺ.

(**و**) أن (**تقيم**) أي: تؤدي (**الصلاة**) المفروضة بشروطها وأركانها وواجباتها.

(**و**) أن (**تؤتي**) وتؤدي (**الزكاة**) المفروضة لمستحقيها.

---

(١) سنن الدارقطني رقم (٢٠٧).

(٢) فتح الباري لابن حجر ١/١١٦.

وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه،

(و) أن **(تصوم)** شهر **(رمضان)** المبارك.

(و) أن **(تحج)** أي: تقصد **(البيت)** الحرام **(إن استطعت)** السير **(إليه)** أي: إلى الوصول إلى البيت **(سبيلاً)** أي: طريقاً متيسراً من زادٍ وراحلةٍ ووجود المحرم للمرأة لقول النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، فقال رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، قال: انطلق فحج مع امرأتك» متفق عليه[١]. وقد أوجبه الله في العمر مرة واحدة، وقد بين النبي ﷺ فضله بقوله: «من حج هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه» متفق عليه[٢].

وهذه الأركان الخمسة هي الإسلام، وفي رواية لأحمد[٣]: «فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟، قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت».

وهذا هو دليل المرتبة الأولى، وفسره بأعمال الجوارح الظاهرة، والإسلام هو الدين قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، وهو الصراط المستقيم الذي أمر الله بالاستقامة عليه.

(قال) جبريل عليه السلام: **(صدقت)** يا محمد، **(فعجبنا له)** ولصنيعه هذا **(يسأله ويصدقه)** وسبب عجب الصحابة من هذا السائل؛ لأن من شأن السائل أن يجهل ما يسأل عنه، ولكن السائل هنا يسأل النبي ﷺ ويصدقه فكأنه خبير بالجواب، ولأن ما جاء به النبي ﷺ لا يُعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممن عُرف بلقائه بالنبي ﷺ واجتماعه به ولا بالسماع منه، بل هو غريب عنهم، ثم هو قد سأل سؤال عارف محقق مصدق فتعجبوا من ذلك *.

---

(١) صحيح البخاري رقم (١٧٦٣) ٢/ ٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٤١) ٢/ ٩٧٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري رقم (١٤٤٩) ٢/ ٥٥٣، وصحيح مسلم رقم (١٣٥٠) ٢/ ٩٨٣ ـ ٩٨٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) المسند رقم (٢٩٢٦) ١/ ٣١٩.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»،

ثم **(قال)** جبريل: **(فأخبرني)** يا محمد **(عن الإيمان)** ما هو؟

(قال) محمد ﷺ: الإيمان هو: **(أن تؤمن بالله)** بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بالله هو أصل للإيمان ببقية أركان الإيمان، وكل ما عداه من الأركان داخلة فيه.

(و) أن تؤمن بـ **(ملائكته)** إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التفصيل، بأسمائهم وأعمالهم، وما أوكل إليهم، وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(و) أن تؤمن بـ **(كتبه)** بأن تؤمن بكلِّ كتابٍ أنزله الله على رسله، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وأن جميعها منسوخ بالقرآن العظيم، وأنه قد دخل في الكتب السابقة التصحيف والتحريف.

(و) أن تؤمن بـ **(رسله)** بأن الله اصطفى من البشر رسلاً يهدون الناس إلى الحق، تؤمن بهم إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التفصيل، فتؤمن بمن عرفت أسمائهم ومن لم تعرف أسمائهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

(و) أن تؤمن بـ **(اليوم الآخر)** وتصدق بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت.

(و) أن **(تؤمن بالقدر)** وما كتبه الله فيه، من **(خيره)** مما فيه من فرح وسرور، **(و)** من **(شره)** مما فيه من مرارة وأحزان من غير جزع عليه ولا تسخط، فكل ما كان وسيكون، فهو بقضاء الله وقدره ومشيئته وإرادته، وإعادة كلمة «وتؤمن» عند القدر للاهتمام بشأنه، وفي رواية لأحمد: «وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، قال: فإذا فعلت

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك،

ذلك فقد آمنت؟ قال: إذا فعلت ذلك فقد آمنت»[1].

(قال) جبريل: **(صدقت)**.

وهذا دليل المرتبة الثانية، وهي الإيمان وفسره بالأعمال الباطنة، ودل الحديث على أن الإسلام والإيمان إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة.

(قال) جبريل: **(فأخبرني)** يا محمد **(عن الإحسان)** ما هو؟

(قال) النبي ﷺ: **(أن تعبد الله كأنك تراه)** أي: يغلب عليك مشاهدة الحق بقلبك، حتى كأنك تراه بعينك، ومن كان كذلك فإنه يأتي بالعبادة على التمام والكمال.

(فإن لم تكن تراه) أي: إن لم تستحضر أنك ترى الله، فانتقل إلى المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وهي أن تستشعر **(أنه)** تعالى **(يراك)** ومطلع عليك في كل ما تعمل، لا يخفى عليه منك خافية.

وهذا القدر من الحديث أصل من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد العلم، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ، فإن إحسان العبادة، هو الإخلاص فيها والخشوع، وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبته.

وأشار في الجواب إلى حالتين:

أعلاهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه.

والثانية: أن يستحضر أن الحق تعالى مطلع عليه ويرى كل ما يعمل.

---

(١) المسند رقم (٢٩٢٦) ١/ ٣١٩.

....

وهاتان الحالتان تثمرهما معرفة الله وخشيته، وفي رواية: «أن تخشى الله كأنك تراه» رواه مسلم[1] فجعل النبي ﷺ هذا هو الإحسان، وهو دليل المرتبة الثالثة.

ففي هذا الحديث دليل على هذه المراتب الثلاث، وأن أركانها هي ما عدها المصنف ـ رحمه الله ـ *.

(١) رقم (١٠) ١/ ٤٠.

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها ؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان،

(قال) جبريل: **(فأخبرني)** يا محمد **(عن الساعة)** متى تقوم؟

(قال) النبي ﷺ: **(ما المسئول عنها)** يقصد النبي ﷺ نفسه **(بأعلم من السائل)** وهو جبريل أي: أنا وأنت سواء في العلم بها، كلانا لا يعلم متى تقوم؟ فعلمها عند الله وحده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فالخلق كلهم حتى الملائكة والرسل لا يعلمون متى تقوم، فوقتها مما استأثره الله تعالى بعلمه قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

علامات الساعة

(قال) جبريل عليه السلام: فإن لم تعلم متى تقوم الساعة **(فأخبرني)** يا محمد **(عن أماراتها)** وعلاماتها التي تسبق قيامها؟

(قال) محمد ﷺ: من علامات الساعة: **(أن تلد الأمة)** الرقيقة من الجواري **(ربتها)** أي: مالكتها وسيدتها، والمعنى: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها، وفسر بغير ذلك، وحاصله: الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربي وضيعاً والسافل عالياً.

ومن أماراتها: **(أن ترى)** وتشاهد **(الحفاة)** الذين لا نعال عليهم، **(العراة)** الذين لا ثياب تسترهم، **(العالة)** الفقراء، **(رعاء)** أي: رعاة **(الشاء)** أي: الغنم، **(يتطاولون)** أي: يتنافسون **(في البنيان)** ويتفاخرون به بعد أن كانوا فقراء رعاة أغنام، ومعناه: أن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهوا في البنيان، قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «إنما خص رعاء الشاة بالذكر، لأنهم أضعف أهل البادية»[1]. والمراد أن

---

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ٤٤.

قال: فمضى فلبثنا ملياً فقال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

أسافل الناس يصيرون رؤساء، وتكثر أموالهم حتى يتباهوا بطول البنيان وزخرفته، وفي الحديث: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» رواه البخاري[1]؛ لأنه يفسد نظام الدين والدنيا، وهذا كله من تغير الأحوال في آخر الزمان وانعكاس الأمور.

(قال) عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **(فمضى)** جبريل أي: خرج **(فلبثنا)** نحن الصحابة ومعنا النبي ﷺ **(ملياً)** وقتاً طويلاً **(فقال)** النبي ﷺ بعد انصراف جبريل: **(يا عمر)** بن الخطاب **(أتدري من)** هو **(السائل)** الذي كان يسأل وأنتم حاضرون؟

(قلت: الله ورسوله أعلم)، لأن الرجل غريب لا نعرفه ولم نره من قبل، وهذا فيه أدب أن من سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه، ولا يتكلف ما ليس له به علم، فما علمه يجيب عنه، وما لا يعلمه يقول فيه: الله أعلم، وفي حياة النبي ﷺ يجوز أن يقول في أمر الدين: الله ورسوله أعلم، لنزول الوحي على النبي ﷺ، أما بعد وفاته فمن سئل عن شيء وهو لا يعلمه فإنه يقتصر على قوله: الله أعلم.

أهمية حديث جبريل

(قال) النبي ﷺ: **(هذا)** السائل الذي أتاكم هو **(جبريل)** أفضل الملائكة **(أتاكم)** متمثلاً في صورة رجل لـ **(يعلمكم)** أي: لتتعلموا **(أمر)** وأسس **(دينكم)** بتلك الأسئلة العظيمة التي كان يسألها، فأخبر أن ما ذكر في هذا الحديث هو أمر الدين وأساسه، فإنه قد اشتمل على أصول الدين والعقائد، بل انحصرت العلوم الشرعية في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، وعقيدة أهل السنة والجماعة عليه، وشرف هذا الحديث وجلالته أمر مجمع عليه، قال

---

(١) رقم (٥٩) ١/ ٣٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «مذهب السلف وأئمة الخلف أنَّ من صدق بهذه الأمور ـ يعني: المذكورة في الحديث ـ تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا تردد، كان مؤمناً حقاً سواء كان ذلك عن براهين قاطعة، أو عن اعتقادات جازمة»[1]، وقال عنه القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: «اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه»[2] *.

---

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ٤٢.

(٢) فتح الباري ١/ ١٢٥.

الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ

(**الأصل الثالث**) من أصول الدين الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها:

(**معرفة نبيكم محمد** ﷺ)، وهو أصل عظيم يجب معرفته قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر»(١)، فإنه عليه الصلاة والسلام هو الواسطة بيننا وبين الله، ولا طريق لنا لمعرفة ما ينجينا من غضب الله وعقابه، ويقربنا من رضى الله وثوابه، إلا بما جاء به نبينا محمد ﷺ، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ﷺ واتباعه منها، إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب»(٢)، وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ»(٣)، ولا صلاح للعالم إلا بالرسالة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونور حياته»(٤)، والله أرسل الرسل رحمة للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «اقتضت رحمة العزيز الرحيم، أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ومن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه، بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها»(٥).

أهمية معرفته

وإذا كان كذلك عرفنا وجه كون معرفة النبي ﷺ أحد الأصول الثلاثة

(١) زاد المعاد ١/ ٦٩.
(٢) الفتاوى ١/ ٥.
(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١/ ٣٨٩.
(٤) الفتاوى ١٩/ ٩٣.
(٥) الصواعق المرسلة ١/ ١٥٠.

التي يجب علينا معرفتها، فإنا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الرب، ولا الأصل الثاني الذي هو دين الإسلام، إلا بالواسطة بيننا وبين الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[(١)].

ومعرفته ﷺ تنتظم أشياء عديدة: منها معرفة اسمه ونسبه وعمره وزمن نبوته ورسالته، ومعرفة ما نُبِّيء به وما أرسل به وبلده ومهاجره ووفاته، ومنها ـ وهو أعظمها ـ معرفة ما بعث به، وغير ذلك مما ذكره المصنف وغيره.

نسب النبي ﷺ

(و) نبينا ﷺ اسمه **(محمد)** ومعناه: الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، وله عدة أسماء: هذا أشهرها وأفضلها وأعظمها، ولهذا جاء في القرآن بهذا الاسم كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، وقوله عزَّ وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، ولقبه: أبو القاسم.

ووالده **(عبد الله)**، ولم يدرك النبوة، ومات على الكفر، عن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: في النار، فلما قفّى دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار» رواه مسلم[(٢)].

وجده **(عبد المطلب)** واسمه شيبة، ويقال له: شيبة الحمد، لجوده وجماع أمر قريش إليه، وإنما سمي بعبد المطلب، لأن عمه المطلب قدم به

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٦٩.

(٢) رقم (٥٢١) ١/ ١٣٢.

هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

مكة وهو رديفه وقد تغير لونه بالسفر فحسبوه عبداً له فقالوا: هذا عبد المطلب أي: عبدٌ للمطلب، فعلق به هذا الاسم.

ووالد عبد المطلب هو **(هاشم)** واسمه عمرو وإنما سمي هاشماً، لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في أعوام الجوع.

(وهاشم من) قبيلة **(قريش)** وهي أشهر وأشرف قبائل العرب.

(وقريش) أصلها **(من العرب)** فهي قبيلة عربية.

(والعرب من ذرية) ـ أي: من سلالة ـ **(إسماعيل بن إبراهيم الخليل)** أبي الأنبياء **(عليه وعلى نبينا)** محمد **(أفضل الصلاة والسلام)**.

فإبراهيم عليه السلام بعد كبر سنه وهبه الله ولداً سماه إسماعيل، وإسماعيل هو الملقب بالذبيح وعاش مع العرب، ثم من بعده وهبه الله إسحاق، وخرج من نسل إسماعيل نبينا محمد ﷺ، وإسحاق خرج بقية الأنبياء من نسله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، لذا سمي إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، لأن الأنبياء بعده من نسله، إما من طريق إسماعيل وهو محمد ﷺ، أو من طريق إسحاق، وهم جميع الأنبياء عدا نبينا محمد ﷺ، قال النبي ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم[(١)].

فنبينا أشرف الناس نسباً، فهو هاشمي قرشي، وهكذا الرسل تبعث من أكرم قومها أحساباً *.

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٦) ٤/ ١٧٨٢ من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً.

ولادته ﷺ

وفي شهور حمل أم النبي ﷺ به توفي والده، وولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل يوم الاثنين، وفي يوم الاثنين بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر إلى المدينة، وفيه توفي، قال ﷺ: «ذلك يوم ولدت فيه، وأنزل عليَّ فيه» رواه مسلم[1]، ولا يجوز أن يقام احتفال بمولده ﷺ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقم لمولده في حياته احتفالاً، والصحابة ﭫ وهو أحب الناس إليهم لم يفعلوا ذلك.

ولما ولد يتيماً تربى في بيت جده عبد المطلب، ثم عند عمه أبي طالب، ثم تزوج خديجة وله خمس وعشرون سنة، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم فمن مارية القبطية، وكان النبي ﷺ قبل البعثة يلقب بالأمين.

عمره ﷺ

(وله من العمر) الذي عاشه في هذه الدنيا **(ثلاث وستون سنة)** هي مجموع عمره من ولادته إلى مماته.

(منها) أي: من هذه السنين **(أربعون)** سنة **(قبل النبوة)** فلم يوح إليه إلا وعمره أربعون عاماً، وهذا سن اكتمال الأشد قال سبحانه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾.

ومن عمره **(ثلاث وعشرون)** سنة **(نبياً)** يوحى إليه و**(رسولاً)** مأموراً بالرسالة والتبليغ.

وزمن نبوة نبينا محمد ﷺ ورسالته ثلاث وعشرون سنة، مكث منها في مكة ثلاثة عشر عاماً، وفي المدينة النبوية عشرة أعوام، وكان عمره مباركاً أظهر الله به الدين، وتمت به الشريعة، ودخل الناس في الدين أفواجاً، لاقى

---

(١) صحيح مسلم رقم (١١٦٢) ٢/ ٨١٩ من حديث أبي قتادة الأنصاري ﭬ.

خلال تلك السنين خوفاً وجوعاً وابتلاءً، وتسلط الأعداء عليه، وقدموا إليه في بلد مهاجره لقتاله، فصبر وجاهد حتى بلَّغ رسالة ربه.

نبوته ورسالته ﷺ

وقد (**نبيء**) أي: أنزل عليه الوحي مأموراً بالنبوة يوم الاثنين في رمضان بغار حراء، أمره الله بالنبوة (**بـ**) صدر سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ورجع بها يرجف فؤاده فقالت له خديجة رضي الله عنها: «كلا، والله لا يخزيك الله أبداً» متفق عليه[1].

(**وأرسل**) من الله بعد فترة من الوحي (**بـ**) صدر سورة (**المدثر**)، فإنه لما جاءه الملك فَرَق منه ـ أي: خاف ـ فقال: دثروني فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فكانت أول ما أنزل عليه بعد فترة الوحي، ثم حمي الوحي وتتابع، فشمر حينئذ عن ساق العزم ودعا إلى الله.

بلده

(**وبلده مكة**) أشرف البقاع عند الله، بها ولد ونشأ، إلا ما كان منه وهو مع مرضعته السعدية في البرية، ثم رجع إلى مكة في حضانة جده، ثم عمه، وأوحي إليه بها، وبقي بها بعد أن أوحي إليه ثلاث عشرة سنة.

(**و**) بعد ذلك (**هاجر إلى المدينة**) بعد أن همُّوا بقتله فتغيب في الغار، ثم سار هو وأبو بكر مهاجراً إلى المدينة، وذلك بعد أن بايعه أهلها على النصرة والمؤازرة، وأرخت الأمة تاريخها من مهاجره ﷺ *.

(١) صحيح البخاري رقم (٤٦٧٠) ٤/ ١٨٩٤، وصحيح مسلم رقم (١٦٠) ١/ ١٤١ من حديث عائشة رضي الله عنها.

بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾

الحكمة من بعثته ﷺ

وقد ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ جملة مما يُعرف به النبي ﷺ، وأعظمها وأعلاها معرفة ما بعث به النبي ﷺ، فإنه **(بعثه الله بالنذارة عن الشرك)** يحذر منه وينذر من وباله في الدنيا والآخرة، لأنه يحبط العمل، وصاحبه مخلد في النار، وبعثه الله **(يدعو إلى التوحيد)** وإفراد الله بالعبادة، وقَدَّم المصنف النذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد، لأن هذا مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، ولأن الآية ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة لا تصح مع وجود المنافي، فلو وجدت والمنافي لها موجود لم تصح قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾، ولقوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم دمه وماله وحسابه على الله عزَّ وجل» رواه مسلم[1]. ثم ثنى بالتوحيد، لأنه أوجب الواجبات، ولا يرفع عمل إلا به، وإذا خالط الشرك العمل أفسده وأحبط العمل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

الدليل على ذلك

(والدليل) على أن الله بعث نبيه محمداً ﷺ لينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد:

(قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾) أي: المتدثر بثيابه المتغشي بها، وهذا من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي.

(﴿قُمۡ﴾) أي: من دثارك (﴿فَأَنذِرۡ﴾) هم عن الشرك وادعهم إلى التوحيد، وهذه أول آية أرسل بها، وأول أمر طرق سمعه في حال إرساله، وذلك أنه لما رأى الملك الذي جاءه بحراء حين أنزل عليه ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ رعب منه

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٣) ١/ ٥٣ من حديث أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه.

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ .

فنزل إلى أهله فقال: دثروني فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾» متفق عليه[1]، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بـ ﴿اقْرَأْ﴾ النبوة.

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾) أي: عظم ربك عما يقول عبدة الأوثان.

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾) أي: نفسك طهرها عن الذنوب، كنى عن النفس بالثوب؛ لأنها تشتمل عليه.

(﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾) أي: اترك الأوثان ولا تقربها، والرجز: القذر مثل الرجس قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾.

(﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾) أي: لا تعط مالك مصانعة لتعط أكثر منه، أو لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، أو لا يكثر عملك في عينك، أو لا تضعف أن تستكثر من الخير.

(﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾) أي: على طاعته وأوامره، أو على ما أوذيت في الله *.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٤٦٣٨) ٤/ ١٨٧٤، وصحيح مسلم رقم (١٦١) ١/ ١٤٤ من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما.

ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهر أعمالك عن الشرك،

تفسير دليل الحكمة من بعثته ﷺ

(**ومعنى** ﴿قُمْ﴾) أي: بجد ونشاط، (﴿فَأَنذِرْ﴾) أي: أمة محمد ﷺ.

(**ينذر**) الناس (**عن الشرك**) بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود؛ لأن الشرك أعظم ذنب عصي الله به، سئل النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» متفق عليه[1]، ولا يرفع معه عمل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وصاحبه مخلد في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾.

ومع إنذاره عن الشرك (**يدعو إلى التوحيد**)، لأن التوحيد أوجب الواجبات، وأول دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فشمَّر ﷺ عن ساق العزم، وأنذر الناس وأوذي على ذلك هو ومن اتبعه.

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي**): معناها (**عظمه بالتوحيد**) فهو: الإله الحق المستحق أن يعبد وحده، لا يشرك معه أحد في عبادته، فعظم ربك بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك أن يعظم العباد ربهم ويقوموا بعبادته، فإنه ما عُظِّم الربّ بشيء أجلّ من ذلك، ونزهه عما يقوله عبدة الأوثان.

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي**:) معناها (**طهر أعمالك عن الشرك**) واجعلها كلها خالصة لوجه الله، فالعمل يسمى لباساً قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وتطهير الملابس غير مرادٍ في هذه الآية؛ لأن الصلاة لم تفرض في ذلك الوقت، فالمراد هنا الأعمال أي: طهر نفسك من الذنوب وأعظمُها الشرك، قال ابن

---

(١) صحيح البخاري رقم (٤٢٠٧) ٤/١٦٢٦، وصحيح مسلم رقم (٨٦) ١/٩٠ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ الرجز: الأصنام، وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها.

القيم ـ رحمه الله ـ: «وهو قول المحققين من أهل التفسير، وهو أصح الأقوال»[1]، وقيل: أصلح عملك لا يخالطه شيء من الشرك.

(﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾)، و**(الرجز)** هي: **(الأصنام)** والأوثان التي عبدت من دون الله.

(و) معنى **(هجرها)** أي: **(تركها)** والإعراض عنها **(والبراءة منها و)** من **(أهلها)**، فالنبي ﷺ أمر بترك الأوثان والبعد عنها، والتبرؤ منها ومن أهلها، وهذا نهج الأنبياء والمرسلين قال تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فلا يتم توحيد العبد حتى يتبرأ من الكفر وأهل الكفر ويبعد عنهم وينابذهم، قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾، وقال عزَّ وجل: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فهذه الأمة أمرت بالتأسي بإبراهيم عليه السلام وأتباعه الذين كانوا معه في تبرئهم من المشركين *.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٠.

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عرج به إلى السماء،

زمن دعوته ﷺ للتوحيد

وقد **(أخذ)** النبي ﷺ **(على هذا)** النهج في بيان الشرك، والإنذار عنه، والتحذير منه، وبيان التوحيد، والدعوة إليه، **(عشر سنين)** وهو **(يدعو إلى التوحيد)** وينذر عن الشرك، قبل فرض الصلاة التي هي عماد الدين، وقبل بقية الشرائع.

وبهذا يتبين لك أن حقيقة ما بعث به النبي ﷺ ودعت إليه الرسل كلهم، هو الإنذار عن الشرك والتحذير منه، والدعوة إلى التوحيد وبيانه وتوضيحه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، وأخبر الله عن نوح وهودٍ وصالح وشعيب عليهم السلام أن أول شيء بدؤوا به أقوامهم أن قالوا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾، وخاتمهم محمد ﷺ أول شيء دعاهم إليه قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد(١).

فالنبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد، وذلك لأنه هو أساس الملة الذي تبنى عليه، وبدونه لا ينبني شيء من الأعمال.

فالتوحيد هو الأصل، وبقية شرائع الدين فرع عنه، فإذا زال الأصل زال الفرع، فكونه أخذ عشر سنين يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشرك قبل أن تفرض عليه الفرائض، يدل على أن التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفته أفرض الفرائض.

الإسراء والمعراج

(وبعد) السنوات **(العشر)** من بدء النبوة والرسالة وهو في مكة **(عرج به إلى السماء)** السابعة، فأسري بجسده وروحه جميعاً من المسجد الحرام على

---

(١) المسند رقم (١٦٠٦٦) ٣/ ٤٩٢ من حديث ربيعة بن عباد الديلي.

وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة،

البراق[1]، إلى بيت المقدس يقظةً لا مناماً، كما أخبر الله عنه في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، ثم صعد به جبريل عليه السلام إلى السماء على المعراج، كلما مر بسماء تلقاه مقربوها، حتى جاوزهم إلى سدرة المنتهى، حتى سمع صريف الأقلام، فبلغ من الارتفاع والعلو إلى ما الله به عليم، وكلمه الله بلا واسطة، فأوحى إليه ما أوحى.

أين فرضت الصلاة؟

(وفرضت عليه الصلوات الخمس) وهو في السماء، وكان أول ما فرضت خمسين صلاة، ولم يزل يتردد بين موسى وبين ربه حتى وضعها إلى خمس وقال: «هي خمس ـ أي: في العدد ـ وهي خمسون ـ أي: في الأجر ـ الحسنة بعشر أمثالها» متفق عليه[2]، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط الأنبياء معه، وأمَّهم في بيت المقدس، ثم ركب البراق ورجع إلى مكة من ليلته، وحدثهم عما رآه في مسيره.

(وصلى في مكة) الصلوات الخمس المفروضة **(ثلاث سنين)** بعد أن عرج به وفرضت عليه قبل الهجرة.

المدة التي صلاها النبي ﷺ في مكة

(وبعدها) أي: بعد الثلاث عشرة سنة من بعثته **(أُمر بالهجرة)** من مكة **(إلى المدينة)** بمفارقة المشركين وأوطانهم، بحيث يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلى الله، فإن ذلك واجب وفرض، لأن أهل مكة منعوه أن يقيم دعوته، فاستقبله الأنصار في المدينة، وآووه ونصروه وآزروه، حتى بلَّغ دين ربه فانتشر في الآفاق *.

---

(١) البراق: دابة دون البغل وفوق الحمار، مشتق من البرق سمي بذلك لنصوع لونه وشدة بريقه، وقيل: لسرعة حركته. لسان العرب ١٠/ ١٥.

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٢) ١/ ١٣٦، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (١٦٢) ١/ ١٤٥ ـ ١٤٨ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام،

تعريف الهجرة

(و) تعريف (**الهجرة**) هي (**الانتقال**) والتحول (**من بلد الشرك إلى بلد الإسلام**) وكل من فارق بلده فهو مهاجر، والمهاجرة في الأصل مصارمة الغير ومقاطعته ومباعدته، وسمي المهاجرون مهاجرين، لأنهم هجروا ديارهم ومساكنهم التي نشئوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم فيها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة.

وشرعت الهجرة: حفظاً لدين العبد من الزوال، أو النقصان، وفراراً به من الفتن، ولخشية عدم إظهار شعائر الإسلام، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله»(١).

حكمها

والمرء يتأثر بمجتمعه في صلاحه وتقواه وفي بعده عن ربه ومولاه، (و) لهذا كانت (**الهجرة فريضة على هذه الأمة**) المحمدية (**من بلد الشرك**) والكفر (**إلى بلد الإسلام**) وقد حكي الإجماع على وجوبها، وقد فرضها الله على رسوله ﷺ وعلى الصحابة قبل فرض الصوم والحج، وقد جاء الوعيد على من تركها وهو قادر على ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: لا تراءى ناراهما» رواه أبو داود والترمذي(٢).

ومخالطة المشركين ضرر على الدين، وإذا كان المسلم في بلد لا يقدر على إظهار دينه والتصريح به وتبيينه، وجب عليه مفارقة ذلك الوطن لإظهار دينه، وليصون معتقده، فالقرب منهم في المسكن ونحوه يضر بدينه، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود

---

(١) الفتاوى ١/ ٩٤.

(٢) سنن أبي داود رقم (٢٦٤٥) ٣/ ٤٥، وسنن الترمذي رقم (١٦٠٤) ٤/ ١٥٥ من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

....

والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام»[1].

والهجرة فيها منافع دينية ودنيوية للمهاجر، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ حفيد المصنف ـ رحمهما الله: «الهجرة الغالب على أهلها السلامة والعز والتمكين، كما جرى ذلك لرسول الله ﷺ وأتباعه سلفاً وخلفاً، ومصالح الهجرة في الدنيا أكثر من أن تحصر كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾»[2].

وفي ترك الهجرة أضرار على تاركها في دينه ودنياه، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: «المفاسد التي في ترك الجهاد، موجودة في ترك الهجرة وأكثر منها، كما لا يخفى على ذوي البصائر والفهم، وكان الجهاد من ثمرتها ومصالحها، وتأمل ما وقع فيه التاركون للهجرة من سوء الحال في الدين والدنيا»[3] *.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٢٠.

(٢) الدرر السنية ٨/ ٢٤٠.

(٣) الدرر السنية ٨/ ٢٤٤.

وهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ

ومن له قدرة على الهجرة من ديار الشرك ولم يهاجر فقد ظلم نفسه ووقع في الإثم.

استمرارها إلى قيام الساعة

(وهي) أي: الهجرة **(باقية)** وواجبة **(إلى أن تقوم الساعة)** فلا تسقط في أيِّ زمن عن هذه الأمة بل وجوبها باقٍ إلى قيام الساعة، فمن كان مسكنه بديار المشركين وهو قادر على التحول عنهم، وجب عليه الهجرة من تلك الديار.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «أحوال البلاد كأحوال العباد، فيكون الرجل تارة مسلماً، وتارة كافراً، وتارة مؤمناً، وتارة منافقاً، وتارة براً تقياً، وتارة فاسقاً، وتارة فاجراً شقياً، وهكذا المساكن بحسب سكانها، فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة، كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باقٍ إلى يوم القيامة»[1].

دليل وجوبها من القرآن

(والدليل) على وجوب الهجرة من القرآن **(قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾)**، وقد نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا فقال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أراد ملك الموت وأعوانه الموكلين بنزع الروح، وحال من تنزع أرواحهم أنهم من ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة من ديار الشرك.

(﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾) أي: في أيِّ فريق كنتم ولم مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع.

(﴿قَالُوٓا۟﴾) ـ أي: الذين تركوا الهجرة ـ: (﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾) أي: كنا عاجزين عن الهجرة لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض، وهم غير صادقين في ذلك.

---

(١) الفتاوى ١٨/ ٢٨٤.

قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا

(﴿قَالُوٓاْ﴾) أي: قالت لهم الملائكة معاتبة لهم: (﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾)، وهذا استفهام تقرير أي: قد تقرر عند كلِّ أحدٍ أن أرض الله واسعة، فلم لا تهاجرون إلى المدينة وتخرجون من بين أهل الشرك؟، فلم يعذروا بترك الهجرة.

فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة في الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾) أي: بئس المصير إلى جهنم، وهذا فيه أن تارك الهجرة بعد ما وجبت عليه وهو قادر عليها، أنه مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

(﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾) أي: الضعفاء العاجزين عن الهجرة.

(﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾) جمع وليد ووليدة، والوليد: الغلام قبل أن يحتلم.

(﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾) أي: لا يستطيعون مفارقة المشركين، فلا يقدرون على حيلة، ولا على نفقة، ولا على قوة للخروج.

(﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾) أي: لا يعرفون الطريق إلى الخروج من مكة إلى المدينة، حيث كانت بلد الإسلام، ولا يوجد آنذاك بلد إسلامٍ سواها.

(﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾) يتجاوز عن المستضعفين وأهل الأعذار بترك الهجرة.

(﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾) متصفاً بالعفو والتجاوز عن السيئات.

﴿غَفُورًا﴾ .

(﴿غَفُورًا﴾) للخطايا والأوزار .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية»[1] * .

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٣.

حكم السفر للخارج

وإذا كانت الهجرة مأموراً بها من بلاد الكفر، دل هذا على تحريم السفر إلى بلادهم، إلا لحاجة تدعو إلى ذلك كعلاج ونحوه، ولا يجوز السفر إليهم عند الحاجة إلا بثلاثة شروط:

١ ـ أن يكون عنده علم، يمنعه مما يرد عليه من الشبهات.

٢ ـ أن يكون عنده دين، يمنعه من الشهوات.

٣ ـ أن يتمكن من إظهار دينه والقيام بعبادة ربه كما أمر الله، وأن يحذر كل الحذر من موالاة المشركين.

وإذا لم يتمكن المسلم من الهجرة، فعليه أن يظهر شعائر دينه، من الصلاة ونحوها، بقدر استطاعته، ويجب عليه أن يدعو غير المسلمين إلى هذا الدين قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

دليل آخر من القرآن على وجوب الهجرة

(و) دليل آخر من القرآن على أن الهجرة واجبة على القادر عليها **(قوله تعالى**: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ﴾) وحدوني، و(﴿ءَامَنُوٓاْ﴾) بي وبرسولي، وهم مقيمون في ديار الكفر ولم يهاجروا وهم قادرون على الهجرة هاجروا فـ (﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾) لم تضق عليكم فتقيموا بموضع منها لا يحل لكم المقام فيه، فإذا عمل بمكان منها بمعاصي الله ولم تقدروا على تغييره، فاهربوا منه إلى أرضي الواسعة التي تسع جميع الخلائق.

فإذا كان الإنسان في أرض لم يتمكن من إظهار دينه فيها، فإن الله قد وسع له الأرض ليعبده فيها كما أمر، وأن يوحده في أرضه الواسعة، وكذلك يجب على كل من كان ببلد تعمل فيها المعاصي ولا يمكنه تغييرها أن يهاجر منها.

﴿فَإِيَّىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾، قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان». والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة

(﴿فَإِيَّىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾) أي: أظهروا لي العبادة في أرضي الواسعة التي خلقتها وما عليها لكم، وخلقتكم عليها لعبادتي.

(قال) أبو محمد الحسين بن مسعود **(البغوي ـ رحمه الله ـ)**[١] في تفسيره[٢] الذي قال عنه ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «اجتمعت الأمة على تلقي تفسيره بالقبول، وقراءته على رؤوس الأشهاد من غير نكير»[٣]:

(سبب نزول هذه الآية) كما قال مقاتل والكلبي: نزلت **(في)** ضعفاء **(المسلمين الذين)** أقاموا **(بمكة)** و**(لم يهاجروا)** منها إلى المدينة **(ناداهم الله باسم الإيمان)**[٤]، فأفاد أن تارك الهجرة بعد ما وجبت عليه ليس بكافر، لكنه عاصٍ بتركها، فهو مؤمنٌ ناقص الإيمان عاصٍ من عصاة الموحدين المؤمنين.

دليل وجوب الهجرة من السنة

(والدليل على) أن **(الهجرة)** مفروضة على هذه الأمة، وأنها باقية إلى قيام الساعة، دليل ذلك **(من السنة قوله ﷺ)** في الحديث الذي رواه أبو داود عن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[٥].

(لا تنقطع) أي: لا يسقط وجوب **(الهجرة)** من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

---

(١) المتوفى عام ٥١٦ هـ.

(٢) المسمى (معالم التنزيل).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٢٣٩.

(٤) قال البغوي في تفسيره ٣/ ٤٧٢ عند قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة إن أرضي يعني المدينة واسعة آمنة.

(٥) سنن أبي داود رقم (٢٤٧٩) ٣/ ٣

حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

(حتى تنقطع التوبة) أي: حتى لا تقبل التوبة ممن تاب.

فدل الحديث على أن التوبة ما دامت مقبولة فالهجرة واجبة بحالها، وأما قول النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» متفق عليه[1]، فالمراد لا هجرة بعد فتح مكة منها إلى المدينة، حيث كانت مكة بعد فتحها بلد إسلام، وقد كانت الهجرة من مكة مأموراً بها لما كانت بلد كفر، أَمَا وقد كانت بلد إسلامٍ فلا.

(ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تقبل التوبة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ فدل على أنها تقبل قبل طلوع الشمس من مغربها، وإذا كانت التوبة تقبل، فإن الهجرة لا تنقطع.

فواجب على المسلم أن يسعى لإصلاح نفسه بالصحبة الصالحة، وبالمجتمع الطيب، وأن يقرأ ما ينفعه في أمور دينه، وعليه أن يبتعد عن كل ما يدنس صلاحه من مجتمع لا يحثه على فعل الطاعات، أو وسائل تغرقه بالشبهات والشهوات، أو تؤزه إلى فعل المعاصي والسيئات *.

---

(١) البخاري رقم (٢٦٣١) ٣/ ١٠٢٥، ومسلم رقم (١٣٥٣) ٣/ ١٤٨٧من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام، مثل: الزكاة والصوم والحج والأذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنين،

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً وهو يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشرك، ومكث تلك السنين لبيان التوحيد، والنهي عن ضده لأهميته، ثم بعد تلك المدة هاجر من مكة إلى المدينة.

(**فلما استقر بالمدينة**) وانتشر التوحيد، وكثر أتباعه، وأقاموا الصلاة التي فرضت عليه وعليهم جماعة قبل هجرته بثلاث سنوات.

متى شرعت بقية الشرائع؟

(**أُمر ببقية شرائع الإسلام**) التي تعبد الله بها خلقه، إذ عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة.

(**مثل: الزكاة**) المفروضة بتفصيلها المعلوم.

(**والصوم**) المفروض في شهر رمضان.

(**والحج**) إلى بيت الله الحرام.

(**والأذان**) للصلوات الخمس المكتوبة.

(**والجهاد**) في سبيل الله.

(**والأمر بالمعروف**) الذي عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

(**والنهي عن المنكر**) الذي عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

(**وغير ذلك من شرائع**) وأحكام (**الإسلام**) كصلاة العيدين، والكسوف، والاستسقاء.

مدة دعوته ﷺ لها

وقد (**أخذ على هذا**) البيان والتعليم، والدعوة إلى بقية الشرائع (**عشر سنين**) كلها توحى إليه فيها الشرائع، فتمت شريعة الله صدقاً وعدلاً كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

متى توفي ﷺ؟

(وبعدها) أي: بعد ما أكمل الله به الدين وبلغ البلاغ المبين **(توفي صلاة الله وسلامه عليه)** في السنة الحادية عشرة، وقد بيّن كل شيء فيه سعادة العباد في الدنيا والآخرة، أتم بيانٍ وأوضحه، قال أبو ذر رضي الله عنه: «ما ترك النبي ﷺ طائراً يقلب جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علماً» رواه أحمد[1]، وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه: «لقد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة[2] قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم» رواه مسلم[3].

وحفظ الله دينه **(ودينه باقٍ)** وهو ما تضمنه الكتاب والسُّنَّة موجود مؤيد محفوظ إلى يوم القيامة، كاف لمن تمسك به، قال عليه الصلاة والسلام: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي» رواه الحاكم في المستدرك[4].

ما جاء به الدين

(وهذا دينه) الذي ترك أمته عليه، وتكفل الله بحفظه، توارثه المسلمون وأهل العلم والدين خلفاً عن سلف، قال بعض السلف: «هذا عهد نبينا ﷺ إلينا وقد عهدنا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا، وهي وصيته وفرضه عليكم»[5]، فجرى الخلف على منهاج السلف، واقتفوا آثارهم، ولا يزالون إلى يوم القيامة، فدينه عظيم مهيمن على جميع الأديان، فيه أعمال يسيرة وأجورها عند الله عظيمة.

---

(١) المسند رقم (٢١٣٩٩) ٥/ ١٦٣.

(٢) الخراءة ـ بكسر الخاء وفتحها ـ: هي آداب التخلي والقعود عند الحاجة. النهاية لابن الأثير ٢/ ١٧، لسان العرب ١/ ٦٤.

(٣) رقم (٢٦٢) ١/ ٢٢٣.

(٤) المستدرك رقم (٣١٩) ١/ ١٧٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) إعلام الموقعين لابن القيم ١/ ٦.

لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه.

والخير الذي دل عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر منه الشرك

و(**لا خير إلا دل**) النبي ﷺ (**الأمة عليه**) وأرشدها إليه، قال الله في الثناء عليه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الأعمال والأقوال والأخلاق الطيبة من هديه ﷺ.

(**ولا شر**) من الأقوال والأفعال (**إلا حذرها منه**) خوفاً على أمته من الوقوع في المهالك، وقد بلَّغ الدين كله، وبيَّنه جميعه كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وفي الحديث: «لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم» رواه مسلم(1).

الخير الذي جاء به النبي ﷺ

(**والخير الذي دل**) النبي ﷺ أمته (**عليه**) هو: (**التوحيد**) وهو أصل كل خير وأعظمه، وهو توحيد الله الذي هو أوجب الواجبات، وأساس قبول الأعمال، ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب.

(**و**) قد دلنا النبي ﷺ على (**جميع ما يحبه الله ويرضاه**) من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وقد أوذي النبي ﷺ وصبر حتى بلغ لنا هذا الخير العظيم، قياماً بأمر الله ونصحاً لنا وشفقةً علينا.

الشر الذي حذر منه

(**والشر**) الذي هو أصل كلِّ شرٍّ وأعظمه و(**الذي حذر منه**) أمته وأنذرها منه هو: (**الشرك**) الذي هو أعظم الذنوب عند الله، يحبط جميع الأعمال، وصاحبه مخلد في النار، وجميع الرسل حذروا أممهم من الشرك، ودعوهم

---

(1) صحيح مسلم رقم (١٨٤٤) ٣/ ١٤٢٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وجميع ما يكرهه الله ويأباه.

إلى التوحيد قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

(و) حذرنا عليه الصلاة والسلام أيضاً من **(جميع ما يكرهه الله)** ويبغضه **(ويأباه)** أي: ينهى عنه من الأقوال والأعمال *.

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين: الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

عموم بعثة النبي ﷺ إلى الناس كافة

وقد كانت الأنبياء تبعث إلى أقوامها خاصة، أما نبينا محمد ﷺ فقد **(بعثه الله)** عزَّ وجل **(إلى الناس كافة)** عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم.

(وافترض الله طاعته) أي: جعل طاعته فرضاً **(على جميع الثقلين)** وهما **(الجن والإنس)** قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقالت الجن: ﴿يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فرسالته شاملة الجن والإنس.

الدليل على ذلك

(والدليل) على أنه مبعوث إلى الناس كافة **(قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾)** العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم.

(﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾) يجب عليكم اتباعي، قال عليه الصلاة والسلام: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة» متفق عليه[1]، وكونه خاتم النبيين ورسالته إلى الناس كافة يدل على عظيم شرفه.

فواجب على جميع أهل الأديان من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، اتباع دين نبينا محمد ﷺ، وهذا معلوم من دين الإسلام بالضرورة، وهذا مقتضى رسالته، ومن لم يتبع دينه، كتب عليه الشقاء وكان من أصحاب النار، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٢٨) ١/ ١٢٨، ورقم (٤٢٧) ١/ ١٦٨، وصحيح مسلم رقم (٥٢١) ١/ ٣٧٠ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

....

يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم[1]، ومن أطاعه وامتثل أمره فقد رحمه ربه، وكان من أصحاب النعيم قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ومن اتبع ما سواه من الأديان فدينه باطل، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ *.

(١) صحيح مسلم رقم (١٥٣) ١/ ١٣٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأكمل الله به الدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ

كمال الدين

(**وأكمل الله به**) أي: بنبينا محمد ﷺ أحكام وشرائع (**الدين**) فكان بفضل الله ديناً كاملاً، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، فأينما نظرت إلى شيء منه وجدت الكمال والخير فيه، وما توفي عليه الصلاة والسلام إلا وقد بلَّغ جميع ما أمره الله به.

(**والدليل**) على أن هذا الدين كامل في شرعه وأحكامه (**قوله تعالى**: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾) أي: يوم عرفة والنبي ﷺ واقف يخطب في حجة الوداع قبل وفاته بواحد وثمانين يوماً[1].

(﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾) وهذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل لها دينها، فلا يحتاجون إلى دين سواه، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ فمن ادعى أنه يحتاج إلى زيادة فقد كذب وافترى، ورد مدلول هذه الآية، ورد مدلول قوله ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» رواه أبو داود[2]. والكامل لا يزاد فيه ولا ينقص منه، ولا يبدل، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «قد تمم الله سبحانه الدين بنبيه ﷺ وأكمله به، ولم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه، ولا رأي، ولا منام، ولا كشوف»[3].

---

(١) عند من يقول: إنه ﷺ توفي في ثاني ربيع أول، وهو قول سليمان التيمي والكلبي وخليفة بن خياط، وغيرهم، ورجحه السهيلي، قال ابن حجر في الفتح ٨/ ١٣٠: «وهو القول المعتمد».
وقيل: إن النبي ﷺ توفي في اليوم الأول من ربيع الأول، وهو قول الليث وابن شهاب والفضل بن دكين، وغيرهم.
وقيل: إن النبي ﷺ توفي في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق والواقدي وأبو بكر بن حزم، وغيرهم، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٢٥٥: «وهو القول المشهور».

(٢) رقم (٤٦٠٧) ٤/ ٢٠٠ من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) الصواعق المرسلة ٣/ ٨٢٦.

وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾.

تمام النعمة

ولما أخبر الله أنه أكمل لنا الدين وهو أكبر نعمة علينا قال: (﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾) الظاهرة والباطنة، ومن تمت عليه النعمة فقد أفلح كل الفلاح، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب، ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار»[(١)].

(﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾) أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه ورضيه، وبعث به أفضل رسله ﷺ، وأنزل به أشرف كتبه، قال كعب: «لو نزلت هذه الآية على غير هذه الأمة، لاتخذوا اليوم الذي نزلت فيه عيداً[(٢)]، قال عمر رضي الله عنه: نزلت يوم الجمعة يوم عرفة» رواه البخاري[(٣)].

عمل مردود

ولكمال هذا الدين وتمامه أخبر النبي ﷺ أن كل من فعل ما لم يأمر به، وزاد في دين الله ما لم يأت به الشرع، فإن عمله باطل ومردود عليه، لكمال هذا الدين، قال عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه[(٤)].

فليفرح المسلم بهذا الدين، وليتمسك به، فهو دين كامل شامل، يتمنى

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٥.

(٢) ولأنه لا يجوز إحداث عيدٍ في الإسلام، ولم يشرع لنا غير عيدي الأضحى والفطر لذا لم تتخذ هذه الأمة اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية عيداً.

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٨٤٠) ٦/ ٢٦٥٣.

(٤) صحيح البخاري رقم (٢٥٥٠)٢/ ٩٥٩، وصحيح مسلم رقم (١٧١٨) ٣/ ١٣٤٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

أهل الأديان كلهم عند الموت وما بعده من أحوال الآخرة أن يكونوا من أتباعه، قال سبحانه ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، ولكن لم يُرد الله لهم الهداية، لحكمة منه بالغة قال سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ *.

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾،

نبينا ﷺ قد مات

والله سبحانه متصف بالحياة الدائمة، قال جلَّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، ونبينا محمد ﷺ بشر من البشر، وواحد من المخلوقين، يعتريه ما يعتريهم من الجوع والحزن والمرض والموت، والنبي ﷺ لا نرفعه فوق منزلته، ولا نهضمه حقه، فهو بشر فضله الله بالرسالة، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، لا في حياته ولا بعد مماته، وبعد عمر مبارك في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، والكفاح والدعوة والصبر، توفاه الله عزَّ وجل بعد ثلاث وستين سنة، ولم يتوف الله نبيه ﷺ حتى أكمل الله به الدين، وبلَّغ البلاغ المبين، حتى قال ﷺ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء»، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: صدق والله رسول الله ﷺ تركنا والله على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء» رواه ابن ماجه[1].

(**والدليل على موته ﷺ**) من القرآن (**قوله تعالى:** ﴿إِنَّكَ﴾) يا أيها الرسول (﴿مَيِّتٌ﴾)، وقد مات وغُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ودُفن ﷺ بالمدينة سنة ١١هـ.

(﴿وَإِنَّهُم﴾) أي: جميع الخلق (﴿مَّيِّتُونَ﴾) مثلك، فالجميع سيموت حتماً.

(﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾) في أرض المحشر (﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾) فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلاًّ بعمله، والموت يجري على الأنبياء وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ *.

---

(١) سنن ابن ماجه رقم (٥) ١/ ٤ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

والناس إذا ماتوا يبعثون، والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، **وقوله تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

البعث بعد الموت

(والناس إذا ماتوا يبعثون)، ليجازى كلًّا بعمله، وليقتص بعضهم من بعض حتى البهائم.

والإيمان بالبعث والنشور من القبور، من جملة الإيمان باليوم الآخر، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بالبعث، بل الإيمان بالبعث هو معظم الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي كان ينكره أهل الجاهلية.

(والدليل) على أن الناس يبعثون بعد الموت **(قوله تعالى:** ﴿مِنْهَا﴾) أي: من الأرض.

(﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾) أي: مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض.

(﴿وَفِيهَا﴾) أي: في الأرض (﴿نُعِيدُكُمْ﴾) إذا متم تصيرون إليها فتدفنون بها.

(﴿وَمِنْهَا﴾) أي: من الأرض (﴿نُخْرِجُكُمْ﴾) يوم البعث والحساب (﴿تَارَةً﴾) أي: مرة (﴿أُخْرَىٰ﴾) كقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

(و) دليل آخر على أن الناس يبعثون بعد موتهم **(قوله تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾)، أراد تعالى مبدأ خلق آدم وذريته من الأرض.

(﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾) أي: في الأرض إذا متم.

(﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾) من الأرض بعد البعث أحياءً، ويعيدكم يوم القيامة كما بدأكم أول مرة.

وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

الحساب على الأعمال

(و) الخلق **(بعد البعث)** وقيامهم من قبورهم، **(محاسبون)** على دقيق الأعمال وجليلها، صغيرها وكبيرها كما قال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وكل شيء مكتوب في كتاب ينشر في الحشر قال عزَّ وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، والميزان في الحشر ميزان حق وعدل، قال جلَّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

(و) بعد هذا الحساب فإن جميع الخلق **(مجزيون بأعمالهم)** إن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فشر قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

(والدليل) على أن الخلق يبعثون بعد موتهم، ويحاسبون على أعمالهم **(قوله تعالى)**:

(﴿لِيَجْزِيَ﴾) أي: سيجازي الله (﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾) العمل من الشرك فما دونه، يجازيهم (﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾) من إساءة.

(﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾) في عبادة ربهم ووحدوه، وأحسنوا إلى خلقه، وأخلصوا له الأعمال، سوف يثيبهم على أعمالهم (﴿بِٱلْحُسْنَى﴾) وهي: الجنة، بل ولهم الزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقد فسر النبي ﷺ تلك الزيادة «بالنظر إلى وجه الله الكريم» رواه مسلم[1].

---

(١) صحيح مسلم رقم (١٨١) ١/ ٤٨٩ من حديث صهيب رضي الله عنه.

....

ومن حكمة الله في بعث الناس ومحاسبتهم، أنه لو لم يكن هناك جزاء ولا حساب، لَظَلَم الناسُ بعضهم بعضاً، ولسَلَبَ بعضهم مال بعض، ولعمَّت الفوضى في الحياة، والذي يحجز الناس عن البغي والمعاصي هو تذكر الحساب والعقاب، ولمَّا غفل الكفار عن الحساب تمادوا في الكفر والطغيان، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ * .

ومن كذب بالبعث كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

كفر من كذب بالبعث

وشأن البعث عند الله عظيم، فهو من أركان الإيمان (**ومن كذب بالبعث كفر**)؛ لتكذيبه الله ورسوله وإجماع المسلمين.

(**والدليل**) على كفر من أنكر البعث (**قوله تعالى**: ﴿زَعَمَ﴾) أي: ادَّعى وظن (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾) ضلالاً منهم (﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾) للحساب والجزاء، وقد حكم الله بكفرهم، لإنكارهم البعث، فدل على أن إنكار البعث كفر، بل هو من أعظم كفر أهل الجاهلية، لهذا قال لنبيه ﷺ يا أيها الرسول: (﴿قُلۡ﴾) لمنكري البعث: (﴿بَلَىٰ﴾) ستبعثون، واحلف لهم يا محمد يميناً بالله، قائلاً فيها: (﴿وَرَبِّي﴾) وخالقي (﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾) يوم القيامة للحساب.

(﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾) وتجازون عليها.

(﴿وَذَٰلِكَ﴾) أي: البعث بعد الموت (﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾) سهل لا يعجزه، فهو سبحانه على كلِّ شيءٍ قديرٍ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والذي قَدِرَ على النشأة الأولى، قادر على إنشاء الإنسان مرة أخرى، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾.

فإذا كان الإنسان معدوماً لم يوجد، ثم أوجده الله تعالى حين خلق آدم من طينٍ، وذراريه من ماءٍ مهينٍ، ثم جعل هذا التناسل منه، فإنه لا يعجزه أن يعيدهم وهو الذي أبدعهم قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد» رواه البخاري[1] *.

---

(١) رقم (٤٦٩٠) ٤/١٩٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، وأولهم نوح عليه السلام

وظيفة الرسل

(وأرسل الله جميع الرسل) من أولهم إلى آخرهم، كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه.

(مبشرين) مَنْ وحد الله بالجنة.

(ومنذرين) ومحذرين مَنْ أشرك بالله بالخلود في النار.

(والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا﴾) أرسلناهم إلى الناس (﴿مُّبَشِّرِينَ﴾) من أطاعهم بالجنة، وأعلى الطاعات هي التوحيد.

(﴿وَمُنذِرِينَ﴾) من عصاهم من المشركين والعصاة من النار، وأعظم الذنوب والعصيان هو الشرك، فلم يَدَع الرب خلقه يهيمون في حيرة يبحثون عن الحق، بل أرسل إليهم من يدلهم عليه، ولم يطالبهم بسوى الاتباع، وقد لقي الأنبياء والرسل في سبيل دعوة الناس الابتلاء والإيذاء، فصبروا حتى بلغوا رسالة ربهم.

(﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾) أي: قطعاً لحجج الناس يوم القيامة، لئلا يقولوا: ما أرسلت إلينا رسولاً، وما أنزلت إلينا كتاباً، فانقطعت حجة الخلق على الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإقامة الحجج عليهم، وتبيين الحقِّ لهم، وركز الفطر في قلوبهم، ولم يبق للمعتذر عذر لأن الله أرسل الرسل تترى، رسول يخلف رسولاً، يبينون للناس أمر دينهم ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فقد سلك طريق الشقاء.

أول الرسل وآخرهم

(وأولهم) أي: أول الرسل **(نوح** عليه السلام**)**، وكان بين نوح وبين آدم عشرة قرون، كلهم على الإسلام، فلما حدث الشرك بسبب الغلو في الصالحين أرسل الله إليهم نوحاً، وهو أول رسول إلى أهل الأرض.

وآخرهم محمد ﷺ، والدليل على أن أولهم نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

(**وآخرهم محمد** ﷺ) ثبت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، والدليل على أن آخرهم محمد ﷺ من الكتاب قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ومن السُّنَّة قوله ﷺ: «إنه لا نبي بعدي» متفق عليه[1].

(**والدليل على أن أولهم نوح** عليه السلام) من القرآن (**قوله تعالى**: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾) يا أيها النبي محمد (﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ﴾) أول الرسل (﴿نُوحٍ﴾) عليه السلام، (﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾) أي: من بعد نوحٍ، فهو أوَّل رسولٍ، وأول نذيرٍ عن الشرك، والدليل من السنة على أن أولهم نوح، ما ورد في حديث الشفاعة، أن الناس يأتون إلى آدم فيقول: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» متفق عليه[2].

وأما عدد الأنبياء فقال أبو ذر رضي الله عنه: «قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير» رواه ابن حبان[3]، منهم من قص الله علينا أمره، ومنهم من لم يقصص علينا أمره، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، فأقام الله تعالى الحجة، بإرسال الرسل وإنزال الكتب *.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٢٦٨) ٣/ ١٢٧٣، وصحيح مسلم رقم (١٨٤٢) ٣/ ١٤٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري رقم (٣١٦٢) ٣/ ١٢١٥، وصحيح مسلم رقم (١٩٤) ٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح ابن حبان رقم (٣٦١) ٢/ ٧٦ ـ ٧٩ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وكلُّ أمةٍ بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

ما هي دعوة جميع الرسل؟

(**وكلُّ أمةٍ**) أي: جماعة (**بعث الله إليها رسولاً**) يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم من الشرك.

بدءاً (**من نوح**) عليه السلام، وهو أول رسول إلى أهل الأرض.

(**إلى محمد**) صلى الله عليه وسلم وهوآخر الرسل وخاتمهم وأفضلهم وأكثرهم تابعاً.

وما من أمة من الأمم إلا وقد بعث الله فيهم رسولاً إقامة منه تعالى للحجة على عباده، وإيضاحاً للمحجة، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

(**يأمرهم بعبادة الله وحده**) فكل نبيٍّ يدعو قومه إلى هذا، وهو الذي بعثت به جميع الرسل، ودعوتهم كلهم واحدة وهي إفراد الله بالعبادة.

(**وينهاهم عن عبادة الطاغوت**)، والتبري منها ومن أهلها، فخلاصة جميع رسالات الرسل، هو التوحيد والتحذير من الشرك.

(**والدليل قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾) وقوم (﴿رَّسُولًا﴾) يأمرهم بتوحيد الله قائلاً لهم: (﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾) وأخلصوا لهُ العبادة.

(﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾) بالكفر به، فأول شيء بدأت به الرسل أقوامهم هو التوحيد، وقد أخبر الله أن أول أمر بدأ به نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل، أن قالوا لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وكما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

لماذا الاهتمام بالتوحيد؟

ومعرفتك عظمة التوحيد، تصرف همتك إليه، وإلى معرفته والعمل به

....

غاية جهدك، وإلى معرفة ما يضاده، فيجب على العبد أن يهتم غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين، قبل الواجب من الفروع، كالزكاة والصلاة وغيرذلك، فلا تصح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل، فلا بد من معرفة أصل الدين، ثم معرفة فروعه، وفي حديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه ﷺ إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة» متفق عليه[1]، وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به، فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام، فإن الصلاة وغيرها من الأعمال لا تنفع بدون التوحيد، فإنه لا يستقيم بناء على غير أساس، ولا فرع على غير أصل، والأصل والأساس هو التوحيد، والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر بالتوحيد بنحو عشر سنين.

ومما يبين أن التوحيد هو الأصل، أنه يوجد من يدخل الجنة ولو لم يصل ركعة واحدة، وذلك إذا اعتقد أن الله وحده المستحق للعبادة، وعمل به ومات متمسكاً به، كمن يسلم ثم يقتل شهيداً بعد إسلامه وقبل أن يحين عليه وقت صلاة، يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله أقاتل وأسلم؟ قال: أسلم ثم قاتل، فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال رسول الله ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً» متفق عليه[2].

الصلاة لا تنفع مع عدم التوحيد

والصلاة لا تنفع وحدها مع عدم التوحيد، وكذا لو زكى وصام، لأن أعماله هباء إذا لم يعرف التوحيد، ويعمل به، ويعتقده في قلبه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، وبذلك يعرف

(١) صحيح البخاري رقم (١٣٩٥) ١/ ٤٣٠، وصحيح مسلم رقم (١٩) ١/ ٥٠.

(٢) صحيح البخاري رقم (٢٦٥٣) ٣/ ١٠٣٤، وصحيح مسلم رقم (١٩٠٠) ٣/ ١٥٠٩.

....

عظم شأن إفراد الله بالعبادة، وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد، والعمل به، وقد دخل الشيطان على من دخل في باب الشرك، من آفة قولهم: يكفي في الإسلام النطق بالشهادتين، ويجب على العبد أن يعلم أن مجرد المعرفة والنطق بها دون العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ودون الاحتراز من نواقضها لا تنفع صاحبها.

ومعرفة التوحيد والشرك في الأصل على سبيل الإجمال، سهل هين، من أهون ما يكون وأسهله إجمالاً، ففي زمن بعثة النبي ﷺ كانوا يعرفون التوحيد والشرك، فمن قال لا إله إلا الله، يترك الشرك ويعلم أنه باطل منافٍ لكلمة الإخلاص، ولهذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد وقال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد[1]، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، وأما حين كثرت الشبهات، صعبت معرفة التوحيد والتخلص من ضده، وكثر النفاق، وصار الكثير يقول الشهادة ويعبد مع الله غيره، لأنه لا يعرف معناها ويظن أن معناها هو عبادة الله فقط، دون الكفر بالطاغوت، أوالتلفظ بها دون تحقيق معناها والعمل بمقتضاها *.

(١) المسند رقم (١٦٠٦٦) ٣/ ٤٩٢، ورقم (١٩٠٢٦) ٤/ ٣٤١ من حديث ربيعة بن عباد الديلي.

وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ».

الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ركنا التوحيد

(وافترض الله) أي: أوجب **(على جميع العباد)** من إنس وجن، وذكر وأنثى، عربي أو عجمي، حر أو عبد، **(الكفر بالطاغوت)** والتبرؤ من الآلهة وأهلها واعتقاد بطلانها وأنها لا تنفع ولا تضر، **(والإيمان بالله)** أي: إفراده بالعبادة وحده دون سواه.

ومن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت، لا يسمى موحداً، ومن كفر بالطاغوت ولم يعبد الله، لا يسمى موحداً، إنما الموحد من جمع بين ركني التوحيد، وهما الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾، فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

تعريف الطاغوت

(قال) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المشهور بـ **(ابن القيم)** الجوزية[1] **(ـ رحمه الله تعالى ـ)** رحمة واسعة، وأسكنه أعلى جناته، قال في تعريف **(الطاغوت)**[2] هو: **(ما تجاوز به العبد حده)** أي: قدْره الذي ينبغي له في الشرع، إذا فعل ذلك صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتاً، سواء كان هذا الطغيان، أو التعدي والتجاوز **(من معبودٍ)** مع الله، بأيِّ نوع من أنواع العبادة.

(أو) من **(متبوعٍ)** في معاصي الله ويدخل في ذلك علماء السوء الداعين إلى الكفر والضلال، ويدخل كذلك الكهان والسحرة الذين يُتَّبَعون فيما يقولون.

(أو) من **(مطاعٍ)** من دون الله في التحليل والتحريم، بأن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله، ثم قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فإذا تأملت طواغيت العالم، فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة»[3] *.

(١) المتوفى سنة ٧٥١ هـ.

(٢) ذكره في إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادَّعى شيئاً من علم الغيب،

فإذا عرفت ما بيّنه وأوضحه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في تعريف الطاغوت، تبين لك أن **(الطواغيت)** من الخلق **(كثيرون)** جداً، وذلك أن كل من تجاوز حده في الشرع، صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتاً.

رؤوس الطواغيت

(ورؤوسهم) أي: زعماؤهم بالاستقراء والتأمل **(خمسة)**:

أولهم: **(إبليس)** الشيطان الرجيم، وهو رأسهم الأكبر، فقد تجاوز ما أمر الله به وعصاه، وارتكب ما نهاه عنه، وهو الداعي إلى عبادة غير الله، فهو أول الطواغيت قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقد **(لعنه الله)** فهو مطرود مبعد عن رحمة الله كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

(و) الثاني: **(من عُبِد وهو راضٍ)** بتلك العبادة الصادرة من العابد بأي نوع من أنواعها، فهو طاغوت من رؤساء الطواغيت وكبرائهم، سواء عبد في حياته، أو بعد مماته إذا مات وهو راض بذلك، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

(و) الثالث من الطواغيت: **(من دعا الناس إلى عبادة نفسه)**، كفرعون وأهل الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد، واتخاذ الناس لهم أرباباً من دون الله، أو الإشراك بهم في حياتهم أو بعد مماتهم، كما قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾، فمن دعا الناس إلى عبادة نفسه وإن لم يعبدوه فإنه من رؤوس الطواغيت، سواء أجابوه إلى ما دعاهم إليه أم لم يجيبوه، لأن العبادة لا تصرف إلا لله، ومن دعا إلى صرف العبادة عن الله إلى نفسه فقد طغى وأتى بأعظم البهتان.

الكهان

(ومن ادَّعى شيئاً من علم الغيب) كما يزعمه الكاهن ونحوه، فهو الرأس

الرابع من الطواغيت، وما يزعمه كذب وخديعة على عامة الناس، قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، فإن علم الغيب لا يعلمه إلا الله، لا تعلمه الملائكة، والأنبياء، ولا من دونهم من الجن أو السحرة أو الكهان، وهذا من تمام إحكام الخلق، وكمال الهيمنة، وعظمة الربوبية قال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، وقال سبحانه: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

الحكم بغير ما أنزل الله

(و) الخامس من الطواغيت: **(من حكم بغير ما أنزل الله)** كمن يحكم القوانين الجاهلية، أو بشيء من وضع البشر، وهو ليس من الشرع قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ﴾، وقال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فالله عزَّ وجل هو الذي خلق الخلق، وهو أعلم بأحوالهم وأفعالهم، وهو الذي أنزل الأحكام العادلة التي تفصل في حكوماتهم ففرض على جميع الخلق أن يتحاكموا إلى شرعه *.

والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ

لا إكراه في الدين

(والدليل) على أن الله افترض على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله **(قوله تعالى:** ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾) أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، لكماله وقبول الفطرة له، ولأنه بيِّن واضح جليٌّ في دلائله وبراهينه، لا يحتاج أن يُكرِه أحداً على الدخول فيه، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

ولا منافاة بين هذه الآية والآيات الدالة على وجوب الجهاد، لأن الجهاد مشروع لقتال كل من وقف في وجه الإسلام، أما أنه يلزم ويكره على الدخول في الإسلام فلا، لأنه (﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾) أي: ظهر وتميز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلال، بالآيات والبراهين الدالة على ذلك، فإذا تبين الرشد من الغي فإن كل نفس سليمة لا بد أن تختار الرشد على الغي.

صفة الكفر بالطاغوت

(﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾) بخلع الأنداد والأوثان ويتبرأ منها ومن أهلها، فقد حقق الركن الأول من ركني التوحيد قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «صفة الكفر بالطاغوت أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها وتبغضها، وتكفِّر أهلها وتعاديهم»[١]. والكفر بالطاغوت شرط في قبول العبادات قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لا يكفي أن يعبد الله ويحبه ويتوكل عليه، وينيب إليه ويخافه ويرجوه، حتى يترك عبادة غيره والتوكل عليه والإنابة إليه وخوفه ورجاءه، ويبغض ذلك»[٢].

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٦٠.

(٢) شفاء العليل ص ٣٤٦.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. **وهذا معنى: لا إله إلا الله،**

معنى الإيمان بالله

(﴿وَ﴾) إن من (﴿يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾) ويفرده بالعبادة ويخلص له جميع الأعمال، فقد حقق الركن الثاني من ركني التوحيد، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «ومعنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم»[1].

فمن حقق ركني التوحيد وهما الكفر بالطاغوت والإيمان بالله (﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾) أي: تمسك (﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾) وهي: التوحيد، والعروة هي: موضع شد اليد، والوثقى هي: القوية.

(﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾) أي: لا تنفك ولا تنفصم، أي: قد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم، فمن تمسك بالتوحيد وكفر بالطاغوت وصل الجنة بكل حال.

(وهذا معنى لا إله إلا الله) فإن معنى (لا إله) كفر بالطاغوت، و(إلا الله) إيمان بالله واستسلام لأمره وشرعه، وبدأ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثوابت *.

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٦٠.

(وفي الحديث) الطويل الذي رواه الترمذي[1] عن معاذ بن جبل ﵁ قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، وقال: كفَّ عليك هذا، فقلت يا نبي الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!».

الإسلام رأس الدين

(رأس الأمر) يعني: رأس الدين الذي جاء به النبي ﷺ هو **(الإسلام)** ـ يعني: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ، فمن التزم بها دخل الإسلام.

وأراد المصنف ـ رحمه الله ـ الاستدلال بهذا الحديث على أن لكلِّ شيءٍ رأساً، فرأس الأمر الذي جاء به محمد ﷺ الإسلام، فمن ادعى الاستجابة لله ورسوله وهو لم يقبل الحق ويدخل في الدين فقد كذب وافترى.

عمود الدين

(وعموده) أي: الدين **(الصلاة)** هذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنها من

(١) رقم (٢٦١٦) ٥/ ١١ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

....

الدين بهذا المكان العظيم، وهو أن مكانها من الدين مكان العمود من الفسطاط[1]، فكما أن عمود الفسطاط إذا سقطت سقط الفسطاط، فكذلك إذا فقدت الصلاة، سقط دين تاركها ولم يبق له دين، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وأما قوام الدين الذي يقوم به الدين كما يقوم الفسطاط على عموده فهي الصلاة»[2]، لأن مجرد ترك الصلاة كفر مخرج من الملة.

وهذا الحديث من الأدلة على أن من ترك الصلاة كسلاً فهو كافر، ومن الأدلة أيضاً على أن من تركها كفر قوله عليه الصلاة والسلام: «بين الرجل وبين الشرك والكفر، ترك الصلاة» رواه مسلم[3]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة» رواه مالك والدارقطني[4]، وهي من أحب الأعمال إلى الله، وأول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة، وهي التي فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج فلم يجعل فيها بينه وبين رسوله محمد ﷺ واسطة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: «إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع» رواه مالك[5]، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتورث الخشوع، والخشية من الله *.

---

(١) أي: الخيمة، والفسطاط بيت من شعر. لسان العرب ٩/١٢٦، مختار الصحاح ص ٢١١.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٧٤.

(٣) صحيح مسلم رقم (٨٢) ١/ ٨٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) موطأ مالك ١/٣٩ ـ ٤٠، وسنن الدارقطني ٢/٥٢.

(٥) موطأ مالك رقم (٦) ١/٦.

وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

ذروة الدين في الجهاد

(وذروة سنامه) ذروة كل شيء أعلاه وأرفعه، والسنام: هو أعلى ظهر البعير، ومعنى ذروة سنام البعير: أي أعلى جزء في سنامه، وهكذا الدين ذروة سنامه وعلو أمره ورفعته وعزته هو في **(الجهاد في سبيل الله)**، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وهذا يدل على أنه أفضل الأعمال بعد الفرائض»[1]، لأن به صيانة الدين وحمايته، وبه دعوة الناس إلى دين الله وإلزامهم بالحق، فهو ذروة سنامه من جهة ما تضمنه من حماية الدين والدعوة إلى الحق.

فالجهاد هو أعلى وأرفع خصال الدين، قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «الجهاد لا يقاومه شيء من الأعمال»[2]، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: «لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟!» رواه البخاري[3]. وذلك لأن فيه بذل المهج التي ليس شيء أنفس منها، فيبذل مهجته، ويبذل ماله لظهور الدين وتأييده، ولما فيه من جهاد الكفار والمنافقين، فبذلك استحق أن يكون من الدين بهذه المكانة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وقد جاءت نصوص عديدة في فضائله وما أعد الله للمجاهدين من عظيم الثواب، كقوله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٤٦.

(٢) شرح الأربعين لابن دقيق العيد ص ١٦٩.

(٣) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٣) ٣/ ١٠٢٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة» متفق عليه[1]، وقوله ﷺ: «غدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها» متفق عليه[2].

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والجهاد عمل مشكور لصاحبه في الظاهر لا محالة، وهو مع النية الحسنة مشكور ظاهراً وباطناً، ووجه شكره نصره للسنة والدين»[3].

وقد أعد الله للمجاهدين درجات عالية في جنات النعيم، قال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» رواه البخاري[4].

والجهاد ركن من أركان الدين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله»[5]، وهو برهان إيمان العبد إذا صدق فيه مع الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله»[6].

(١) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٥) ٣/ ١٠٢٧، وصحيح مسلم رقم (١٨٧٨) ٣/ ١٤٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦١٩٩) ٥/ ٢٤٠١ من حديث أبي أيوب رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (١٨٨٣) ٣/ ١٥٠٠ من حديث أم حارثة رضي الله عنها.

(٣) الفتاوى ٤/ ٩.

(٤) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٧) ٣/ ١٠٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الفتاوى ١٠/ ٣٠٠.

(٦) الفتاوى ٣/ ٢١٢.

والله أعلم، وصلى الله على محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

ثم ختم المصنف ـ رحمه الله ـ هذا المصنَّف العظيم بردِّ العلم إلى مَنْ أحاط بكلِّ شيءٍ علماً فقال: **(والله أعلم)**.

ثم صلى على خير خلقه بقوله: **(وصلى الله)** أي: اللهم اثن **(على)** نبينا **(محمَّدٍ)** في الملأ الأعلى، **(و)** اثن أيضاً **(على آله)** وهم أتباعه على ملته، **(وصحبه)** أي: صحابته الكرام، **(وسلم)** عليهم، أي: اجعلهم سالمين من الآفات والشرور والمكاره.

نسأل الله أن يجعلنا من عباده الموحدين، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً *.

❊ ❊ ❊

الفهرس

للتوزيع
هاتف : ٠٥٠٥٤٤٣٢٤٨

